جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل
دراسة أسلوبية دلالية

إعداد
لافي محمد محمود زقوت

إشراف
أ.د: خليل محمد عودة
أ.د: يحيى عبد الرؤوف جبر

قُدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيــة وآدابهــا بكليــة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2010

لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل

دراسة أسلوبية دلالية

إعداد

لافي محمد محمود زقوت

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2010/5/30 وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة:	**التوقيع**
1. أ. د خليل عودة رئيساً ومشرفاً	....
2. أ. د يحيى جبر مشرفاً ثانياً	....
3. أ. د حسن سلوادي ممتحناً خارجياً	....
4. أ. د عوده عبد الله ممتحناً داخلياً	....

[الإهداء]

إلى والدي الشاعر

الذي أضاء دربي بتوجيهاته النيِّرة

إلى أمّي الحبيبة

التي أمدّتني بوقود دعواتها الصادقة

إلى إخواني وأخواتي

الذين أكرموني بعظيم وقفاتهم المباركة

وإلى كل من اتخذ القرآن دستوراً ومنهج حياة

أهدي هذا العمل المتواضع

الباحث

[الشكر والتقدير]

الشكر أولاً لله وحده، الذي كان لي خير معين ونصير.

ثم أتوجه بالشكر والتقدير إلى كلّ مَن مدّ لي يد العون والمساعدة

لإتمام هذه الدراسة، وأخصّ بالذكر:

أ.د: خليل عودة وأ.د: يحيى جبر

اللذين بذلا عظيم الجهد لتبصر هذه الدراسة النور.

فلهما مني كل تقدير ووفاء.

كما أتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى عضوي لجنة المناقشة،

اللذين تفضلا بقبول مناقشة هذه الدراسة،

وإثرائها بتوجيهاتهم المباركة.

الإقـــــرار

أنا الموقع / ـــــة أدناه، مقدم /ــــة الرسالة التي تحمل العنوان:

لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل
دراسة أسلوبية دلالية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء مـــا تمـــت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The Work Provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name :	**اسم الطالب:**
Signature :	**التوقيـــع:**
Date :	**التاريخ:**

Nv

لغة الخطـــاب القرآني في بني إســـرائيل

دراسة أســـلوبية دلاليـــــة

إعداد

لافي محمد محمود زقوت

إشراف

أ. د خليل عودة وأ. د يحيى جبر

الملخّص

تبحث هذه الدراسة في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، فتتناول في دراسة تمهيديــة الفرق بين مفاهيم (العبراني، والإسرائيلي، واليهودي)، ثم تعرض لأهــم المحطــات التاريخيــة لتطور بني إسرائيل عبر العصور.

أما في الفصل الأول: فتقدم تحليلاً صوتياً للغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل، مــن خلال دراسة الإيقاعين الخارجي والداخليّ، والوقوف على أهمّ الظواهر الصــوتية كظــاهرتي التنغيم، والتماثل في المقطع الصوتي، وأثر كل ذلك في توجيه الدلالة.

وفي الفصل الثاني: تصنف الألفاظ الواردة في لغة الخطاب إلى ثلاثة حقول دلالية: حقل ألفاظ السلوك، وحقل ألفاظ الوصف، وحقل ألفاظ الجزاء، وتخلص إلى تحديــد أهــمّ العلاقــات الدلالية داخل الحقل الواحد، والحقول كلها.

أما في الفصل الثالث: فتقدم تحليلاً تركيبياً للغة الخطاب، فتبحث في الأساليب الإنشائية، التي مثّلت عدولاً عن المألوف، لتسهم في تحقيق معان بلاغية يستدعيها السياق. ثمّ تتناول أهمية السياق، وأثره في تخيّر الألفاظ، والاسم، والفعل، وصيغة الفعل الماضي، والمشــتق، وصــيغة الجمع، وسياقات الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير. ثــمّ تبحــث فــي أهــمّ الظواهر الأسلوبية التركيبية، كظاهرتي الالتفات والتعريض.

ثم تعرض في الفصل الأخير لظاهرة التصوير الفني في لغة الخطاب، كالتصــوير مــن خلال اللفظ، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والقصة، والحقيقة. وتخلــص إلــى تحديــد أهــمّ الخصائص المميِّزة لهذه الظاهرة.

أما الخاتمة، فتوجز الحديث في أهمّ النتائج التي توصل إليها الباحث عبر هذه الدراسة.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الكريم محمد، وعلى آلـه الطيبين الطاهرين، وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنّ البحوث القرآنية، رغم تعددها وكثرة جوانبها، تبقى عاجزة عن الإحاطة بكل أسرار هذا الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الكتاب الخالد الذي يتسم بسموّ المعاني، وقوة البيان، وروعة الإعجاز.

حظي بنو إسرائيل بنصيب وافر من القصص، واللوحات الفنية والتعبيرية والجمالية في لغة الخطاب القرآني، والقرآن حينما يعرض لقصة بني إسرائيل، إنما يعرضها لاستخلاص العبر والعظات، ولتكون دليلاً للأمة المسلمة، ينير لها طريقها، ويهديها إلى سواء السبيل.

وبشكل عام، فإن لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل تمثّل نصّاً دلالياً خاصاً، ينطلق باللغة إلى مستوى يعجّ بالطاقات الإيحائية، والظواهر الجمالية، التي تشكل تربة خصبة لدراسة هذا النص دراسة أسلوبية دلالية.

وإذا كانت الأسلوبية فرعاً من اللسانيات الحديثة، التي تعنى بتحليل الأساليب الأدبية، والاختيارات اللغوية، وتهتمّ بدراسة الطريقة الفنية في التعبير عن الدلالات أو المعاني، فإن علم الدلالة يمثل غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية، ويسهم في إزالة الغموض الذي يكتنف اللفظ، عن طريق كشف كلّ الجوانب المحيطة به.

والذي دفعني إلى هذه الدراسة قوله تعالى في وصف اليهود: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ) {البقرة: 96}. فالآية غاية في الروعة والجمال؛ إذ تصوّر لنا حرص اليهود على الحياة، أياً كانت هذه الحياة، وذلك بما يلقيه التنكير على اللفظ من قيمة جمالية تعجز كل الكلمات عن الإتيان بمثلها.

أما مشكلة هذه الدراسة، فتكمن في خلو الدراسات القرآنية من دراسة متخصصة للغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل، في بعدها الأسلوبيّ والدلاليّ، فالدراسات القرآنية، على حدود اطلاع الباحث، تفتقر إلى هذا النوع من البحوث، الذي ينزع إلى دراسة أسلوب الخطاب، وكيفية ما يقال، والظواهر الأسلوبية والدلالية التي يتشكل من خلالها النصّ القرآنيّ.

- **الدراسات السابقة:**

تعددت الدراسات القرآنية والتاريخية التي تحدثت عن بني إسرائيل، وأخلاقهم، وسماتهم، وأحوالهم مع الأنبياء من لدن موسى υ، وحتى نبينا محمد ρ، ولعل أهمها، على حدود اطـــلاع الباحث، ما يأتي:

– دراسة **محمد سيد طنطاوي**، وهي بعنوان: **بنو إسرائيل في القرآن والســنة**، حيــث عرض الباحث لتاريخ بني إسرائيل، وتناول حديث القرآن عنهم، فبحث فـــي نعـــم الله علـــيهم، وعقوباته التي أنزلها بهم، نتيجة نكولهم، وتمحّلهم، لتأخذ الدراسة بعدها التاريخيّ والديني؛ ذلـــك أنها تهدف إلى توجيه الحدث التاريخيّ بما يحقق الغاية الدينية، المتمثلة بضرورة الطاعة لله Y، والبعد عن مخالفته وعصيان أمره.

واستفاد **(طنطاوي)** من بعض التوجيهات اللغوية بما يخدم غرضه الدينيّ، دون أن يبحث في لغة الخطاب، أو يقف على الأسلوب أو الدلالة كمحدد للسلوك أو موجّه للمعنى.

– دراسة **طلال محمد إبراهيم خلف**، وهي بعنوان: **قيم اليهود في القصـــص القرآنـــي، ودورها في توجيه فكرهم التربوي المعاصر**، حيث عرض الباحث للمادة مـــن ناحيـــة تربويـــة دينية، ولم يلتفت لا من قريب ولا من بعيد لدور اللغة في توجيه ذلك.

– دراسة **فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي**، وهي بعنوان: **دلالة السياق وأثرهـــا في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى** υ، وهي رسالة ماجستير (غير منشـــورة) مقدمـــة لكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، فهي تقتصر على البحث فـــي قصـــة موســـى υ، وتنزع إلى دراسة المتشابه اللفظي، وتقدم تحليلاً لغوياً، يضفي على النص قيمة جمالية وفنيـــة، ولكنها لم تبحث في بني إسرائيل، ولم تستثمر ذلك في وصفهم وتحديد سلوكهم، ذلك أنّها كانـــت مقتصرة على المتشابه اللفظي، فلم تتجاوزه.

– دراسة **إبراهيم أبو عواد**، وهي بعنوان: **صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل**، حيث يبحث في سمات بني إسرائيل عبر العصور، مستعيناً بالقرآن والسنة والأناجيل، ويعمد إلى تحديد أوصافهم، كقتل الأنبياء، وكراهية الحق، وقسوة القلوب، وغير ذلك من السمات والسلوك، لكنه لم يستثمر اللغة في البحث عن الصورة الفنية والجمالية لهذه السمات أو تلك.

- **أهمية الدراسة:**

تكمن أهمية هذه الدراسة، في أنها تعمد إلى إحصاء لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل ووصفها وتحليلها، وتلقي الضوء على أبرز المحطات التاريخية في بني إسرائيل، بما يعزز الدراسة الأسلوبية والدلالية، ويؤكد قيمتها المعجزة التي تفوق كل قيمة.

تمثلت في دراستي هذه منهج التحليل الأسلوبي الحديث وصفاً وإحصاءً، لأخلص في النهاية إلى تأويل النتائج وتفسيرها، ولعلّ هذا المنهج يعيننا على تحديد الأنماط الأسلوبية للغة الخطاب؛ فهو يهتمّ بدراسة النص دراسة تحليلية وصفية، وذلك بالاعتماد على المكونات الداخلية دون التركيز على العوامل الخارجية.

تتكون هذه الدراسة من تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة؛ تناولت في **الدراسة التمهيدية** تاريخ بني إسرائيل في ضوء القرآن، وعرضته عرضاً موجزاً، يضيء أهمّ الملامح التاريخية في بني إسرائيل، ففرّقت بين مفاهيم (العبراني، والإسرائيلي، واليهودي). ووقفت في فذلكة تاريخية على الجذور الأولى لبني إسرائيل كأمة، ثمّ عرضت لأهم المحطات التاريخية لبني إسرائيل في عصر صدر الإسلام، واستقيت ذلك كله من كتاب الله Y، ومن كتب التفسير والتاريخ.

وما كانت هذه الوقفة التمهيدية إلا لتحديد المفاهيم والاصطلاحات، التي قد تختلط على كثير من الناس، ولمّا كانت لغة الخطاب تتسم بالدقة والعمق في تتبع أحوال بني إسرائيل، بما يعزز الغرض الديني المتوخى، آثرنا البدء بهذه الدراسة التمهيدية، دون التركيز عليها باعتبارها جزءاً رئيساً من محاور التحليل الأسلوبي والدلاليّ.

عرضت في **الفصل الأول** للتحليل الصوتي، فتناولت الإيقاع الخارجي، الناجم عن استخدام الفاصلة القرآنية بأسلوب موسيقيّ أخّاذ، والإيقاع الداخليّ وما يكشفه من أبعاد إيحائية وتعبيرية للنص، كالوقوف على الأصوات المهموسة، والأصوات المفخمة والمرققة، والأصوات الصفيرية، وأصوات الذلاقة. وأمعنت النظر في بعض الظواهر الصوتية، كظاهرتي التنغيم، والتماثل في المقطع الصوتي.

أما في **الفصل الثاني**، فعرضت للتحليل الدلاليّ، في ضوء نظرية الحقول الدلالية، وقسمتها ثلاثة حقول: حقل ألفاظ السلوك، وحقل ألفاظ الوصف، وحقل ألفاظ الجزاء.

ولعل هذه الحقول تسهم في تأكيد الوحدة الدلالية في لغة الخطاب، لتأخذ الحقول الثلاثة بعداً تكاملياً في تصوير الحالة الإنسانية التي عاشها بنو إسرائيل عبر العصور.

أما في **الفصل الثالث**، فقد عرضت للتحليل التركيبي في لغة الخطاب، فتناولت أهمّ الظواهر التركيبية المميِّزة للغة الخطاب في بني إسرائيل، التي شكلت عدولاً أسلوبياً لهذه اللغة عن المألوف، فبحثت في أساليب الإنشاء الطلبي الواردة في لغة الخطاب، كالأمر والنهي والاستفهام والنداء، وما يحمله كل أسلوب من معان بلاغية تضفي على النص إيقاعات جمالية وفنية.

ثمّ لمحت أهمية السياق في تخيّر الألفاظ، سواء أكانت هذه الألفاظ من المتشابه اللفظي أم غيره، وأهميته في تخيّر الاسم والفعل، وصيغة الفعل الماضي، وصيغة المشتق، وصيغة الجمع، وسياقات الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير.

ثم تناولت أهمّ الظواهر الأسلوبية في لغة الخطاب، كظاهرة الالتفات، وما تمثله من تحوّلات في الصيغ، والضمائر، والعدد، ووضع الظاهر موضع المضمر.

وتناولت ظاهرة التعريض، باعتبارها أسلوباً بلاغيّاً يسهم في تصوير الشخصية الإسرائيلية، بأسلوب لا يفطنه إلا المتدبّر لآيات الله Y والممعن فيها.

أما في **الفصل الأخير**، فعرضت لظاهرة التصوير الفني في لغة الخطاب، فتناولت أشكال التصوير، كالتصوير من خلال اللفظ، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والقصة، والحقيقة. ثم تناولت أهمّ الخصائص المميِّزة لظاهرة التصوير في لغة الخطاب، كالتناسق الفنّي، والإبداع في عرض المشاهد، والصور المتقابلة، والإجمال، ودقة البيان.

ثم أنهيت هذه الدراسة بخاتمة أوجزت فيها الحديث عن أهمّ النتائج التي توصلت إليها، ثم أوردت قائمة بالمصادر والمراجع.

وبعد، فهذا عمل متواضع، أسأل الله أن يجعله فاتحة خير، للانطلاق نحو العلم النافع، وأن يجعلني ممن يحفظون كتاب الله بقلوبهم، ويهتدون بهديه، ويتبصّرون كنهه وإعجازه.

إن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان

والله من وراء القصد، وبه الهداية والتوفيق.

دراسَـــــــــة تمهيديّـــــــــة:

تاريخ بني إســـــرائيل في ضوء القـــــرآن الكـــــريم

وتشمل:

المبحث الأول: قراءة في المفاهيم

المبحث الثاني: بنو إسرائيل الجذور الأولى

المبحث الثالث: بنو إسرائيل في عصر صدر الإسلام

المبحث الأول: قراءة في المفاهيم

يظنّ كثير من الناس أنّ مفاهيم (العبرانيّ، والإسرائيليّ، واليهوديّ) ذات مدلول واحد، ولكنّ تاريخنا وتاريخهم، على حدّ سواء، يشيران إلى كلّ مفهوم على أنه يمثل حقبة زمنية محددة، قد لا نجد فيها ذلك التداخل الذي أراد له بعض الباحثين أن يكون.

أولاً: العبرانيّ

وهو من الفعل الثلاثي (عبر) بمعنى شقّ، والعِبْر: اسم موجود في اللغة العبرية ومعناه كما هو في العربية: الجهة الأخرى التي يستلزم الوصول إليها اجتيازاً وعبوراً، والعبريّ لفظ يدل على التحوّل والتنقل، وفيه جانب كبير من البداوة.[1]

وقيل: إنه مشتق من اسم إبراهيم υ، فهو إبرام وعبرام، سمي كذلك نتيجة نزوحه من أور (العراق) إلى أرض كنعان عبر نهر الفرات، والعبرانيّون من أقدم التسميات التي أطلقت على الجماعات اليهودية[2]، إلى جانب عابيرو وحابيرو وهابيرو وعابورا وخابيرو، وكلّ هذه الألفاظ إنّما تدلّ على التحوّل والانتقال، اللذين يسهمان في الإفصاح عن الواقع السلوكيّ لليهود عبر التاريخ؛ فالعابيرو، مثلاً " طبقة دنيا ناقمة، ولاجئون هربوا إلى المناطق الجبلية؛ ليعيشوا لصوصاً وقطّاع طرق ضدّ روّاد طرق التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيراً في المناطق الجبلية "[3]، ليسهم ذلك في تشكيل صورتهم العدوانية وتمرّدهم اللاأخلاقي عبر العصور.

والكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمُّون بني إسرائيل بالعبريين؛ لارتباطهم بالصحراء أولاً، ثمّ ليميّزوهم عن أهل العمران، ولهذا كان بنو إسرائيل بعد استقرارهم ينفرون من كلمة عبري، ويؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط، في حين يذهب **(ولفنسون)** إلى أنهم سُمّوا بالعبريين نسبة إلى (عِبْر)، وهو الجدّ الخامس لإبراهيم υ.[4]

---

[1] انظر، ابن دريد، محمد بن الحسين: **كتاب الاشتقاق**. تحقيق: عبد السلام هارون. ط(2). بغداد: مكتبة المثنى. 1979. ص496–497. وظاظا، حسن: **الساميون ولغاتهم**. ط(2). دمشق: دار القلم. بيروت: الدار الشامية. 1990. ص62.

[2] انظر، المسيري، عبد الوهاب: **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. مج(2). ط(1). القاهرة: دار الشروق. 1999. ص205.

[3] طومسون، توماس: **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**. ترجمة: صالح علي سوداح. ط(1). بيروت: بيسان للنشر. 1995. ص95.

[4] انظر، ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اللغات السامية**. ط(1). مصر: مطبعة الاعتماد. 1929. ص77 – 78.

وأيّاً كان الأمر، فإنّ الدلالة اللغوية تجعلنا أكثر قبولاً للرأي القائل بأن السبب الرئيس في تسمية بني إسرائيل بالعبريين أو العبرانيين يعود إلى عبور إبراهيم υ لنهر الفرات، مع العلم أنّ اليهود قد نعتوا أنفسهم بهذه الأوصاف أملاً في ربط أنفسهم بحقب زمنية لم يعيشوها قط، وهذا ما سيظهر معنا لاحقاً إن شاء الله.

ثانياً: الإسرائيليّ

وهو من المفاهيم المرادفة لليهودي عند كثير من الدارسين، غير أنه أطلق قبل ظهور مفهوم اليهودي، وقد جاء بصيغ مختلفة منها: بنو يسرائيل أو جماعة يسرائيل أو يسرائيلي[1]، على أنه من الكلمات العبرية المركبة من (يَسْر) بمعنى غلب، و (إيل) بمعنى القادر، ويظهر أنّ اليهود يفضلون اسم (الإسرائيلي) على غيره من الأسماء؛ لاعتقادهم أنّ الربّ هو الذي أطلقه على أبيهم يعقوب υ، ثمّ يسعون إلى ربط هذه التسمية بالوعد الذي أعطاه الله لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأحقيتهم في هذه البلاد كونهم شعب الله المختار.[2]

وهذا يعني أن كلمة (إسرائيل) هي الاسم البديل ليعقوب υ، قال تعالى: (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ) **{آل عمران: 93}**. وإسرائيل في هذه الآية هو يعقوب υ، وقد فسّرها كثير من الدارسين على أنها تعني عبد الله، أو صفوة الله، أو ليحكم إيل، أو أنها تعني يجاهد مع الله.[3]

وتجدر الإشارة إلى أن لفظ (إسرائيل) قد استعمل مرادفاً لبني إسرائيل منذ أيام يعقوب υ، ومن أبناء يعقوب υ تكونت أمة بني إسرائيل، ورغم أنّ بني إسرائيل قد تميّزوا بذلك عن غيرهم من باقي ذرية إبراهيم υ، إلا أنهم كانوا على ديانة أبيهم يعقوب وشريعة جدهم إبراهيم، عليهما السلام، التي تقوم على أساس التوحيد وشريعة الإسلام العظيم.[4]

---

[1] انظر، المسيري، عبد الوهاب: **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. مج(2). ص205.

[2] انظر، المقريزي، تقي الدين: **تاريخ اليهود وآثارهم في مصر**. تحقيق: عبد المجيد دياب. القاهرة: دار الفضيلة. 1997. ص18.

[3] انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. ج(1). ط(5). الرياض: دار السلام للنشر. الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي. 2001. ص127.

[4] انظر، عرابي، رجا: **سفر التاريخ اليهودي**. ط(1). سورية: الأوائل للنشر. 2004. ص 73.

يظهر ذلك من خلال قوله تعالى: (أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ)[1]**{البقرة: 133}.**

ثالثاً: اليهوديّ

وهو من الألفاظ الدالة على الرجوع والتوبة، فنقول: هاد وتهود بمعنى تاب ورجع إلى الحق، ويدخل في هذا المعنى قول الله تعالى على لسان موسى υ: (**إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ**) **{الأعراف: 156}**، وقد سمي بنو إسرائيل يهوداً بعد توبتهم عن عبادة العجل وما تجرؤوا به على الله Y، حينما طلبوا من موسى أن يروا ربهم جهرة، وقد لزمهم هذا الاسم بعد قول موسى υ: (**إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ**) أي رجعنا وتضرعنا.[2] وأورد (**ابن منظور**) أن يهود اسم لقبيلة كانت تعرف باسم (يهوذ) فعربت بقلب الذال دالاً، قال (**امرؤ القيس**)[3]: **(الطويل)**

أولئِك أَوْلَى مِنْ يَهودَ بِمَدْحِهِ   إذا أنْتَ يَوْماً قُلتَها لَمْ تُؤنَّبِ

ومنها: هادوا بمعنى دخلوا في اليهودية، قال تعالى: (**مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**) **{النساء: 46}.**[4]

وذكر (**المقريزي**) أن يهود من مصدر (يَدُه) بفتح، فضمّ والهاء لا تنطق، وتعني: الحمد والشكر؛ إذ قالت والدة (يهوذا) ذلك حينما ولدته، ومنهم من يقول: إنهم سُموا بذلك لأنهم يتهوّدون أي يتحركون عند قراءة التوراة.[5]

---

(1) انظر، الزمخشري، أبو القاسم: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.** ج(1). تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط(1). بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1997. ص218-219.

(2) انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم.** مج(2). ص1159. وابن دريد، محمد بن الحسين: **كتاب الاشتقاق.** ص549. والزجاج، إبراهيم بن السري: **معاني القرآن وإعرابه.** ج(1). شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي. ط(1). بيروت: عالم الكتب. 1988. ص146.

(3) لم نجد هذا البيت في ديوان امرئ القيس، ولكننا وجدناه في الكتاب لسيبويه، على أنه لامرئ القيس، وفيه خلاف. انظر، سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب.** ج(3). تحقيق: عبد السلام هارون. ط(2). القاهرة: مكتبة الخانجي. الرياض: دار الرفاعي. 1988م. ص254.

(4) انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب.** ج(15). ط(3). بيروت: دار صادر. 2004. مادة **(هود).** ص107.

(5) انظر، المقريزي، تقي الدين: **تاريخ اليهود وآثارهم في مصر.** ص19.

وأيّاً كان الأمر، فإن اسم يهودي يعود إلى يهوذا الابن الرابع ليعقوب υ، الذي حكم سائر الأسباط الأخرى، وبقي مقدماً عليهم إلى أن انقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان υ إلى قسمين: مملكة يهوذا ومقرها أورشليم، وتتكون من سبطي يهوذا وبنيامين، ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة، وتتكون من بقية الأسباط العشرة.[1]

من هنا ندرك أن لفظ يهوديّ أعمّ وأشمل من اللفظين السابقين عبراني أو إسرائيلي؛ ذلك أنّ لفظة يهودي أصبحت تضمّ العبريين والإسرائيليين وكلّ من دخل دين اليهود ولو كان من أصول أخرى[2]، وليس أدل على ذلك من أنّ الصهاينة اليوم يسعون جاهدين إلى إبراز ما يسمى بيهودية الدولة في إشارة إلى أحقيتهم الدينية بهذه الأرض، معتمدين في ذلك على توراتهم التي حرّفها المحرّفون وبدّلها المبدّلون.

يظهر لنا أن مفاهيم (العبراني، والإسرائيلي، واليهودي) مرتبطة بحقب زمنية معينة؛ إذ يشكل مفهوم (العبرانيّ) الحقبة الزمنية الأولى، التي تمتد من إبراهيم إلى موسى، عليهما السلام، ليصبح اسم بني إسرائيل علماً على أسباط يعقوب الاثني عشر، وليستمر الأمر كذلك حتى قيام مملكة داود (1000–960 ق.م) وما أن يتوفى سليمان υ، حتى يظهر الاسمان (إسرائيل، ويهوذا)، على شكل نظامين منفصلين تسودهما الصراعات والنزاعات، ليبقى الأمر كذلك إلى أن يدمر الآشوريون دولة إسرائيل سنة (721 ق.م)، ليظهر اسم اليهود علماً على كلّ من اعتنق الديانة اليهودية المحرفة، إلى أيامنا هذه.[3]

ولا يعني هذا أنه لم يحدث تداخل للمفاهيم عبر العصور، فاليهود حديثاً استطاعوا أن يجمعوا هذه المفاهيم بما يتوافق وأهدافهم وطموحاتهم، أملاً في تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه عبر عصور خلت.

---

[1] انظر، طعيمة، صابر: **التاريخ اليهوديّ العام**. ج(1). ط(3). بيروت: دار الجيل. 1991. ص33–34.

[2] انظر، علي، جواد: **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. ج(6). ط(1). بيروت: دار العلم للملايين. 1970. ص532.

[3] انظر، مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**. ج(1). د.ط. الإسكندرية: دار المعرفة. 1999. 50 – 51.

المبحث الثاني: بنو إسرائيل الجذور الأولى

لعلّ قراءة العهد القديم تسعفنا في إلقاء الضوء على كثير من الحلقات المفقودة من تاريخ اليهود، على أن نستنير بهدي قرآننا العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو قول الله (وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا)؟! **{النساء: 122}**.

ينسب اليهود أنفسهم إلى إبراهيم υ، العبرانيّ الذي عبر نهر الفرات قادماً إلى أرض كنعان، فيسمَّون بالعبرانيين والعبريين نسبة إليه، وإليه υ ينسبون، زوراً، أسطورة الأرض الموعودة، التي سيحققها الله لهم من الفرات إلى النيل.[1]

وتجدر الإشارة إلى " أنّ اليهودية والنصرانية دينان لم يكن لهما وجود في عهد إبراهيم υ، وإنما جاءتا بعده بزمن طويل، وأن استعمال كلمة (عبري) بمعنى يهودي يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة لم يكن لهم وجود فيها "[2]. يظهر ذلك بوضوح من خلال قوله تعالى: (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ) **{آل عمران: 65-66}**.

يبدأ تاريخ بني إسرائيل كأمة، وليس كديانة، من إسرائيل υ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، الذي نشأ في أرض كنعان وهي فلسطين، نتيجة هجرة جده إبراهيم υ ومَن معه من العراق (إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ) **{سورة الأنبياء :71}**، وهي أرض بيت المقدس على رأي كثير من المفسرين.[3]

وُلِد ليعقوب υ اثنا عشر ولداً، لم يكن منهم سوى يوسف نبيّاً كريماً مرسلاً، ولعلّ حب أبيه له هو ما جعل الغَيرة تدب في قلوب إخوته؛ إذ حلّت البغضاء مكان الحبّ والإخاء، وتملّك الحسد قلوبهم، وأرادوا به مكراً، فإذا بهم يأتمرون لقتله، ويجمعون أمرهم، فيلقونه في الجبّ،

---

[1] انظر، **تكوين** 5: 19-23. 15: 18. و 17: 18-21. و 21: 11-13. 22: 1-19. 25: 5-6.

[2] عرابي، رجا: **سفر التاريخ اليهودي**. ص56.

[3] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(3). ص127. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. مج (3). ص1854. وإسماعيل، محمد بكر: **قصص القرآن**. ط(1). القاهرة: دار المنار. 2003. ص69.

إلى أن بيع υ لرئيس الشرطة المصريّ على أيام الهكسوس.[1] وهناك يتعــرض إلـــى امتحـــان رهيب من امرأة العزيز، انتهى به الأمر سجيناً. فتلقّاه النبي الكريم بالصبر والثبات، ثمّ تشاء قـــدرة الله أن يصبح على خزائن الأرض بعد أن فسّر رؤيا ملك مصر تفسيراً يليق بمقام النبوة.[2]

وهنا، وفي هذه التحولات الخطيرة، ضربت أرض كنعان موجةٌ من الجـــدب والقحـــط، فدفعت أهلها إلى الهجرة صوب مصر يبحثون فيها عن الكلأ والماء، وهناك تعرّف يوسف على إخوته، وهم له منكرون، وحدث ما حدث بينهما من مواقف العتاب، التي انتهت بأن دعاهم بإذن من ملك مصر للإقامة معه في أرض الكنانة، وتحقيقاً لرغبتهم أنزلهم أرض الجوشن التي هي مـــن أجود أراضي مصر.[3]

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة الحقيقية لبني إسرائيل بمصر كانت بعد اســـتجابتهم لـــدعوة يوسف الصدّيق، وأن نزولهم بأرض الجوشن يسهم في تأكيد رغبتهم في العزلة وخوفهم من مخالطة الأغيار، " فهم في كلّ زمان ومكان يميلون إلى الانعزالية والانفصالية، مما لم يُوجد الألفة والتفـــاهم بينهم وبين سائر الشعوب "[4].

وقد نعم بنو إسرائيل بحياة رغيدة على ضفاف النيل، زادت من أعدادهم، واستفادوا من الحضارة المصرية العريقة، ومارسوا الزراعة، وحملوا السلاح، فأصبحوا قادرين على منازلـــة قبائل البادية هناك، وقبل أن يتوفّى يعقوب υ، أوصى أبناءه بأن يطيعوا أمر أخـــيهم (يهـــوذا)،

---

[1] **الهكسوس: (1725 – 1575 ق. م)** كلمة مكونة من لفظين اثنين هما: هيق – شيسوت، وتعني: حكام البلاد الأجنبيـــة، ومنهم من يرى أنها تعني ملوك الرعاة، وذكر بعضهم أنها لقب استعمله المصريون للتدليل على الحاكم الأجنبي. ينحـــدر الهكسوس من أصول كنعانية وفينيقية، تسللوا إلى مصر بصورة تدريجية ليظهر أثرهم سنة 1900 ق.م، ثم لسيطروا على السلطة في حدود 1730 ق.م، وقد حكموا مصر ما يقرب من قرنين، ولكن المصريين وما يحملونه من كره وغضب تجاه الذين احتلوا أرضهم قاموا بحركة التحرير التي قضت على حكمهم في مصر. انظر، **تكوين** 39: 1–2. وصلواتي، ياسين: **الموسوعة العربية الميسرة والموسعة**. ج(8). ط(1). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي. 2001. ص 3598.

[2] انظر، **تكوين** 37: 1– 11. **وسورة يوسف:** 4 – 9. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **البدايـــة والنهايـــة**. ج(1). د.ط. طرابلس: مكتبة الوليد. د.ت. ص221.

[3] **(الجوشن) أو (جسم) أو (جاسان):** منطقة خصبة تقع في وادي طميلات، الذي يمتد من النيل متجهاً نحو الشـــرق مـــن بحيرة التمساح. انظر، **تكوين:** 26/46– 47. ومهران، محمد بيومي: **بلاد الشام**. د.ط. الإسكندرية: دار المعرفـــة. د.ت. ص231– 232.

[4] طعيمة، صابر: **التاريخ اليهوديّ العام**. ج(1). ص39. والمسيري، عبد الوهاب: **من هو اليهودي؟!** ط(1). القـــاهرة: دار الشروق. 1997. ص22.

لكنهم، وبعد وفاته، لم يدينوا له جميعاً، بل انشق بعضهم عنه، وشاع لفظ (يهوذ) على كلّ الذين أطاعوه واتبعوا أمره، وعندها تكونت الأسباط الاثنا عشر، لكلّ منها حياة منفردة عن الأخرى في شؤونها الداخلية.(1)

بدأت روح المؤامرة تتكوّن شيئاً فشيئاً في نفوس بني إسرائيل، وبدأ سلوكهم الوضيع يتطور وينمو في كلّ وقت وحين، فأعانوا الهكسوس على أهل البلاد الأصليين، وأغاروا على اقتصاد البلاد، وأضعفوا معنويات الشعب المصريّ الذي كان يطمح إلى التحرر والاستقلال، ولمّا نجح المصريون في ثورتهم ضد الهكسوس المحتلين، أخذ الخطر يتهددهم، وخشي فرعون مصر أن ينضم الإسرائيليون إلى الأعداء في حال نشوب حرب جديدة، فدعاهم إلى العمل في البناء وفلاحة الأرض، لكنّ الإسرائيليين تلكؤوا في ذلك، مما دفع الفراعين الذين تواكبوا على حكم مصر بأن يُنزلوا بهم أشد العقوبة، إلى أن وصل الأمر إلى درجة الاستعباد، عندئذ أحسّ الإسرائيليون بحجم الكارثة التي حلّت بهم، فأخذوا يجمعون الأموال، ويسرقون ما يتاح لهم من القمح والذهب، ويستعدّون للإفلات بمكاسبهم.(2)

ورغم ذلك عُرف عن الإسرائيليين أنهم أخذوا في التودد للمصريين، وحاولوا كسب رضاهم، فعبدوا إلههم (رع)، وهذا شأنهم؛ إذ كانوا يعبدون آلهة البلاد التي ينزلون بها.(3)

وقد أفاض القرآن الكريم في سرد ملامح الإيذاء التي تعرض لها بنو إسرائيل على يد الفراعين، فقال تعالى: (إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ) **{القصص: 2}**.

وأياً كان الأمر، فقد بعث الله Y إليهم موسى رسولاً ونبياً؛ ليخرجهم من مصر بعد سني العبودية التي قضوها. وهنا يبدأ تاريخ بني إسرائيل كديانة وشريعة تقوم على أساس التوحيد. قال تعالى: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ) **{الأعراف: 104-105}**.

---

(1) طعيمه، صابر: **التاريخ اليهوديّ العام**. ج(1). ص34-40.

(2) انظر، دروزة، محمد عزة: **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**. د.ط. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات. د.ت. ص41.

(3) انظر، **يشوع** 14: 14.

يقول **صاحب الظلال:** " وواضح من هذا أن موسى υ لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه، ويأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولاً إليهم يطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام، فبُهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد "[(1)].

وبوحي من الله سبحانه يخرج موسى υ ببني إسرائيل من مصر" إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمّرهم تدميراً "[(2)]، والخروج كان بأمر الله تعالى، لا كما تقول التوراة إنه كان بأمر من موسى υ.[(3)] قال تعالى: (**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ**) **{طه:77}**.[(4)]

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة الخروج هذه لم تتحقق ما لم تتحقق حكمة الله Y منها؛ إذ أراد الله تعالى لبني إسرائيل أن يعيشوا تلك الأحداث والمعجزات التي أنزلها على فرعون وقومه، لكي يتجردوا من أهوائهم، ويعيدوا صياغة أنفسهم من جديد، ليكونوا قادرين على تحمّل الأمانة التي جاء بها موسى υ.

ولما كان من أمره وأمر السحرة ما كان، أرسل الله Y على فرعون وقومه الطوفان، ثمّ الجراد، ثمّ القمّل، ثم الضفادع، ثمّ الدم آيات يتبع بعضها بعضاً، إلى أن يدعو عليهم υ بالطمْسة، قال تعالى: (**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ**)**{يونس: 88-89}**.[(5)]

وما أن خرج موسى υ بقومه من مصر حتى تبعهم فرعون وجنده، لتتوالى الآيات والعظات على بني إسرائيل، فيوحي الله Y إلى موسى υ (**أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ**

---

(1) قطب، سيد: **في ظلال القرآن.** مج(6). ج(19). ط (7). بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1971. ص200.

(2) **السابق نفسه.** مج(5). ج(16). ص476.

(3) انظر، **خروج** 13: 17- 18. و 14: 11-12. و**عدد** 14: 3-4.

(4) انظر، **سورة الشعراء:** 52. و**الدخان:** 23-24.

(5) انظر، الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك.** ج(1). د.ط. لبنان: د. مطبعة. 1967. ص385-434.

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ) **{الشعراء: 63}**. وقد نجّى الله موسى ومن معه، وأغــرق فرعــون وقومه، ثمّ أخرج فرعون ليكون آية وعبرة للناس جميعاً، قــال تعــالى: (فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً) **{يونس: 92}**.

كلّ هذا وبنو إسرائيل لم يصابوا بأي لون من ألوان الأذى الذي أصاب فرعــون وقومــه، لعلّهم يعتبرون أو يؤمنون، لكنهم لم يفعلوا ذلك بل بدأوا بالتذمّر من مرارة المــاء هنــاك، ومــا أن يتجاوزوا البحر حتى يأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا أن يكون لهم مثلها. قال تعالى: (قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)؟! **{الأعراف: 138-140}**.[1]

وهكذا لم يتوقف بنو إسرائيل عن التذمّر طوال إقامتهم في سيناء، فأخذوا يبكون على الأيام التي قضوها في مصر، ويودّون أن يعودوا إلى المذلة والاستعباد، رغبة فــي الطعــام أو الفتــات الساقط عن موائد المصريين.[2]

إنها المذلة التي أخذت تنمو في أصل تكوينهم، ويتوارثونها من جيل إلى جيل، لتصبح فيمــا بعد ملمحاً أصيلاً من ملامح الشخصية في بني إسرائيل عبر العصور.

وبعد أن وصل موسى υ إلى أرض سيناء، تركهم وذهب لمناجاة ربه، وليأخذ التــوراة في جبل الطور في سيناء، وجعل أخاه هارون أميراً عليهم، وعندها أنشأ السامريّ لهــم عجــلاً من الذهب الذي سرقوه من أهل مصر، فعبدوه من دون الله، وأضلهم السامريّ، ولم يفلح هارون υ في ردهم عن هذا الكفر البواح.[3]

ولما عاد موسى υ إلى قومه غضبان أسفاً، ألقى الألواح، وأخذ يعنّــف علــى قومــه، ويدعوهم إلى التوبة، قال تعــالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ

---

[1] انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**. مج(1). ص304. والقرطبي، محمد بن أحمد: **الجــامع لأحكــام القرآن**. ج(7). تحقيق: محمد بيومي، وعبد الله المنشاوي. ط(2). القاهرة: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع. 2006. ص221.

[2] انظر، **عدد** 14: 4. والخشبة، غطاس: **رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية.. والخــروج**. د.ط. الإســكندرية: دار الهلال. 1990. ص180-200.

[3] انظر، **سورة البقرة**: 92. **وطه**: 83-98.

ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) **{البقـرة: 54}**. فقتل الذين لم يعبدوا العجل كلّ من عبده، إلى أن تاب الله عليهم، ولكنّ موسى υ اختار من قومه سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل؛ ليستغفروا ربهم، ويؤتـوه موثقهم، بأن لا يعودوا إلى فعلتهم تلك، فانطلقوا مع موسى υ، لكنهم، كعادتهم، تجـرؤوا علـى الله Y، فسألوا موسى υ أن يروا ربَّهـم جهـرة، فقـالوا:(يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ) **{البقرة:55}**. عندها تضرع موسى υ إلى ربه قائلاً: (رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ) **{الأعراف:155}**.[1]

ولكنهم، وبعد أن بعثهم الله Y، تلكؤوا في قطع ميثاقهم مع الله، فهدّدهم الله بآية مادية؛ إذ اقتلع جبل الطور من مكانه، وجعله فوقهم كأنه سحابة أو غمامة، وأنه، لا محالة، واقع عليهم ما لم يعطوا عهدهم وميثاقهم في أن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يفهموا حقيقة أحكامها، قال تعالى: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ) **{البقرة:63}**.[2] وعندها اضطروا إلى المعاهدة والمبايعة تحت ضغط التهديد الرهيب، لكنهم، وكعادتهم، نقضوا الميثاق وتولّوا وعصوا، قال تعالى: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا) **{البقرة:93}**.

يظهر لنا أن التلكؤ في طاعة الله Y، من أهم السمات المميِّزة لبني إسرائيل، ولعلّ تلكؤهم في ذبح البقرة، التي أورد قصتها القرآن الكريم تؤكد لنا ذلك، لا سيما أنهم لم يذبحوها إلا بعد أن غرّهم لونها الأصفر، الذي يذكرهم بعجلهم الذهبيّ، وهم بذلك يولون هذا اللون خصوصية تضفي عليه نوعاً من القداسة والوقار.[3]

وهنا يأمر موسى υ قومه بالسير إلى الأرض المقدسة، وهي أرض بيت المقدس، تنفيذاً لأمر الله تعالى، فما كان من قومه إلا أن رفضوا أمر الله Y خوفاً من الموت، ورغبة في الحياة،

---

[1] انظر، طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ط(1). القاهرة: دار الشروق. 1997. ص363–368.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص415–417.

[3] انظر، مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**. ج(1). ص423.

أيّاً كانت هذه الحياة، فلنلاحظ قوله: (يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ) **{المائدة:21-22}**. ثمّ قالوا: (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ) **{المائدة:24}**.

ثمّ يدعو موسى υ ربه: (قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ)[1] **{المائدة:25-26}**.

والتحريم كان مطلقاً، أما مدة التيه فكانت أربعين سنة، على رأي بعض المفسرين[2]، ولكنّ الراجح أنها محرمة على ذلك الجيل الذي أرهقه الاستعباد والذل والطغيان[3].

ولعلّ فترة التيه قد أسست لجيل جديد خال من الصفات والمزايا التي تميّز بها الجيل السابق، إذ إن فترة حضانة الأخلاق، كما يرى ابن خلدون، مدتها أربعون سنة[4]، لكننا نستطيع أن نقول: إن الجيل الجديد الذي نشأ في فترة التيه لم ينعزل كل الانعزال عن أخلاق الآباء والأجداد، ولم ينفصل عن حياة الذل والقهر والحرمان التي عاشها غيرهم، بل تمسّكوا بخصال التمرّد والكبر وسوء الأدب مع الأنبياء، ولعل ما يؤكد ذلك مجموعة الثورات التي قادها الإسرائيليون على موسى وهارون، عليهما السلام؛ إذ اتهمهما جماعة من شيوخ إسرائيل بالترفع على جماعة الربّ، وسعوا إلى خلع موسى υ، لكنّ الله ردّ كيدهم إلى نحرهم وحفظ نبيّه υ من كل سوء[5].

وبعد أن كتب الله Y عليهم التيه، أقام لهم موسى υ معجزة جديدة، ففجّر لهم بعصاه اثني عشر عيناً لكل قبيلة عين تشرب وتسقي منها، قال تعالى: (وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ

---

[1] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(6). ص109-117.

[2] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص 656-657. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. مج(2). ص880.

[3] انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(6). ص697.

[4] انظر، ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**. ط(1). القاهرة: دار الفجر للتراث. 2004. ص185.

[5] انظر، **عدد** 16: 22-35. و14: 5- 9.

فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) {البقرة: 60}. ثمّ سألوا ربهم الطعام، فأنزل عليهم المنّ والسلوى[1]، قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ) {البقرة: 57}. ثم سألوا الله الظلّ فظلّل عليهم الغمام (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ) {البقرة:57}، ثمّ قست قلوبهم بعد كلّ ذلك (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) {البقرة: 73}.

ولكنهم من خبثهم وسوء طويتهم لم يعجبهم كل ذلك، فها هم يفضّلون الذي هو أدنى على الذي هو خير، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ)[2] {البقرة:61}.

وفي فترة التيه يرسل الله Y ملك الموت إلى موسى υ فيخيّره بين الحياة أو الموت، فيقول موسى: رب أمتني قرب الأرض المقدسة، فيقبض ملك الموت روحه على بعد مرمى حجر من بيت المقدس.[3] ويبقى بنو إسرائيل في تيههم وضلالهم، فهذا جزاء من لم يوقِّرْ نبياً، ومن لم يطع أمراً من أوامر الله تعالى.

وسرعان ما يتولى يوشع بن نون[4] أمر بني إسرائيل بعد وفاة موسىυ، وأخذ يعدّ العدة لفتح فلسطين، فعبر الأردن، وعسكر في شرقيّ أريحا، فمنّ الله عليه بفتحها عام 1186 ق.م. وهنا تروي التوراة قصصاً أسطورية تسيء إلى نبيّ الله يوشع[5]، وتنزله منزلة القتلة والمجرمين، وحاشا

---

[1] **المنّ:** طلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر يتعقد ويجفّ جفاف الصمغ، وهو حلو يؤكل، وهو شبيه بالعسل **والسلوى:** صنف من الطيور المهاجرة التي أرهقها السفر الطويل، فتلجأ إلى السهل القريب من شاطئ البحر. انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(14). مادة **(منن)**. ص136. ج(7). مادة **(سلا)**. ص248.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص388-405.

[3] انظر، البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. مج(1). رقم:(1339). ط(1). مصر: دار الفكر. 1994. ص114.

[4] **يوشع بن نون:** من رهط موسى وهو خادمه وفتاه، أخذ بعض المفسرين بأنه قد بعث نبياً بعد وفاة موسى υ ، لكن القرآن الكريم لم يقل بنبوته. انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص656. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. ج(2). ص74.

[5] انظر، **يشوع** 4: 19-22. 6: 1-27.

له ذلك؛ فهو نبيّ، كما يرى بعض المفسرين، بعثه الله Y، ليحقّق على يديه ما كان يطمح إليه موسى υ من قبل، في إقامة دين التوحيد في الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين.

لكنّ بني إسرائيل، كعادتهم، قابلوا الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران فقد قيل لهم (ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) {البقرة: 58}. لكنهم دخلوه زحفاً على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة.[1] قال تعالى: (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ) {البقرة: 59}.

ثم أكمل يوشع υ فتوحاته، وأخذ يقسّم الأرض على قبائل بني إسرائيل الاثني عشر. وهنا أخذت عقيدتهم تنحرف من جديد، وبعد وفاة يوشع υ انقسم بنو إسرائيل إلى قبائل عدة، وتفرّقت كلمتهم، ليبدأ بذلك عصر القضاة، فانتشرت بينهم الحروب والنزاعات، وفشا بينهم الكفر، فعبدوا الأوثان، وتركوا عبادة الله وحده، فبعث الله إليهم النبيّ تلو النبيّ، وقد كانت مهمّة النبي من بعد موسى υ تجديد ما نسوا من التوراة، وكان منهم إلياس υ، دعاهم إلى الله لكنهم أبوا أن يسمعوا كلامه وأعرضوا عنه، فعبدوا (بعْل)[2]، قال تعالى: (وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ) {الصافات:123-125}.

وبقي بنو إسرائيل في غيّهم يعمهون، فسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب من الفلسطينيين، فهزموهم واستولوا على تابوت العهد[3]، ودمروا معبدهم، وأخضعوهم لسلطانهم، ونزعوا سلاحهم، وأقاموا الثكنات العسكرية في مناطقهم، وظل حال الإسرائيليين كذلك طوال القرن ونصف القرن إلى أن تولى أمرهم صموئيل، وهو آخر قضاتهم، ففزعوا إليه وطلبوا منه أن يجعل لهم ملكاً يتولى قيادتهم للقتال في سبيل الله، فاختار ملكاً من سبط بنيامين، ويدعى طالوت، وبه يبدأ عصر الملوك في بني إسرائيل.[4]

---

[1] انظر، المنذري، زكي الدين: **مختصر صحيح مسلم**. رقم الحديث: (3222). ط(2). دمشق: اليمامة للطباعة والنشر. 1996. ص638.

[2] البعل، أو **(البعليم)**: أي العجل. انظر، **قضاة 2**: 10-23.

[3] **التابوت**: صندوق التوراة. انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص321.

[4] انظر، **سورة البقرة**: 246- 252. والقرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**.ج(15). ص93.

لكنّ بني إسرائيل سخروا منه في بداية الأمر، واحتقروه، وقللوا من شأنه، وطلبوا منه أن يأتي بآية، فبعث الله التابوت آية لهم، فصدّقوه، لكنهم تولّوا عنه وخالفوا أمره؛ إذ خرج معه ثمانون ألفاً ولم يحارب معه منهم سوى ثلاثمائة وتسعة عشر عدة أهل بدر[1]، فيحقق الله على أيديهم نصره، قال تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ)[2]**{البقرة:250-251}**.

ثمّ يبعث الله داود نبياً مرسلاً إلى بني إسرائيل، ويكرمه الله بالمعجزات، كتسبيح الجبال والطيور معه، وهو ذو صوت عذب في قراءة المواعظ، وقد ألان الله له الحديد، فأبدع في صنعها، وحكم في بني إسرائيل بحكم الله تعالى، وبشرعه الذي جاء في توراة موسى υ.[3]

واستطاع داود υ أن يسيطر على بني إسرائيل، ويوحّد كلمتهم، ويقوّي صفهم، وقد بدأت سلطته تحت إمرة الفلسطينيين إلى أن استطاع أن يتخلص من سطوتهم وشدة بأسهم، ويتغلب على كثير من الثورات التي تعرض إليها، وهذا ما جعل الفلسطينيين يقلقون من داود ومملكته.[4]

ولكنّ التوراة، ورغم ما قام به داود υ من فضل يعود للإسرائيليين كلّهم، تحاول الإساءة إليه في كثير من الأباطيل التي لا تليق بمقام النبوة أبداً.[5]

ومهما تكن من حال، فقد ورث سليمان داود في ملكه، بعد أن بعثه الله نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، واستحوذ على ملك أبيه دون صعوبات تذكر، وأخذ في تدعيم مملكته، وأنشأ الحصون والحمى ذات الأهمية الاستراتيجية، وجمع كلمة بني إسرائيل تحت إمرته.[6]

واستطاع أن ينشئ دولة قادرة على الحياة بكل جوانبها؛ فقد أنشأ تحصينات دفاعية قادرة على مواجهة الأخطار، إلى جانب دوره كنبيّ داعية إلى الله Y، ولنا في قصته مع ملكة سبأ البرهان والعظة، لتكتمل صورة سليمان، الملك المؤسس لدولة موحّدة لله لم يشهد بنو إسرائيل مثلها من قبل، والنبي الكريم الذي أنعم الله عليه بالخير والعطاء لشكره وصدق تمسكه بدينه

---

[1] الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**. ج(1). ص467-475.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(3). ص224-226.

[3] انظر، **سورة سبأ**: 10-11.

[4] انظر، **صموئيل ثان** 3: 29، و14: 1-3. و19: 9-43، و**ملوك أول** 1: 5-10.

[5] انظر، **صموئيل أول** 38: 1-7. و**صموئيل ثان** 12: 29-31. و**صموئيل ثان** 1: 26.

[6] انظر، **صموئيل ثان** 9: 9. 13: 23. 16: 1.

وعقيدته، فقد أنشأ مسجده في بيت المقدس أملاً في إعادة عبادة التوحيد إلى الوجود بعد أن اختلطت بوثنية الإسرائيليين العصاة.[1]

ولكنّ حال سليمان υ لدى كتبة التوراة لم يكن بأوفر حظاً من حال أبيه من قبل؛ فقد أمعنت التوراة في الإساءة إليه، والتقليل من شأنه، بأوصاف لا تليق بمقام النبوة الكريمة.[2] والحقيقة أنّ هذا منهج عامّ في التوراة، يتمثل في الإساءة إلى أنبياء الله، ووصفهم بكل القبائح والمنكرات.

وما أن انتقل سليمان υ إلى جوار ربه راضياً مرضيّاً حتى عمّ الخراب والبلاء دولة إسرائيل؛ إذ انقسمت دولتهم إلى دولتين اثنتين: الأولى في الشمال وتدعى (إسرائيل) ويحكمها يربعام عبد سليمان، والأخرى في الجنوب وتدعى (يهوذا) ويحكمها رحبعام بن سليمان، ليعود التشتت والتمزق سيّد الموقف، فتتمزق وحدتهم الدينية، ويعود كثير منهم إلى عبادة الأوثان، لينتهي عصر الاستقرار في بني إسرائيل، فتعمّ الفتن، ويكثر القتل، حتى إن الخلافات والنزاعات لم تقتصر على الدولتين، وإنما تعدتهما للولوج في كل دولة منهما على حدة، مما زاد في تفرقهم وضعفهم، وصدق الله إذ قال: (**بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**) **{سورة الحشر:14}**.[3]

وعادوا إلى انحرافاتهم العقدية والخلقية، فانتشر الزنا واللواط، وعمّت المساحقة، والمواقعة بالبهائم، وخلطوا أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة، وعدّت ضروب البغاء والانهماك في السكر نوعاً من العبادة، وضاعت التوراة بكل ما فيها من أحكام وشرائع، وخفت نور التوحيد، وعمت البلايا والمحن في بني إسرائيل.[4]

فكان أن أرسل الله Y إليهم من يسومهم سوء العذاب، لتكون سنّة من سنن الله في هذا الكون، إذ يقول تعالى: (**وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ**

---

[1] انظر، الألباني، محمد ناصر: **صحيح الجامع الصغير**. مج(1). ط(1). الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي. 2000. ص420. ومهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**. ج(2). ص673–776.

[2] انظر، **ملوك أول** 2: 25. و11: 1–13. وقد أفاض ابن حزم في الردّ على افتراءاتهم بالحجة والبيان. انظر، ابن حزم، علي بن أحمد: **الفصل في الملل والأهواء والنّحل**. ج(1). تحقيق: محمد نصر وعبد الرحمن عميرة. د.ط. بيــروت: دار الجيل. 1985. ص229.

[3] انظر، الخَولي، البهيّ: **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**. ط(1). دمشق: دار القلم. 2003. ص255.

[4] سعفان، كامل: **اليهود تاريخاً وعقيدة**. ص20.

فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا) {الإسراء:16}. ففي عام (740 ق.م) غزا الأشوريون أرض فلسطين، واحتلوا قسماً من مساكن إسرائيل، وسبوا بعض أهلها إلى آشور، ولكنْ لم يدم حكم الأشوريين طويلاً؛ إذ انقلب عليهم من داخل العراق قوم يعرفون بـــ(البابليين)، فورثوا عنهم أرض فلسطين، ولكنّ اليهود كعادتهم حاولوا أن ينقلبوا على الحكم البابلي، فهاجمهم الملك البابليّ الشهير (**بختنصر**) أو (**نبوخذ نصر**)، وهدم أسوار القدس ومنازلها، وسبى من بقي من اليهود عبيداً إلى بابل، وكانوا قرابة ثلاثين ألفاً، وهدم المعابد، وسلب منهم التابوت مرة أخرى سنة (586 ق.م).[1]

وبهذا تكون قبائل بني إسرائيل قد تشتتت وتبعثرت في بقاع الأرض كلّها، ولم يعد لهم وجود في فلسطين، وهناك في بابل بدأ اليهود ينشئون خيوط توراتهم بما يتوافق وأهدافهم في إقامة وطن لليهود، للتخلص من عقدة النقص التي سيطرت على أحاسيسهم ووجدانهم، ولكنهم، وبعد ما أصابهم من التشتت والتشرذم، ورغم ما تميّزت به حياتهم في بابل من الذل والقهر والحرمان، استطاعوا، لاحقاً، أن يندمجوا مع أهل البلاد؛ فقد عملوا في الزراعة، وشاركوا أهل البلاد في تحضّرهم، فنهضوا وتطوّروا وتبوؤوا مجموعة من المراكز الحساسة في الدولة، وتعلقوا بأورشليم فكانت أملهم ووجدانهم، ورددوا ترانيمهم قائلين: " رنّموا لنا من ترنيمات صهيون، كيف ترنّم ترنيمة الرب في أرض غريبة، إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني، ليلتصق لساني بحنكي، إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي "[2].

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود بدأوا في بابل بصياغة أركان الديانة اليهودية التي أصبحت فيما بعد قومية كبقية القوميات الأخرى، لكنهم ابتعدوا في صياغتها عن أصول ديانة بني إسرائيل التوحيدية التي جاء بها موسى υ والنبيّون من بعده.[3]

وبقي اليهود تحت الحكم البابلي حتى سقطت بابل بيد الفرس سنة (539 ق.م)، فسمح لهم ملك الفرس (كورش) بالعودة إلى فلسطين، ولاقى اليهود منه معاملة حسنة، واستخدمهم في

---

[1] انظر، طعيمة، صابر: **التاريخ اليهودي العام**. ج(1). ص148–150.

[2] **مزمور** 137: 1–6.

[3] انظر، القمني، سيد: **إسرائيل التوراة التاريخ التضليل**. د.ط. القاهرة: دار قباء للطباعة. 1998. ص27–31.

تحقيق سيطرته التامة على أرض فلسطين، فعملوا تحت إمرته ورهن إشارته، فكانت مؤامراتهم ودسائسهم سبباً في نقمة الآخرين عليهم، والنفور منهم على مرّ العصور.[1]

وهنا لم يتورع اليهود عن الإساءة إلى الأنبياء والرسل، بل قتلهم إذا لزم الأمر، فقد قتلوا يحيى υ بسبب فتوى تمنع ملكهم من أن يتزوج امرأة أخيه.[2]

وفي عام (332 ق.م) جاء الإسكندر المقدوني فاتحاً فلسطين وبلاد الشام ومصر والعراق وإيران والهند، وأبقى فلسطين تحت حكمه، وظل اليهود ينعمون بالأمان إلى أن تمزقت دولة الإغريق، وظهرت الجماعات التي أجبرت اليهود على عبادة آلهتهم (يهوه) بدلاً من عبادة الله Y، ونتيجة لذلك انقسم اليهود إلى قسمين، قسم اتبع الإغريق وضلوا وأضلوا كثيراً، وقسم هربوا من السلوقيين تحت إمرة قائدهم (يهوذا المكابي)، وإليه ينسب اليهود أكذوبة الهيكل التي ما زالوا يدافعون عنها حتى اليوم.[3]

وبقي الحال كذلك، حتى إذا ما نشبت الحرب بين الروم والفرس وقف اليهود إلى جانب الروم، فثقفوا لغتهم، وتسمّوا بأسمائهم، وتركوا شرائعهم متجهين نحو طقوس الرومان وشرائعهم، لكنهم، وإثر اندلاع حرب أهلية داخلية بين الرومان، لم يقفوا موقف الحياد، بل عمّقوا الهوّة بين الطرفين، وقدموا طرفاً على الآخر، حتى إذا كانت الغلبة إلى أحدهما، جعلت الإمبراطور الروماني (طيطس) يزحف إلى فلسطين، فيطهرها من رجس اليهود عام (70 م).[4]

وبهذا يتشتت اليهود في بلاد الفرس وبلاد العرب وغيرهما من البلاد، لنرى كيف يسامون سوء العذاب، فقد كتب الله Y عليهم الذلة والمسكنة؛ نتيجة نكولهم، وتمحلهم، وقتلهم للأنبياء والمصلحين عبر الزمن.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة المسيح عند اليهود برزت في هذه الفترة، فعندما ظهر المسيح عيسى υ أعلن غالبية اليهود رفضهم له، وقاوموا دعوته، وحكموا عليه بالإعدام؛ إذ كان نجاحه υ

---

[1] انظر، طعيمة، صابر: **التاريخ اليهودي العام**. ج(1). ص 123.

[2] انظر، مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل**. ج(2). ص1015.

[3] انظر، السويدان، طارق: **اليهود الموسوعة المصورة**. ط(1). الكويت: شركة الإبداع الفكري. 2009. ص55.

[4] انظر، الزعبي، الأرقم: **حقائق عن اليهودية**. ط(1). الدار المتحدة للطباعة. 1990. ص27 – 28.

في دعوته سبباً رئيساً في تجمع بني إسرائيل من بعد فرقة، لتصبح مهمتهم الأولى القضاء على المسيح ودعوته التي لاقت استجابة كبيرة من ضعفاء بني إسرائيل وفقرائهم.[1]

من الملاحظ " أن سبب معارضة المسيح لليهود هو ابتعادهم عن نواميسهم الأصلية، ابتعادهم عن وصايا موسى υ وتوراته، واحتكارهم تعاليم موسى ونواميسه، وبسبب الأنانية المتأصلة بهم، فلم يطبقوا هذه النواميس "[2].

وبهذا أنكر اليهود نبوة عيسى υ، فوصفوه بالمضلل تارة، وبالساحر والمجنون تارة أخرى، وأرادوا صلبه وقتله، لكنّ الله بقدرته وعلمه رفعه إليه، إنّه على كلّ شيء قدير.[3]

ومما لا شك فيه، أن الشخصية اليهودية هي نتاج حالات القلق والانفعال والتوتر الدائم المواكبة لمسيرة اليهود، ليشكل ذلك العمود الفقريّ للوجود اليهوديّ عبر التاريخ.[4]

أما التبشير بالديانة اليهودية فقد بدأ بعد كتابة التوراة، وزاد في نشاطها ظهور المسيحية التي أصبحت منافساً جلداً لها، مما حدا بكثير من شعوب العالم إلى اعتناق اليهودية، وكان ممن اعتنق هذا الدين سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد الخزر وغيرهم، لينضمّ إلى اليهودية أقوام وأمم لا تمتّ إلى قوم موسى υ بأدنى صلة.[5]

ولعلّ ما يؤكد تهوّد كثير من القبائل العربية ما ذكره المفسرون عن بعض الأنصار، الذين كانوا يرون في الجاهلية بأن اليهودية أفضل الأديان، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهوّدوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بقوله تعالى: (**لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ**)[6] **{البقرة:256}**.

---

[1] انظر، سوسة، أحمد: **أبحاث في اليهودية والصهيونية**.د.ط. الأردن: دار الأمل للنشر. 2003. ص15-16.

[2] الزعبي، الأرقم: **حقائق عن اليهودية**. ط(1). ص69-70.

[3] انظر، ابن الأثير، أبو الحسن علي: **الكامل في التاريخ**. ج(1). د.ط. بيروت: دار صادر. د.ت. ص317.

[4] انظر، السعد، جودت: **الشخصية اليهودية عبر التاريخ**. ط(2). المؤسسة العربية للنشر. 1988. ص22.

[5] انظر، ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**. مصر: مطبعة الاعتمـــاد.1927. ص88. ودنلوب، د.م: **تاريخ يهود الخزر**. ترجمة وتقديم: سهيل زكار. ط(1). بيروت: دار الفكر. 1987. ص71-76.

[6] انظر، الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. ج(1). ط(1). القاهرة: دار الصابوني للطباعة. 1997. ص146.

المبحث الثالث: بنو إسرائيل في عصر صدر الإسلام

عندما هاجر النبي ρ إلى المدينة، أخذ في توحيد المجتمع المدني على كلمة سواء، وباشر في وضع الاتفاقيات التي تضمن لأهل المدينة العيش بسلام، لكنه ووجه بالتحدي والكبر والعناد.

وحال اليهود في ذلك حال جميع القبائل؛ إذ كان باستطاعتهم أن يكسبوا ودّ رسول الله ρ، فيتبعوا هديه، ويلتزموا سنته، ويتبوءوا المنازل العليا في الدنيا والآخرة، لكنّ طبيعتهم التي جبلوا عليها من الكبر والمكر والدسيسة جعلتهم يقفون منه موقف العداء الأبديّ، فحاربوه باللسان والسنان، وأرادوا به كيداً، وبثوا بذور الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وبذلوا لأجل ذلك كل جهدهم، وقد توزعوا في عهد رسول الله ρ إلى ثلاثة أقسام:

- بنو قينقاع، وهم ممن يخالط المسلمين في المدينة.
- بنو قريظة وبنو النضير، كانوا يسكنون حصوناً منيعة في ضواحي المدينة.
- يهود خيبر وغيرها من القرى الواقعة بين المدينة والشام، حيث يوجد أكبر مركز تجمع لليهود في شمال الحجاز.[1]

لم يُظهر اليهود عداوتهم للرسول ρ منذ وصوله إلى المدينة؛ إذ كانوا يرجون أن يسهم الرسول ρ في توحيد البطون اليثربية للنهوض بالمدينة من جميع جوانبها، وكان الرسول ρ كذلك يرغب في التقرب إلى اليهود؛ لاعتقاده بأنهم سيرحبون به وبدعوته التي لا تختلف في جوهرها عن تعاليم آبائهم وأجدادهم، ولأجل ذلك عقد معاهدته معهم فور وصوله إلى يثرب.[2]

لكنّ اليهود رغبوا في توقيع معاهداتهم مع النبي ρ لمحاولة خداعه، والانقضاض عليه وعلى صحبه؛ إذ بدأت المقاومة اليهودية للرسول ρ، فأخذوا يجادلونه ويمارونه في الحق، في محاولة منهم للتشكيك في صدق نبوّته، فتواطأ اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار، فقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا أنّ محمداً ليس هو المبعوث

---

[1] انظر، طعيمة، صابر: **التاريخ اليهودي العام**. ج(2). ص15.

[2] انظر، ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**. ص112.

الذي كنا ننتظره، وقد ظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد في دينه، واتهموه، وقالوا عنا: إننا أهل الكتاب وأعلم بذلك، ولعل هذه الشبهة تجعلهم يشكون في دينهم، فيرجعون عنه. ولما دبّروا هذه الحيلة أخبر الله Y نبيّه ρ بها، فلم تتمّ لهم، ولم يحصل لها أثر، قال تعالى: (وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[1] {آل عمران: 72}.

ثمّ أنزل الله Y من الآيات ما يقدّم صورة جليّة للشخصيّة اليهودية، قال تعالى: (ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ) {آل عمران:183}. وقال أيضاً: (يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا) {النساء: 153}.

ثمّ أخذ التنزيل يعنّفهم، قال تعالى: (وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[2] {البقرة: 101}. وقال أيضاً: (وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)[3] {البقرة: 89}.

ولمّا أدرك اليهود بأنهم عاجزون عن مناجزة الحق، أخذوا في التفكير بقتال المسلمين، وبثّ روح الفرقة بينهم، فقام شاس بن قيس اليهودي، فأشار إلى شاب من اليهود بالجلوس بين الأوس والخزرج، وأخذ يذكرهم بيوم بعاث، وأثار حميّة الجاهلية في نفوسهم، فتداعوا للقتال، حتى إذا بلغ الأمر رسول الله ρ خرج إليهم، وقال: " أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!"[4].

---

[1] انظر، ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(2). تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه. ط(3). بيروت: دار إحيـاء التـراث العربي. 1998. ص191– 192. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. ج(1). ص513.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(2). ص36.

[3] انظر، **السابق نفسه**. ج(2). ص25–26.

[4] ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(2). ص204.

وظهرت العداوة جليّة بعد ذلك، وتنزّلت الآيات القرآنية؛ لتحطّ من شأن اليهود، وتطعن في أقوالهم وأفعالهم، قال تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ)[1] {البقرة: 146}. وقال أيضاً: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ) {آل عمران: 22}. وقال أيضاً: (بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ)[2] {البقرة: 90}. وقال أيضاً: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ) {المائدة: 82}. وقال أيضاً: (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) {الجمعة: 5}.

ولمّا قبل اليهود على اختلاف جنسهم، بأن يكونوا امتداداً للعصاة من بني إسرائيل في عصر موسى υ، أخذ القرآن الكريم يذكّر بما ارتكبه أولئك من ألوان الردة والتمرد، كعصيانهم لموسى υ، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وسجودهم للعجل، وغير ذلك من مظاهر الردة في بني إسرائيل.[3]

ومع احتدام الصورة، وضبابية العلاقة بين اليهود ورسول الله ρ، علم رسول الله ρ حجم المؤامرة التي يدبرها يهود، فأخذ يعدّ العدة لمواجهتهم والنيل منهم.

واليهود كذلك، ومن لفّ لفّهم من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ، أخذوا يشككون في صدق النبي ρ، فقالوا في أمر تحويل القبلة: " يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟! ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك"[4].

وبقيت الأمور كذلك بين الأخذ والردّ، حتى وقعت غزوة بدر، التي حقق فيها المسلمون نصراً مؤزراً، أسهم في بسط نفوذهم على المدينة وما حولها.

---

[1] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(2). ص143 – 144.

[2] انظر، **السابق نفسه**. ج(2). ص26 – 27.

[3] انظر، **سورة البقرة**: 90-91.

[4] ابن هشام، محمد: **سيرة النبي** ρ. ج(2). ص198.

ذكر **(ابن هشام)** أنه بعد مرور بضعة أيام على موقعة بدر، جاء الرسول ρ إلى حيّ بني قينقاع، وجمعهم بسوقهم، ثم قال: " يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل: تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد، لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس "[(1)].

وأضاف **(ابن هشام)** من أمر بني قينقاع " أنّ امرأة من العرب قدمت بجَلَب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهره، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرّ بينهم "[(2)].

وهنا حاصرهم النبيّ ρ، حتى نزلوا على حكمه، فجمع كلّ ما يملكون من أموال وسلاح، ووزعه على الأنصار، وأبقى لهم النساء والذراري، وأمهلهم ثلاثة أيام للرحيل، فرحلوا إلى إخوانهم في القرى المجاورة للمدينة، لتدخل هيبة المسلمين في قلوب العرب جميعاً. قال تعالى: (**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ**)[(3)] **{آل عمران: 13}**.

ولم يتوقف اليهود عن محاولاتهم للنيل من رسول الله ρ ومن صحابته الكرام، فأخذ زعيم بني النضير كعب بن الأشرف في رثاء قتلى بدر من المشركين وتحريضهم على الثأر من المسلمين، ولم يكتف بذلك، بل تشبّب بالنساء المسلمات، فأمر رسول الله ρ محمدَ بن مسلمة ومفرزة من رفاقه بقتله، فقتلوه في عقر داره.[(4)]

---

(1) انظر، ابن هشام، محمد: **سيرة النبي** ρ. ج(2). ص201.

(2) انظر، **السابق نفسه**. ج(3). ص51.

(3) انظر، شلبي، أحمد: **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**. ج(1). ط(11). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1984. ص433.

(4) انظر، ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(2). ص436.

وفي غزوة أحد أعرض اليهود، ومن لفّ لفهم من المنافقين، عن نصرة المسلمين أو الذود عن حياض المدينة، وأخذوا في تثبيط الهمم، وبثّ الأكاذيب والشائعات لإضعاف معنويات صحابة رسول الله ρ.

وعندما ذهب النبيّ ρ و من معه إلى بني النضير يستعين بهم في دفع دية رجلين قتلهما المسلمون خطأ، سارع اليهود إلى التخطيط للقضاء على رسول الله ρ، بإلقاء صخرة عليه، وهو جالس في فناء أحد البيوت. لكنّ معيّة الله Y حالت دون وقوع ذلك، فأوحى الله Y إلى نبيّه بخبر القوم، فخرج إلى المدينة ليرسل محمدَ بن مسلمة برسالة يطلب منهم الرحيل.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن يهود بني النضير كانوا يرغبون في النزول على حكم محمد ρ، لكنّ رهطاً من بني الخزرج، ومنهم عبد الله بن أبيّ، قد غرّروا بهم، فقالوا لهم: البثوا وتمتعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. قال تعالى: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ**)[2] **{الحشر: 11}**.

ثمّ اتجه النبيّ ρ إلى حصون بني النضير، فضرب عليها حصاراً مشدداً لإحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع النخيل والتحريق فيها؛ إذ كانت حصونهم تتميّز بالقوة والمنعة. قال تعالى: (**لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**)[3] **{الحشر: 14}**.

ولمّا علموا بخذلان عبد الله بن أبيّ، نزلوا على حكم رسول الله ρ، ونزحوا عن منازلهم بعد أن أثخنوها بالهدم والتخريب، قال تعالى: (**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ**)[4] **{الحشر: 2}**.

---

(1) انظر، البوطي، محمد: **فقه السيرة النبوية**. ط(11). بيروت: دار الفكر. دمشق: دار الفكر. 1991. ص190.

(2) انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(8). ج(28). ص42 – 43.

(3) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(4). ص501. والحموي، ياقوت: **معجم البلدان**. مج(2). ط(2). بيروت: دار صادر. 1995. ص409–410.

(4) انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(8). ج(28). ص33–34.

وما أن استقروا في خيبر حتى أخذ زعماؤهم يخططون للنيل من رسول الله ρ وصحابته الكرام، وشرعوا في البحث عن الطريقة المناسبة لتحقيق هذا الغرض، فأخذوا يحزّبون الأحزاب ضدّ رسول الله ρ، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله Y قوله: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا)[1] **{النساء: 51}.**

وقد تحزّب نتيجة لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مسلّحين بأفخر الأسلحة ضد رسول الله ρ وصحابته الكرام، ولكنهم، وإن استطاعوا أن يعدّوا العدة المادية لقتال المسلمين، لم يفلحوا في إعداد الروح المعنوية القادرة على القتال والمواجهة.

ولما علمت الأحزاب أنّه من الصعوبة بمكان تحقيق النصر المظفر ضد المسلمين، شرعوا بالاتصال مع بني قريظة، وأخذ حييّ بن أخطب اليهوديّ يحرّض أبناء جلدته من بني قريظة للتحزب معهم ضد الرسول ρ، لكنهم، بادئ الأمر، رفضوا نقض ميثاقهم مع الرسول ρ، وبعد أخذ وردّ خضع بنو قريظة لدسائس حييّ بن أخطب ومن معه، فنقضوا الميثاق، وهنا تضاعفت معاناة المسلمين، والقرآن يصوّر أحوالهم في أدق صورها وعظيم أثرها، في قوله تعالى: (إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَاْ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالاً شَدِيدٗا)[2] **{الأحزاب: 10-11}.**

ولكن النبيّ ρ استطاع بحكمته، أن يحبط كلّ مخططاتهم، فعقد معاهدة مع بني غطفان، على أن يرجعوا عن قتاله وقتال صحابته ولهم ثلث ثمار المدينة، وبهذا عمّت الخلافات أوساط المشركين، وأرسل الله Y بقدرته الرياح في أيام شديدة البرودة، فقفلت قريش ومن معها راجعة إلى بلادها.[3]

---

(1) انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. ج(1). ص705.

(2) انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(14). ص118 – 120.

(3) انظر، ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(3). ص233-235.

ونتيجة لما كان من اليهود في هذه الحرب، حاصر النبيّ ρ يهود بني قريظة لأكثر من خمسة وعشرين يوماً، حتى أجهدهم الحصار، ونزلوا على حكمه ρ، فتواثبت الأوس تطلب من رسول الله ρ أن يرفق بيهود بني قريظة؛ إذ كانوا من مواليهم في الجاهلية، فقال الرسول ρ: " ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم، قالوا: بلى، قال: فذاك، إلى سعد بن معاذ، ثمّ حكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ρ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات "[1].

ومهما تكن من حال، فإنّ هذه الغزوة قضت على الوجود اليهوديّ في يثرب، وأسهمت في خفوت صوت المنافقين[2]، قال تعالى: (وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)[3] **{الأحزاب: 25}**.

وما أن انتهت غزوة بني قريظة، انقضّت مفرزة من صحابة رسول الله ρ من الخزرج على سلام بن أبي الحُقَيق، وهو من أكابر مجرمي اليهود الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين، فأردوه قتيلاً.[4]

ولمّا كان من أمر صلح الحديبية ما كان، عقد رسول الله ρ العزم على ضرب يهود خيبر في عقر دارهم؛ لما قاموا به من المكر والخديعة، فهم الذين حزّبوا الأحزاب ضد رسول الله ρ، وهم الذين أثاروا حفيظة يهود بني قريظة، وأسهموا في بثّ الدسائس والفتن، وليس هذا فحسب، بل أخذوا يعدّون أنفسهم لقتال المسلمين، فأعدّ رسول الله ρ لهم العدة، وانطلق إلى وعد الله Y، يقول تعالى: (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)[5] **{الفتح: 20}**.

وسارع منافقو المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ إلى يهود خيبر، يخبرهم بما يخطط له رسول الله ρ، فسارع اليهود إلى الاتصال ببعض القبائل للقتال إلى صفهم، وتحرك جيش المسلمين

---

[1] انظر، المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم**. الطبعة الشرعية. القاهرة: دار الوفاء. 2003. ص279.

[2] انظر، ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**. ص154–155.

[3] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(14). ص131.

[4] انظر، المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم**. ص282 – 283.

[5] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(16). ص217.

بقيادة رسول الله ρ، فأحاط بحصون خيبر المنيعة، وبدأت المحاولات لاختراقها والنفاذ إليها، إلى أن أعطى الراية لرجل يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله عليّ بن أبي طالب τ، لتبدأ المواجهة والحصار، فيوقن اليهود عندها أنهم سيهلكون ما لم يصطلحوا إلى رسول الله ρ، فسألوه الصلح، فصالحهم على حقن دماء من بقي منهم، وترك الذريّة لهم على أن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلّون لرسول الله ρ ما بقي من المال والأرض والخيل.(1)

ولكنّ محاولات اليهود لقتل رسول الله ρ لم تتوقف، فقد بعثت اليهودية زينب بنت الحارث بشاة مسمومة إلى رسول الله ρ، فلاك منها الذراع، ثمّ لفظه بعد أن أوحى الله Y إليه بأمرها.(2) ولمّا طفق الوجع يشتد برسول ρ عند الوفاة، ظهر أثر السمّ الذي أكله في خيبر، ثمّ أوصى بأن لا يبقين دينان بأرض العرب.(3)

نخلص إلى القول: إنّ الله Y أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة؛ لعلهم يطيعون أو يستجيبون، لكنهم في كلّ مرة يتمردون ويعصون، فيُنزل الله بهم أشدّ العقوبة، ويسلّط عليهم مَن يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ليكون هذا المشهد بكلّ أحداثه وصوره سنة ربانية خالدة، وما التركيز على أحداث بني إسرائيل وتاريخهم إلا لاستخلاص العبر والعظات للناس جميعاً.

وما بنو إسرائيل إلا أمة من الأمم، تجلّت معالمها عبر نموذجين من نماذج الشخصية الإنسانية، ففيها الشخصية المؤمنة الصابرة الموحّدة، وفيها الشخصية العاصية التي تتسم بكل مظاهر الكفر والكبر والعناد واللجاجة. وهذا ما سيظهر لاحقاً بإذن الله.

---

(1) انظر، المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم**. ص316-325.

(2) انظر، البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. مج(2). رقم الحديث: (2617). ص191.

(3) انظر، ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(3). ص352.

الفصل الأول:

التحليـــــل الصـــــــوتي

للغة الخطـــاب القرآنـــي في بني إســـــرائيل

ويشمل:

المبحث الأول: الإيقاع الخارجي

المبحث الثاني: الإيقاع الداخلي

أولاً: الأصوات المهموسة

ثانياً: الأصوات المفخمة والمرققة

ثالثاً: الأصوات الصفيرية

رابعاً: أصوات الذلاقة

المبحث الثالث: التنغيم

المبحث الرابع: التماثل في المقطع الصوتي

مدخل

يعدّ التحليل الصوتي من أهم مستويات التحليل في الدراسة الأسلوبية والدلالية، فهو فرع رئيس من فروع علم اللسانيات، وليس ثمة وصف كامل للغة دون هذا النوع من التحليل، ودراسة الأصوات ضرورية لدراسة اللغة، لا سيما أن اللغة تتألف من مجموعة من الأصوات " يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم "[1].

والصوت هو جوهر اللغة، والمكون الرئيس لها، وهو " آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف "[2]. وثمة من يقول: " إن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء..."[3]، وقد اجتمع كثير من أهل اللغة على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني[4].

من هنا، فإنّ الدلالة الصوتية هي " التي تُستمد من طبيعة بعض الأصوات كاللفظ (تنضخ) الدالة على فوران السائل في قوة وعنف، واللفظ (تنضح) الدالة على تسرب السائل في قوة وبطء "[5].

وأياً كان الأمر، فإن المادة الصوتية وما تتضمنه من إيقاع، وتكرار، وموسيقا عذبة متحركة وساكنة، وما تحويه من تأثيرات صوتية، تسهم في إثراء المعنى، وتلقي على النص ظلالاً وجدانية عميقة تجعل المتلقي يعيش في ظلالها الوارفة، يخضع بكل أحاسيسه ووجدانه لهذه الألفاظ، فتأسره لمعناها الذي تريد، وإن لم يتذوق فهمه القاصر وذوقه المحدود هذه الدلالة أو تلك. فألفاظ القرآن، كما يرى **(بدوي)**، موحية صادقة في جعل السامع يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، كما أنها تصور المنظر للعين وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محساً[6].

---

[1] ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**. ج(1). تحقيق: محمد علي النجار. د.ط. بيروت: عالم الكتب. د.ت. ص33. وخان، محمد: **اللهجات العربية والقراءات القرآنية**. ط(2). المغرب: دار الفجر للنشر. 2003. ص65.

[2] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. ج(1). تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط. بيروت: دار الجيل. ص 79.

[3] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. ج(1). تحقيق: محمد جاد المولى ورفاقه. د.ط. بيروت: منشورات المكتبة المصرية. 1987. ص14-15.

[4] انظر، **السابق نفسه**. ج(1). ص47. وجبر، يحيى عبد الرؤوف: **الصوت لفظاً ومعنى**. **مجلة اللسان العربي**. ع/37. 1993. ص45.

[5] أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**. ط(3). القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية. 1976. ص46.

[6] انظر، بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ط(1). مصر: شركة نهضة مصر. 2005. ص167.

والذي يعمد إلى دراسة النص القرآني، من وجهة صوتية، يدرك مدى التفاعل الذي يحظى به، إنه تفاعل الروح مع الصوت، والحواس مع اللفظ، واللب مع السياق، إنه الإعجاز الذي أبدعته يد القدر، فعجزت عن الإحاطة به يد البشر.

لا شك في أن دراسة الإيقاعين الخارجي والداخلي، لا يقتصر على القصيدة الشعرية فحسب، ولكن يمكن الإفادة منهما في دراسة النص القرآنيّ، كدراسة الإيقاع الخارجي المتمثل بالفاصلة القرآنية، ودراسة الإيقاع الداخلي المتمثل بالانسجام والتوافق بين عناصر الأصوات.

وهذا ما لمسناه في دراستنا للغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل؛ إذ إن هناك إبداعاً عجيباً في انتقاء الفاصلة واختيارها وتوزيعها على سور القرآن الكريم الحاضنة لقصة بني إسرائيل وحواراتهم، والواصفة لأخلاقهم وسلوكهم.

كما أخذت المجموعات الصوتية كالأصوات المهموسة، والمفخمة، والمرققة، والصفيرية وأصوات الذلاقة، تتشكل في إيقاعها الداخلي بأسلوب يثري الموضوع الأسلوبيّ والدلاليّ للنص القرآنيّ.

تعجّ لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بالأصوات الدالّة والكاشفة والمحدِّدة لسمات الشخصية الإسرائيلية وسلوكها، وتنتشر الألفاظ لتفضح هذا السلوك، وتصف هذه الشخصية على حقيقتها.

نبحث في هذا الفصل أثر الأصوات في تحديد هذه الدلالة وتوجيهها، فنتناول الدلالة الظاهرة من خلال الإيقاعين الخارجي والداخليّ، وأثر ذلك في بناء المعنى النفسي والسلوكي لبني إسرائيل، ثمّ نتناول ظاهرتي التنغيم والمقطع الصوتي في ضوء لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل.

المبحث الأول: الإيقاع الخارجي

وهو الناجم عن استخدام الفاصلة القرآنية بأسلوب موسيقيّ يأخذ بأحاسيس المتلقي ووجدانه، يبهره وهج النظم، فيقوده ذلك إلى التأثر العميق، والانقياد الرقيق[1]، وقد يستخدم الحذف لأجل ذلك، ففي قوله: (وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ) **{البقرة: 40}**، حذفت الياء وأصله **(فارهبوني)** لتأتي الفاصلة على نسق متسق مع النظم.[2]

والفواصل " حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني "[3]، وهي ذات " قيمة صوتية تراعى في كثير من آيات القرآن، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره "[4].

ويؤتى بالفاصلة لتحسين الكلام، من خلال ما تحدثه من ترنّم صوتيّ مؤثر يجعل للنصّ القرآنيّ بعداً وظيفياً يسهم في بلوغ المقاصد والغايات.[5]

وردت الفاصلة القرآنية في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل موزعة على تسعة أصوات، وهي على الترتيب التنازليّ: (النون، والميم، والألف، والراء، والهاء، والدال، والباء، والقاف، واللام)، ولعلّ أكثرها تكراراً وبروزاً صوتا النون والميم؛ إذ وردت الفاصلة (النون) في أكثر من ثلاثمئة وخمسين موضعاً مسبوقة بحرف الواو أو الياء، نحو:

(ارهبون، فاتقون، تعلمون، يشعرون، تشهدون، الفاسقون، الظالمون، يكتمون، تهتدون). (المقسطين، نادمين، المفسدين، الخاسرين، خاسئين، العالمين، الكافرين، الماكرين، مهين)[6].

وتوزّعُ الفاصلة (الواو تليها النون) في أكثر من مائتين وخمسين موضعاً، و(الياء تليها النون) في أكثر من مائة موضع له أهمية بالغة؛ إذ إنهما أكثر اتساعاً في النطق، ووضوحاً في السمع من الألف.[7]

---

[1] انظر، لوشن، نور الهدى: **علم الدلالة (دراسة وتطبيق)**. د. ط. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث. د.ت. ص82.

[2] انظر، الزجاج، إبراهيم بن السريّ: **معاني القرآن وإعرابه**. ج(1). ص121.

[3] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم. ط(2). بيروت: دار الكتب العلمية. 2007. ص454.

[4] حسان، تمام: **البيان في روائع القرآن**. ط(1). القاهرة: عالم الكتب. 1993. ص281.

[5] انظر، المرسي، كمال: **فواصل الآيات القرآنية**. ط(1). الإسكندرية: المكتب الجامعي. 1999. ص9. وعبد الرؤوف، محمد: **القافية والأصوات اللغوية**. القاهرة: مكتبة الخانجي. 1977. ص94-95.

[6] انظر، **سورة البقرة**: 40-146. وآل **عمران**: 21-78. و93-100. و**المائدة**: 13-83. وغير ذلك كثير.

[7] انظر، سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب**. ج(4). ص204.

كذلك وردت الفاصلة (الميم) في أكثر من أربعين موضعاً مكرراً، نحو: (**عظيم، ألـــيم، العليم، الرحيم، مستقيم، الجحيم، النعيم، الحكيم،...**)[1] جاءت جلّها على الوزن (فعيل) من باب الصفة المشبهة الدالة على الثبوت.

يبدو أن صوتي النون والميم من أكثر ما تنتهي به الفاصلة القرآنية، ولعلهما من أكثـــر الأصوات ولوجاً في موسيقا القرآن الكريم[2]، لا سيما في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل.

وأما الفاصلة (الألف)، فقد وردت في أكثر من أربعين موضعاً مسبوقة بمجموعـــة مـــن الأصوات (الدال، والراء، والعين، والظاء، والفاء، والميم، واللام، والنون) نحو: (**بعيدا، غليظا، عظيما، نصيرا، مهينا، قليلا، نقيرا، لفيفا، رحيما، أليما، مفعولا، ...**)[3].

من الملاحظ أن الفاصلة (النون) احتلت المرتبة الأولى بين الفواصل الواردة فـــي لغـــة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، وصوت النون من أكثر الأصوات استخداماً في القـــرآن الكـــريم وفي أشعار العرب كذلك؛ إذ تجيء روياً بكثرة[4]، وكذلك لم نجد استخداماً للأصوات: (الجـــيم، الذال، الزاي، الظاء، الصاد، ...) كفاصلة قرآنية، وهذا ما دأب عليه الشعراء قـــديماً، ذلـــك أنّ مثل هذه الأصوات وما تحمله من ثقل في النطق يعيق التسلسل الصوتي، من هنا نجد القـــرآن، وهو الذي أنزله الله بلغة العرب، يعمد إلى الفواصل اللينة السهلة؛ لما تحدثه من موسيقا يطـــرب لها المتلقي فتكون أكثر تأثيراً فيه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ شخصية موسى υ تمثل المحور الرئيس فـــي لغـــة الخطـــاب، واستخدام الفاصلة (النون) مسبوقة بالواو أو الياء، يُظهر عمق الحزن والألم الذي أخذ يكتنفه υ، فهو الذي عانى مع قومه معاناة طويلة، دون أن يستجيب له أحد، وهو الذي آذاه قومـــه فرمـــوه بالأدرة، وهو الذي اتهمه قومه بقتل أخيه، أيُّ حزن يلفّ هذه الشخصية؟! إنـــه الحـــزن الـــذي يصوره صوت النون النواح المتكرر، وهو كذلك يعبر عن صدق الشعور ومدى الرغبـــة التـــي سيطرت عليه أملاً في هداية قومه إلى سبيل الرشاد، نجد هذا المعنى، ونحن نعيش مـــع ســـورة

---

(1) انظر، **سورة البقرة**: 41. و104. و142. و143. و**آل عمران**: 72. و77. و188. وغير ذلك كثير.

(2) انظر، الرافعي، مصطفى صادق: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ط(2) مصر: المكتبة الأهلية. 1926. ص224.

(3) انظر، **سورة النساء**: 37-171. و**الإسراء**: 3-8. و**طه**: 77-98.

(4) انظر، أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**. ط(4). بيروت: دار القلم. 1972. ص248.

البقرة في لوحة العبودية لغير الله، عندما آثر القوم عبادة العجل على عبادة الله Y، فقد جاءت الفواصل على النحو الآتي: (تَشۡكُرُون، تَهۡتَدُون ، تَنظُرُون ، يُنصَرُون، ٱلۡمُحۡسِنِين ، تَتَّقُون،...)[1]، وكذلك الحال في سورة الأعراف: (تَجۡهَلُون،ٱلۡعَٰلَمِين،ٱلۡمُفۡسِدِينَ،لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ، وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ، يَرۡهَبُون، وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ، يُؤۡمِنُونَ،...).[2]

وليس غريباً أن نجد تعاقباً في استخدام الفواصل بين النون والميم، كاستخدام الفاصلة النون في أكثر من خمسة مواضع متتالية ثم الفاصلة (الميم) لمرة واحدة، ومن ثم العودة إلى الفاصلة (النون)، فاتباع هذا الأسلوب يسهم في تحقيق الانسجام الكليّ الذي يحقق وحدة مترابطة الأجزاء، عميقة الأثر في الشعور والوجدان.

وبينما نعيش مع هذا الأسلوب الوجدانيّ العميق، نجد أسلوباً آخر يتضمن معنى التوبيخ والتحذير، المتمثل في علوّ النبرة من خلال استخدام المقطع الطويل، الذي يمتد فيه الصوت عند النطق، محذراً المخاطب، لئلاً يرتكب الآثام، أو ينقض العهود، يظهر ذلك في سورة الإسراء، التي تتميز بالحسم والقضاء على بني إسرائيل؛ نتيجة نكوثهم، وتمحلهم، ندرك ذلك، ونحن نمعن في آيات الله Y، فلنلاحظ قوله تعالى: (أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ، وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ، وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ، وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ، ...) وكذلك المعنى في لوحة العجل في سورة طه: (فَقَدۡ هَوَىٰ ، وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا، ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا، ...)[3].

ولأجل تحقيق هذا الغرض، جاءت لغة الخطاب على ثلاثة أشكال من تكرار الفواصل:

- تكرار الصوت نفسه، كما ظهر آنفاً.
- تكرار اللفظ نفسه، نحو: اللفظ (تعقلون) ورد في أكثر من ستة مواضع، واللفظ (مفسدين) ورد في أكثر من سبعة مواضع، واللفظ (الظالمون) ورد في أكثر من أربعة عشر موضعاً.

---

(1) انظر، **سورة البقرة:** 49–63.

(2) انظر، **سورة الأعراف:** 138–156.

(3) انظر، **سورة الإسراء:** 2–8. و**طه:** 79–97.

- التكرار عن طريق استخدام المشتقات، نحو: (يظلمون، الظالمون)، وكذلك (يفسقون، الفاسقون) وغير ذلك كثير.

قد يكون هذا الأسلوب منكراً في الشعر، لكنه في القرآن الكريم ذو قيمة إيقاعية تشير إلى ما يسمى بالكلمة المفتاح التي " لها ثقل تكراري وتوزيعيّ في النص بشكل يفتح مغاليقه ويبدد غموضه "[1].

يظهر ذلك في اللفظ (يظلمون) واشتقاقاته نحو (ظالمون)، وكذلك (يفسقون) واشتقاقاته نحو (فاسقون)، ذلك أن تكرار هذه الألفاظ في سياق الفاصلة القرآنية يأتي لتأكيد السمة، وتثبيت المضمون، فالمشتق (فاسقون) و(ظالمون) غالباً ما يكون جملة اسمية دالة على الثبوت، وكأن هاتين السمتين وغيرهما من السمات، باتت تشكل مميزاً رئيساً من مميزات بني إسرائيل، وهذا ما وجدناه ماثلاً في دراستنا التمهيدية.

وأما الفعل، مثل: (يفسقون) و(يظلمون) فهو يدل على التجدد والاستمرارية، وكأن هذين الفعلين متجذران في شخصية الإسرائيلي فهو دائم الفسق والظلم، إلى يومنا هذا.

إنّ مثل هذا التكرار في الفواصل يعدّ من قبيل التأكيد على الكلمة الدالة والكاشفة لعمق هذه الشخصية لتبدو لنا على حقيقتها، دونما تحوير أو تبديل.

وثمة مظاهر أخرى للإيقاع الخارجي في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، كالاعتدال المتسق في مقاطع الكلام، فإذا " كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء فيه لوضوحه"[2]، فلنلاحظ قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ) {آل عمران: 77}، فقد جاءت المقاطع: لا خلاق لهم، لا يكلمهم، لا ينظر إليهم، لا يزكيهم، معتدلة وممعنة في الطرد والإبعاد، وأيّ إيقاع أروع من هذا الإيقاع الذي يخترق النفس، فيهولها عمق المشهد برهبته وقوته؟! وأداته (لا) النافية المحققة للمعنى ذاته.

---

[1] العطار، سليمان: ***الأسلوبية علم وتاريخ***. **مجلة فصول**. مج(1). ع 2/ يناير/ 1981. ص140. وانظر، رمضان، محيي الدين: **وجوه من الإعجاز الموسيقيّ في القرآن**. ط(1). عمان: دار الفرقان. 1982. ص50.

[2] انظر، ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. ج(1). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط. القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي. 1939. ص279.

المبحث الثاني: الإيقاع الداخلي

يبدو أن دراسة الأصوات في إيقاعها الداخليّ، يسهم في إثـــراء الموضـــوع الأســـلوبي والدلاليّ، ولا سيما أنه يكشف عن الأبعاد الإيحائية والتعبيرية للنص، يتمثل ذلك فـــي الانســـجام والتوافق بين عناصر هذه الأصوات في الكلمة الواحدة، وبين الكلمات داخل التركيب الواحد.(1)

يعطي هذا النوع من الانسجام مزيداً من العمق في المعنى، فابن الأثير، مثلاً، يشير إلى هذا المضمون من خلال وصفه لألفاظ أبي تمام بالقوة، وكأنها مجموعة من المحـــاربين الـــذين أخذوا يعدّون العدة لمواجهة عدوهم، أما ألفاظ البحتري فيصفها بالنساء الحسان؛ لما تتمتع به من لطافة ورقة.(2)

ولعلّ الوقوف على هذا النوع من الدلالة، هو ما يسميه **(جرينجر)** دلالة (ما تحت الرمـــز)، وهي " الدلالة الاصطلاحية التي يلجأ إليها جنس أدبي معين، لتوظيف الرمز اللغوي على نحـــو خاص به "(3)، كدلالة التكرير الصوتي الذي يُدخل الكلام في إطار فنّ معين له دلالاته ومراميه.

يظهر لنا من خلال دراسة المجموعات الصوتية في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، أن هناك أصواتاً معينة وردت بكثافة بالغة تفوق أصواتاً أخرى، ولعل من أهمّ هذه المجموعـــات الصوتية، الأصوات المهموسة والمفخمة والمرققة والصفيرية وأصوات الذلاقة، وبروز أصوات فردية بكثرة بالغة، كصوتي النون والقاف.

أولاً: الأصوات المهموسة

وردت مجموعة الأصوات المهموسة بشكل لافت في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، والصوت المهموس هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به، وهـــي علـــى التوالي: (التاء، والثاء، والحاء، والخاء، والسين، والشين، والصاد، والطاء، والفـــاء، والقـــاف، والكاف، والهاء)، والمجموعة في قولهم: حثه شخص فسكت قط(4)، وجاءت بكثرة بالغة، نحـــو: **(وتكتموا، ارهبون، أوفوا، أوف، قليلاً، اتقون، أقيموا، تعقلون، اتخذتم، قوم، فاقتلوا، ...).**

---

(1) انظر، لوشن، نور الهدى: **علم الدلالة (دراسة وتطبيق)**. ص82.

(2) انظر، ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر**. ج(1). ص178.

(3) درويش، أحمد: **الأسلوب والأسلوبية. مجلة فصول**. مج(5). ع/1. أكتوبر. 1984. ص62.

(4) انظر، أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**، ط(5). القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية. 1979. ص20.

ولعل أكثر الأصوات المهموسة وروداً في لغة الخطاب صوت الهاء، نحو: **(عهدي، عهده، العهد، تهتدون، جهرة، اهبطوا، اليهود، هادوا، يفقهون، تهدي...)**. والهاء " صوت رخو مهموس، عند النطق به يظل المزمار منبسطاً دون أن يتحرك الوتران الصوتيان، ولكن اندفاع الهواء يحدث نوعاً من الحفيف يسمع في أقصى الحلق أو داخل المزمار "[1].

من الملاحظ أن صوت الهاء ورد في درج السياق، ولم يرد في موضع الفاصلة، مما أعطى النص القرآنيّ إيقاعاً عميقاً، يُظهر عمق العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل، من هنا ندرك سرّ التكرار بصيغ مختلفة للفظ (العهد)، فهو الصوت المعبر عن جدّية الموقف من خلال الكثافة الصوتية التي تحدث إثر النطق به.

وكذلك اللفظ (اهبطوا)؛ إذ يشعر الناطق لهذا اللفظ من خلال الصوت (الهاء) بالتعب والحنق، لا سيما أن الفم يتخذ عند النطق به وضعاً يشبه الوضع الذي يتخذه مع الحركات[2]، وكأن موسى υ يأخذ نفساً عميقاً يوحي بجدّية الموقف الذي لا هزل معه، ثمّ ينطق باللفظ الذي يحمل معنى التأوّه والألم والإنكار لما أقدموا عليه؛ إذ اختاروا الذي هو أدنى على الذي هو خير.

لعل هذا المعنى الذي يتحقق من خلال الأصوات هو ما يثري البحث الأسلوبيّ والدلالي، وهو ما اصطلح عليه البلاغيون بالموهبة الموسيقية للألفاظ.[3]

وكذلك الأمر مع صوت القاف المهموس المتكرر في لغة الخطاب، فهو " صوت لهوي انفجاريّ (شديد) مهموس شبه مفخم"[4]، يُظهر نوعاً من القسوة والقوة، إذ إنه في حال النطق به " يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين، ثمّ يتخذ مجراه في الحلق حتى يصل إلى أدنى الحلق من الفم، وهناك ينحبس الهواء باتصال الحلق (بما في ذلك اللهاة) بأقصى اللسان، ثمّ ينفصل العضوان انفصالاً مفاجئاً، فيحدث الهواء صوتاً انفجارياً شديداً "[5].

---

[1] انظر، أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**، ص88.

[2] انظر، عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية**. ط(1). عمان: دار صفاء للنشر. 1998. ص183.

[3] انظر، أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**. ص 75.

[4] عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية**. ص179.

[5] أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**، ص86-87.

يلاحظ أنّ مثل هذا التكرار الصوتيّ ينسجم مع الدلالة التي تتضمنها تلـك الألفـاظ، أو المضمون الذي ترمي إليه تلك اللغة، يتحقق هذا المعنى من خلال اللفظ (اقتلوا)، (فريقاً يقتلون)؛ حيث عانى موسى υ أشد المعاناة في دعوته لبني إسرائيل، وهم عانوا كـذلك، وعاشـوا حيـاة قاسية زمن فرعون، وهاهم يقسون على أنفسهم وعلى نبيهم، فهم القوم (القاسية) قلوبهم، فتـأتي لغة الخطاب متضمنة معنى هذه القسوة والخشونة وسوء الأدب واللجاجة (اقتلوا أنفسكم)؛ فالقاف جاءت معبرة جامعة للدلالة فهي القسوة، والقوة، والقتل، وليس ثمة شيء أقسـى مـن أن يقتـل المرء أخاه أملاً في التوبة المفقودة، إنها بلاغة الكلم، وإعجاز الصوت، ووحي التعبير والتصوير.

لعلّ تكرار صوت القاف يوحي بعمق القسوة التي اكتنفت القوم، وتضفي علـى الـنص ضربات إيقاعية ساحرة وآسرة.

ثانياً: الأصوات المفخمة والمرققة

عرّف (**ابن جنيّ**) الاستعلاء بقوله: " أن تتصعد في الحنك الأعلى، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق، (يعني: الضاد، والطاء، والصاد، والظاء) وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها "[1]، ولهذه الأصوات وقع شديد ينحدر فور النطق بها، في حين نجد الأصوات الأخرى المرققة تنساب في صورة بطيئة ولينة تضفي على النص متعة جمالية وراحة نفسية.

ولغة الخطاب القرآني تعجّ بمثل هذه الأصوات، وجاءت في لوحة مقابلة لألفـاظ الـنعم التي أنزلها الله Y على بني إسرائيل، والعقوبات التي لحقت بهم نتيجة كفرهم وظلمهم ونكولهم. ومن ألفاظ النعم التي أوردتها لغة الخطاب القرآنـي: (ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ، عَفَوْنَا، بَعَثْنَٰكُم ، وَأَوْرَثْنَا، فَٱنفَجَرَت، فَٱنۢبَجَسَت ، فَأَنجَيْنَٰكُم ، جَٰوَزْنَا، أَنۢبِيَآءَ ، مُّلُوكًا...)[2].

نلاحظ أن الألفاظ الدالة على النعم خالية تماماً من أصوات التفخيم، فعند النطق بها يتخذ اللسان موضعه إلى الأسفل، فتتدفق الكلمات في رقة ولين، مشكّلة إيقاعاً موسيقياً يتوافق وطبيعة المشهد الذي يشاهده المتلقي من خلال اللفظ، إنه مشهد النعم، العفـو مـن الله، وإنـزال المـن

---

[1] انظر، ابن جني، أبو الفتح عثمان: **سر صناعة الإعراب**. ج(1). تحقيق: حسن هنـداوي. ط(1). دمشـق: دار القلـم. 1985م. ص62.

[2] انظر، **سورة البقرة**: 53–58. و**الأعراف**: 137. و160. وغير ذلك كثير.

والسلوى، وغير ذلك من النعم التي لا تتطلب أصواتاً قوية كأصوات التفخيم، وفي ذلك ملمح بلاغي يُظهر قيمة النعمة التي ينعمها الله على عباده، فهي نعمة يرقّ لها القلب، وتطيب لها النفس، وتطرب لها الأذن، من خلال الموسيقا المتدفقة من عمق هذه الأصوات.

في حين نجد الألفاظ الواردة في سرد العقوبات التي أرسلها الله على بني إسرائيل تعجّ بأصوات التفخيم، لتلقي على النص معاني الرهبة والقوة والتعنيف، وكذلك الأمر في الألفاظ الواردة في وصف بني إسرائيل، لتحذّر الأمم اللاحقة من الانكباب على المعاصي والذنوب، فيلحقها ما لحق ببني إسرائيل من قبل، فلنلاحظ مثلاً: (فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ، قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ، وَبَآءُو بِغَضَبٍ، نَتَقْنَا، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً،...)[1]. فـ(الصاعقة) مثلاً نار تسقط من السماء في رعد شديد، أو صيحة العذاب التي أرسلها الله على العاصين من بني إسرائيل[2]، عندما طلبوا من موسى υ أن يريهم ربهم جهرة، فلفظ الصاعقة يصوّر لنا المشهد بعنفه ورهبته وقوته وهوله، مشهد القوة الربانية التي أحالت القوم إلى جثث هامدة، ساكنة، ميتة، فارغة، لا تضر ولا تنفع، إنها حكاية لا تُرتسم خيوطها إلا من خلال الصوت المفخم الصفيري، الذي جمع أكثر من ملمح صوتي، ليزيد من عمق التصوير والتشبيه، وإحالة الموقف المتخيل إلى واقع يعيش معه المتلقي بأحاسيسه ووجدانه.

وليس غريباً أن يتخذ صوت (القاف) ملمحاً إضافياً، يدل على القطع والفصل، وما الصاعقة إلا عقوبة فصلت الطغاة من بني إسرائيل عن حياة ملؤها سوء الأدب والتجرؤ على الله تعالى، ولعل مثل هذه المشاهد تتطلب ألفاظاً أكثر وقعاً على النفس وأعظم أثراً فيها، فاستخدام هذا النوع من الأصوات يسهم في تهويل الموقف، ويحذّر الأمم من سوء العاقبة التي لحقت ببني إسرائيل نتيجة تكذيبهم وحمقهم وظلمهم وتجرؤهم على الله Y.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك تقابلاً واضحاً في لغة الخطاب الواردة على لسان موسى وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، تجاه بني إسرائيل، ولغة الخطاب الواردة على لسان بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، فلنلاحظ، مثلاً، بعض الألفاظ الواردة على لسان الأنبياء، عليهم السلام:

---

[1] انظر، **سورة البقرة:** 55. و66. 90. و**المائدة:** 13. وغير ذلك كثير.

[2] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(8). مادة **(صعق)**. ص242.

(فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ، يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ، يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ، ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ ، يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا، لِمَ تُؤْذُونَنِي...)[1].

جاءت هذه الألفاظ تعج بأسلوب التودد الذي يبدو جلياً في لغة الخطاب القرآني، لا سيما أن خطاب الدعاة إلى الله والمصلحين على مر العصور لا يخرج عن هذا الأسلوب، فقد بعثهم الله إلى أقوامهم ليخرجوهم من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وهذا لن يتحقق إلا بالأسلوب النبوي، بخطاب هادئ وحوار يفضي في النهاية إلى نتائج إيجابية تصب في مصلحة الدين، ولعل هذا ما دفع بعض اليهود لإعلان إسلامهم والذود عن رسول الله ρ كعبد الله بن سلام ومن معه من اليهود المسلمين.

هذا الخطاب يتطلب أصواتاً مرققة تحمل في طياتها معاني الرفق والتودد، والقرآن يؤكد هذا المعنى من خلال التكرار لجملة النداء **(يا بني إسرائيل، يا أهل الكتاب، يا أيها الذي هادوا)** فهي جمل خالية من أصوات التفخيم، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عمد في بعض الآيات إلى استخدام أسلوب التمهيد الذي ينقل القارئ إلى جو المشاهدة، حينما يقول: **(وإذ قال موسى لقومه يا قوم ...)**، ففي صوت الميم المرقق (لقومه) و(يا قومِ) ندرك معنى هذا الهدي المليء بأسلوب الشفقة والرحمة على قومه أملاً في هدايتهم.

في حين نجد الألفاظ الواردة على لسان بني إسرائيل تجاه أنبيائهم تعجّ بالكبر والعناد والمجادلة والنفي، نحو:(لَن نَّصْبِرَ، قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ، يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ، قُلُوبُنَا غُلْفٌ، فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ،...)[2].

فهذا المعنى الذي أراد أن يحققه النص القرآنيّ بحاجة إلى مجموعة الأصوات التي تعبر عنه أحسن تعبير، فعمد لأجل ذلك إلى استخدام الأصوات المفخمة التي تثير الاهتمام وتجذب الأسماع إلى هول الخطاب وسفاهة القوم، فهم قوم أعرضوا عن الله تعالى، وانكبّوا على المعصية والرذيلة، فاستحقوا من الله العقوبة والويل والثبور.

---

[1] انظر، **سورة البقرة:** 54. وآل **عمران**:64. و**المائدة:** 20. و**الأعراف:** 128. و**طه:** 86. و**الصف:** 5.

[2] انظر، **سورة البقرة:** 61. و88. و**النساء:** 157. و**المائدة:** 24. و64.

ثالثاً: الأصوات الصفيرية

وهي أصوات احتكاكية يضيق المجرى عند النطق بها، فتحدث صفيراً عالياً، وهي ثلاثة: السين والصاد والزاي، وأعلاها صفيراً الصاد؛ للإطباق والاستعلاء اللذين فيها.(1)

وتسمّى هذه الأصوات بالأصوات الأسلية، نسبة إلى مخرجها من أسلة اللسان، أي طرفه، ولعل أهم ما تتميز به هذه الأصوات شدة الوضوح السمعيّ، فهي أصوات احتكاكية حادّة، لها وقع على السمع، تسهم في لفت الانتباه، ولها معان إضافية يجلّيها السياق.(2)

وردت هذه الأصوات بشكل لافت في لغة الخطاب القرآنيّ، نحو: (**لا تلبسوا، السفهاء، يستحيون، نصليهم، الصاعقة، أصنام، أصبرهم، رجزاً، خزي،...**). وقد احتل صوتا السين والصاد المرتبة الأولى في الاستخدام؛ حيث يضيق المجرى بشكل كبير عند النطق بهما.

ولا شك أنّ استخدام هذا النوع من الأصوات يوحي بدلالتين مهمتين:

- الأولى: تتمثل في شخصية موسى υ، التي تجاهد القوم فتذكرهم مراراً وتكراراً بالنعم التي أنعمها الله عليهم، يظهر ذلك من خلال الألفاظ: (**يسومونكم، يستحيون، السلوى، أنزلنا، بعصاك، ...**)، وهذا النوع من التذكير بحاجة إلى أصوات أكثر تأثيراً في النفس ووقعاً في الضمير، لذا نجد الأصوات الصفيرية ظاهرة في سرد النعم على بني إسرائيل.
- أما الدلالة الثانية: فهي إشارات العقاب المقابلة للدلالة الأولى، إذ نجد استخداماً مقابلاً نحو: (**الصاعقة، خزي، رجزاً، نقص، يسومهم، قردة خاسئين، الخنازير،...**) وما تحمله هذه الأصوات المتلاحقة من دويّ ورهبة، يتضمن معنى التحذير للأمم اللاحقة من الانغماس في الكفر والعصيان، فيصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من قبل.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من التحليل يسهم في تحديد القيمة الدلالية للصوت، يظهر ذلك من خلال قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ } {**البقرة: 96**}،

---

(1) انظر، القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة.** ط(3). عمان: دار عمار. 1996. ص124. وأنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية.** ص74.

(2) انظر، عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية.** ص274.

فلفظ (الزحزحة) وما يتضمنه من ملمح صفيريّ يليه صوت الحاء، يدل على الفعل ذاته، وهو فعل الزحزحة، وكأنّ المشهد يقف عند هذه الكلمة، لتظهر لنا الشخصية اليهودية ساكنة، ثابتة، لا حراك فيها، جامدة، غير قادرة على إبعاد ذاتها عن العقاب الذي أعدّ خصيصاً لهذا النوع من الشخصيات.

وكذلك يظهر حال الصوت الصفيريّ، وما يبرزه من عمق في المشهد الأسلوبيّ والدلاليّ كقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا) **{النساء: 56}** من خلال اللفظ (نُصۡلِيهِم)، ذلك أنه يعبّر عن صورة التقلب في النار والاشتواء بحرها ولهبها، ومن ذلك: شاة مصلية أي مشوية.[1]

رابعاً: أصوات الذلاقة

تعد أصوات الذلاقة من أكثر الأصوات وضوحاً في السمع، وتسمى بأشباه الأصوات الصائتة؛ لأنها تشبه الحركات في وضوحها السمعي.[2]

وهي من " أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً وأكثرها امتزاجاً بغيرها، وهي ستة أحرف: الفاء والياء والميم، والراء والنون واللام "[3].

ومن أكثر أصوات الذلاقة وروداً في لغة الخطاب القرآنيّ النون، وهو " صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة، ففي النطق به يندفع الهواء من الرئتين محركاً الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولاً، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى، فيسد بهبوطه فتحة الفم، ويتسرب الهواء من التجويف الأنفي محدثاً في مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع"[4].

وصوت النون ذو وضوح سمعي يزيد المعنى وضوحاً من خلال ما يحمله من قوة إسماع، وما تضفيه الغنة المتدفقة من موسيقا عذبة.[5]

---

[1] انظر، الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(10). ط(2). طهران: دار الكتب العلمية. د.ت. ص134.

[2] انظر، عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية**. ص174.

[3] القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **الرعاية**. ص136.

[4] أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**. ص66.

[5] انظر، كشك، أحمد: **من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي**. ط(1). دار السلام: مطبعة المدينة. 1983. ص13.

ورد صوت النون كفاصلة قرآنية بكثرة بالغة، وورد أيضاً في سياق الآيات، وجاء على أربعة أشكال خطابية[1]:

- حكاية عن خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، نحو: (وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ، وَلَا تَكُونُوٓاْ، وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ، وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ، وَٱسۡتَعِينُوا ، وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ، نَجَّيۡنَٰكُم،...).
- حكاية عن خطاب نبي الله موسى υ لقومه، نحو: (إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم، إِنَّكُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ، ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ، أَتَسۡتَبۡدِلُونَ،...).
- حكاية عن خطاب بني إسرائيل لنبي الله موسى υ، نحو: (لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ، لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ، إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا ، لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ ،...).
- حكاية عن خطاب موسى υ لربه، نحو: (إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي، أَنتَ وَلِيُّنَا ، إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ، ...).

لعلّ استئثار صوت النون، وما هو في سياقه من التنوين، على مجمل لغة الخطاب في بني إسرائيل يلقي على النص موسيقا حزينة تعجّ بالشكوى والعتاب والألم، وتبرز القيمة الحقيقية للرسالة التي جاء بها موسى υ لقومه **(لعلهم يتقون، هدىً لبني إسرائيل، لعلهم يهتدون...)**[2]، فهي رسالة مليئة بالهداية والحبّ والرحمة. أما حكاية القرآن عن بني إسرائيل، فغالباً ما كان يحكمها النفي بـ**(لن)**، فهو نفي للمستقبل، وانكباب على الكفر والعصيان والكبر.

ولم يقتصر استخدام أصوات الذلاقة على صوت النون، بل نجد اختياراً ملحوظاً لصوت الميم، سواء كان ذلك كفاصلة قرآنية، أو في سياق الآيات، نحو: **(يا قومِ، لعلكم تهتدون، عند بارئكم فتاب عليكم، وأني فضلتكم، وآمنوا، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون، ...)**[3].

هذا التعاقب بين صوتي النون والميم يسهم في تدفق الألفاظ بسهولة عذبة، وتتابع ينسجم ومحور الآيات التي تعبر عن حرص النبيّ الكريم على هداية قومه، فمثل هذه الألفاظ تضفي على الجو العام سمة الرحمة والألفة والمحبة.

---

[1] انظر، **سورة البقرة:** 40-175. وآل **عمران:** 19-188. و**النساء:** 37-171. و**المائدة:** 12-83. وغير ذلك كثير.

[2] انظر، **سورة الأعراف:** 164. و**الإسراء:** 2. و**المؤمنون:** 31.

[3] انظر، **سورة البقرة:** 47- 54.

أما صوت الراء الشديد، وهو تكراري يؤكد تكرار الفعل أو المعنى، فهو جلي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، فلنلاحظ مثلاً: **(يحرّفون، يشترون، يكفرون، ...)**[1].

لعل انتقاء الصوت في الاستخدام اللفظي يسهم في تأكيد معنى معين، أو إنشاء معنى إضافيّ، فاللفظ (يحرّفون) يدل على أنّ سلوك التحريف لكتاب الله تعالى (التوراة) لم يكن سلوكاً عابراً، بل كان سلوكاً أصيلاً في أصل تكوينهم، إذ نشأوا وقد تجذّر فيهم هذا النوع من السلوك، فهم لم يحرفوا مرة واحدة، بل حرفوا التوراة من قبل، وحرفوه من بعد، عندما احتكموا إلى رسول الله ρ في شأن رجل منهم وامرأة قد زنيا، وأرادوا طمس آية الرجم عندهم، ولكن رسول الله ρ أمر برجمهما.[2]

ولم يقتصر التكرار الظاهر من خلال الصوت (الراء) على الفعل (يحرّفون)، بل نجد ذلك في بقية ألفاظ السلوك أو الوصف أو الجزاء على حد سواء.

يظهر لنا أن تعاقب الإيقاعات الداخلية والخارجية، وتلاؤم الأصوات على اختلاف تنوعاتها وأشكالها، يحقق الانسجام الذي يسهم في تدفق الكلام وسهولته، كالماء المنحدر " يكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك، قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه "[3].

وقد اصطلح القدماء على هذا النوع من الانسجام باسم " التلاؤم "[4]، الذي يتحقق من خلال النسق القرآني الجامع لكل مزايا الشعر والنثر، يقول **(قطب)**: " إن النسق القرآنيّ قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة.. وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقا الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي "[5].

---

[1] انظر، القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **الرعاية**. ص196-197.

[2] انظر، مسلم، ابن الحجاج: **صحيح مسلم**. ج(3). د.ط. القاهرة: دار الفكر للطباعة. 1983. ص1326.

[3] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ص439.

[4] الباقلاني، محمد بن الطيب: **إعجاز القرآن**. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط(5). مصر: دار المعارف. 1963. ص270.

[5] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ط(1). القاهرة: دار المعارف. 1959. ص87.

المبحث الثالث: التنغيم

يقع التنغيم حينما يرفع الإنسان صوته أو يخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة، يذكر **(الجاحظ)** شيئاً من هذا المعنى، فيقول: " والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً إلا بالتقطيع، والتأليف، وحسن الإشارة باليد، والرأس"[(1)].

يقول **(ابن جنّي)**: " وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـ(والله) هذه الكلمة، ولتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك.

وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك.

وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق، قلت: سألناه فوجدناه إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك! "[(2)].

وهنا يظهر أثر التنغيم في الدلالة، فيسميه **(أنيس)** " موسيقى الكلام "[(3)]، أو " النغمة الكلامية "[(4)]، وهو من أهم الوسائل التي تفرق بين حالتي الإثبات والاستفهام، وله أهمية كبيرة في إثراء المعنى الوظيفيّ أكثر من الترقيم.[(5)]

برزت ظاهرة التنغيم بجلاء في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، فمن ذلك قول الله تعالى حكاية عنهم: **(وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ) {البقرة:88}**؛ حيث يفيد معنى التقرير، بمعنى أن قلوبهم مغشاة بأغطية مانعة من وصول دعوتك يا محمد، ولكنّ قراءتها بالتنغيم الدالّ على الاستفهام الإنكاري يجعلها أكثر بياناً وأبلغ وصفاً من القراءة السابقة، وذلك قولهم منكرين: قلوبنا غلف؟ على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار وهذا يعني أنه " ليست قلوبنا في أغلاف، ولا في أغطية، بل

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. ج(1). ص79.

(2) ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**. ج(1). ص372–373.

(3) أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**. ص175.

(4) أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**. ص47.

(5) انظر، مصلوح، سعد: **دراسة السمع والكلام**. القاهرة: عالم الكتب. 1980. ص253. وانظر، بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ترجمة: صبري السيد. د.ط. مصر: دار المعرفة. 1999. ص61.

قوية، وخواطرنا منيرة، ثمّ إنا بهذه الخواطر والأفهام تأملنا دلائلك يا محمد فلم نجد منهـا شـيئاً قوياً. فلما ذكروا هذا التصلف الكاذب، لا جرم، لعنهم الله على كفرهم الحاصل بسبب هذا القول "[1]، ولو قالوا ذلك على سبيل التقرير لما استدعى الأمر تلك العقوبة الشديدة وهي الطرد والإبعاد.

ولنلاحظ أيضاً قوله تعالى: (ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) **{البقرة:85}**، وذلك أنهم كانوا يقتل بعضهم بعضاً، ويخرجون أنفسهم من ديارهم، وقد روي أنه كان إذا وقع أسير منهم في الأسر أخذوا يبذلون كل ما يملكون لفديته، والقرآن الكـريم يخاطبهم بأسلوب يتضمن معنى التقرير، وهو إثبات فعلهم المستغرب.[2]

وقد يكون علـى سـبيل الاسـتفهام الإنكـاري {وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ؟}، وبهذا الأسلوب يكون أكثر إفادة للمعنى الذي سقناه؛ إذ يتضـمن معنـى الإنكار والتوبيخ لهذا الفعل الشنيع، فكيف يرتكبون العظيم في القتل والإخراج، ثم لا يقبلـون أن يقع أحدهم في الأسر، أيّ مفارقة هذه؟! إنها الدلالة التي لا تتحقـق إلا بـالتنغيم علـى سـبيل الاستنكار والتوبيخ.

وكذلك قولـه: {قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} **{آل عمران: 99}**، إذ يظهر الوقف بالتنغيم على قولـه {تَبْغُونَهَا عِوَجًا} فيعطي دلالة تقريرية في موضع الحال، وقد تكون لإفادة التعجب مـن فعلهـم {تَبْغُونَهَا عِوَجًا!}، وقد تكون استفهامية متضمنة معنى الإنكار {تَبْغُونَهَا عِوَجًا؟}.

يظهر لنا أن قراءة الجمل بأسلوب التنغيم يفيدنا دلالات إضافية ما كان لهـا أن تتحقـق لولا مثل هذا النوع من الأساليب، وهذا مما يضفي على النص قيمة جمالية، تزيـد فـي عمـق الدلالة وإيحاءاتها.

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص179.

[2] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص188.

المبحث الرابع: التماثل في المقطع الصوتي

تتمتع اللغة العربية بنظام مقطعيّ خاص، ففيها المقطع القصير (ص ح)، والمقطع الطويل المفتوح (ص ح ح)، والمقطع الطويل المقفل بصامت (ص ح ص)، والمقطع المديد المقفل بصامت (ص ح ح ص)، والمقطع المديد المقفل بصامتين (ص ح ص ص).[1]

والكثرة الغالبة من المقاطع الشائعة في اللغة العربية تتمثل في: (ص ح)، و(ص ح ح)، و(ص ح ص)[2]، ونراها ماثلة بشكل جليّ في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، لا سيما أن المقطع القصير يسهم في الوضوح؛ لأنه يتسم ببساطة التكوين التي تُظهر حركة إيقاعية بارزة تثير الانتباه.[3]

فلنلاحظ الألفاظ: (**يؤمنون، يكتبون، يقتلون، يبخلون، يلوون، يكفرون، يفسقون، يزعمون**، ...) وغيرها من الألفاظ التي تتكون من ثلاثة مقاطع:

- المقطع المتوسط المغلق: ص ح ص (يُؤ، يَك، يَقـ، يَبـ، يَلـ، يَك، يَفـ، يَز).
- المقطع القصير المفتوح: ص ح (مِـ، تـُ، خَ، وُ، فـُ، سُ، عُ).
- المقطع الطويل المغلق: ص ح ح ص (نُون، بُون، لُون، وُون، رُون، قُون، مُون).

ومن الجدير ذكره أنّ المقاطع الصوتية الطويلة المؤلفة من صامت وصائت طويل (ص ح ح) وردت بكثرة في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، وغالباً ما اقتصر الصائت الطويل على الألف والواو والياء، وإنْ كان وروده بألف المد أكثر من حرفي المد الأخرى.

وحروف المدّ لها أثر موسيقيّ يعبّر عن وظيفة فنية دلالية تضفي على النفس أحاسيس وجدانية عميقة تجعل المتلقي أكثر تفاعلاً مع النص، ولننظر إلى أداة النداء (يا) التي وردت في أكثر من أربعين موضعاً، نحو (**يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل، يا أيها الذين هادوا**،...)، فهو من المقاطع المتكررة بشكل ملحوظ في لغة الخطاب.

---

[1] انظر، عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية**. ص220-222.

[2] انظر، عمر، أحمد مختار: **دراسة الصوت اللغوي**. ط(1). القاهرة: عالم الكتب. 1997. ص301-302.

[3] انظر، عبد الجليل، عبد القادر: **هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي رؤية لسانية حديثة**. ط(1). عمان: دار صفاء للنشر. 1998. ص30.

(يا بـــ ني إسْـــ را ئيـــ لَ)

يا	**ني**	**را**	**ئيـــ**
(ص ح ح)	**(ص ح ح)**	**(ص ح ح)**	**(ص ح ح)**

هذا النداء المتكرر يوحي بحالة الوجدان العميقة التي سيطرت على موسى υ في رحلته الطويلة المعقدة مع بني إسرائيل، لا سيما أن صوت الألف لا تعترضه حوائل في مروره، بـــل يندفع حراً طليقاً، فهو أوسع حروف المد وألينها.[1]

واستخدام هذا النوع من المقاطع لا يقتصر على أداة النداء (يا)، بل نجده ماثلاً في كثير من الألفاظ، نحو:

(نفيرا)	(تتبيرا)	(قليلا)	(اهبطوا)	(استعينوا)
فيـــ را	**بيـــ را**	**ليـــ لا**	**طو**	**عيـــ نو**
(ص ح ح)	(ص ح ح)	(ص ح ح)	(ص ح ح)	(ص ح ح)

وهذا الاستخدام ينسجم مع أسلوب (التأوّه) الذي لزم موسى υ منذ بداية دعوته وحتـــى مماته، أملاً في الهداية والرشاد لقومه.

كما يظهر المقطع المديد المقفل بصامت كفاصلة للآيات القرآنية في لغة الخطاب لبنـــي إسرائيل، نحو:

(ارهبون)	**(يؤمنون)**	**(فاسقون)**	**(كافرون)**
بون	**نون**	**قون**	**رون**
(ص ح ح ص)	**(ص ح ح ص)**	**(ص ح ح ص)**	**(ص ح ح ص)**

واستخدام المقاطع المتوسطة والمغلقة ينسجم مع طبيعة الكلام العربيّ الذي يؤثر استخدام المقطع المتوسط بشكل عام.[2]

من هنا فإن ورود المقاطع الصوتية بشكل مطرد يسهم في تحقيق التوازن الصـــوتي، لا سيما الطويلة منها والمغلقة التي تتدفق بصوت المد الذي يلفها.

---

[1] انظر، أنيس، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**. ص36.

[2] انظر، أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**. ص171.

الفصل الثاني:

التحليـــــل الدلالـــــــي

للغة الخطــــــاب القرآني في بني إســــــــرائيل

مدخل..

المبحث الأول: حقل ألفاظ السلوك

المبحث الثاني: حقل ألفاظ الوصف

المبحث الثالث: حقل ألفاظ الجزاء

مدخل

تناول القدماء والمحدثون الظاهرة اللغوية، فتعددت آراؤهم، واختلفوا فـــي نشـــأة اللغـــة وفرّقوا بين اللفظ والمعنى، وأطالوا الحديث في ذلك مفضّلين أحدهما على الآخر، وليس الخوض

في مثل هذه القضايا من جوهر دراستنا الأسلوبية والدلالية، لكنّ الذي يأخذ بلبّ الباحث ذلك المعجم الثمين من الألفاظ التي تتسق مع بعضها بصورة حية ذات مغزى عميق، يظهر من خلال الدقة في الاختيار والعمق في التسلسل والترتيب.

حظيت لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بمعجم ثمين من الألفاظ التي أخذت تتضمن معاني بعضها، لتشكل، في مجملها، ثلاثة حقول دلالية تسهم في إثراء هذه الدراسة، فهي تعجّ بالمعاني التي تتسق وطبيعة الأطوار التاريخية التي عاشها بنو إسرائيل عبر العصور، التي تمثلت لنا من خلال دراستنا التمهيدية.

والذي يزيد من حيوية هذا القرآن أنه معين لا تنقضي عجائبه، وحيّ يلمّ بكل النظريات الحديثة والقديمة على حد سواء، لو تسنى للمرء أن يتدبر أو يلاحظ أو يمعن النظر فيه لحاز على خير وفير، من هنا كان لهذا الفصل أهمية خاصة؛ ذلك أنه يتناول نظرية حديثة وهي نظرية الحقول الدلالية في ضوء القرآن، ليكون للنظرية ذوق خاص يثري هذه الدراسة.

ومما لا شك معه أن الألفاظ تتقارب في معانيها، أو قد تشترك اللفظة في أكثر من معنى[1]، والذي يجعلنا نتجاوز هذا المشكل في دراسة الحقول الدلالية ما عمدنا إليه من تحديد للألفاظ، واقتصار على الألفاظ ذات المعنى الواضح والجليّ، ألفاظ متى أطرقنا لها السمع أخذتنا بجمال سبكها، وعمق أثرها، وعذوبة نطقها.

إن انتقاء الألفاظ ودراستها ضمن نظرية الحقول الدلالية لا يعني أن تفقد الكلمة أو اللفظة حيويتها وجوهرها ووقعها على المتلقي، بل نجد كثيراً من الألفاظ، وكأنها تخلع على نفسها سمة الشخصية، جاءت حية متجددة شاخصة، وكأننا نقف أمام إنسان معروف الاسم والهوية.

يظهر ذلك جلياً في لغة الخطاب، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ **{البقرة: 49}**.

---

[1] انظر، أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ.** ص210.

نجد اللفظ (يسومونكم) ممعناً في التعبير والتصوير، فهو من السوم، وأصله الذهاب في طلب الشيء، ومنه سامت الإبل فهي سائمة ترعى دائماً، فكأن العذاب الذي سلطه فرعون وقومه على بني إسرائيل هو الغذاء الدائم لهم.[1]

هذه الدلالة الكاشفة، تجلّي لنا حقيقة المشهد، وبنو إسرائيل يخضعون بالقوة لسلطان فرعون وجبروته، هو الويل والثبور الذي يظهر من خلال اللفظ (يسومونكم)، فهو اللفظ الموافق لمعناه الذي عبر عنه **(الجرجاني)** بقوله: " لفظ متمكن يريدون أنه بموافقته معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه "[2].

ولا شك أن دراسة الألفاظ القرآنية بأسلوب حديث يثري النص القرآنيّ، ويلقي عليه روعة جمالية وفنية عظيمة، لا سيما تلك النظريات الحديثة التي تأخذ طابعاً خاصاً في الدراسة الأسلوبية والدلالية كنظرية الحقول الدلالية أو المعجمية.

ونظرية الحقول الدلالية من النظريات الحديثة نسبياً؛ إذ ظهرت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين على أيدي علماء سويسريين وألمان[3]، تتمحور حول مجموعة الألفاظ التي ترتبط دلالاتها، ويمكن أن توضع تحت لفظ عام يجمعها، كألفاظ اللون مثلاً، نحو (أزرق)، و(أحمر)، و(أخضر)، و(أبيض) ... إلخ.[4]

وهدف هذا النوع من الدراسات يتمثل في جمع الكلمات التي يمكن أن تصنَّف ضمن حقل معين، والكشف عن صلات هذه الألفاظ بعضها ببعض، ثمّ صلتها بالمصطلح العام دون إغفال للسياق.[5]

عرف القدماء هذا النوع من الدراسات، كرسائل: الخيل لأبي عبيدة، **(ت 210 هـ)**، وخلق الإنسان للأصمعي**(ت 216 هـ)**، وبعض المعاجم كفقه اللغة للثعالبي **(ت 439 هـ)**، والمخصّص لابن سيده، **(ت 448 هـ)** وغيرهم كثير.

---

[1] انظر، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. راجعه وقدم له: وائل عبد الرحمن. د.ط. القاهرة: المكتبة التوفيقية. 2003. ص225.

[2] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط(3). جدة: دار المدني. 1992. ص64.

[3] انظر، البهنساوي، حسام: **علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة**. ط(1). القاهرة: زهراء الشرق. 2009. ص73-74.

[4] انظر، عمر، أحمد مختار: **علم الدلالة**. ط(5). القاهرة: عالم الكتب. 1998. ص79.

[5] انظر، **السابق نفسه**. ص80.

لكنّ ثمة من يقول: إن هؤلاء القدماء قد عجزوا عن تبنّ واضح لمنهج معين في جمع الألفاظ، وهم كذلك لم يفلحوا في توضيح العلاقات بين الألفاظ داخل الحقل المعجمي الواحد، مما يجعل للدراسات الحديثة أهمية خاصة؛ لا سيما الدراسات التي أظهرت عمقاً في البحث الدلاليّ، فأشارت إلى تقسيم الألفاظ إلى ألفاظ أساسية أو مركزية وألفاظ هامشية أو إضافية، وبناء العلاقات على أساس الاشتمال أو التضمين أو الترادف، أو التنافر، أو علاقة الجزء بالكل، أو غير ذلك من العلاقات التي تسهم في كشف الجوانب الخفية للدلالة المفردة، وكم نحن بحاجة إلى استخدام هذا الكم الهائل من التراث العربي في ضوء البحوث اللغوية المعاصرة؛ ذلك أن " هذا التحليل هو الذي يقودنا إلى تفهم الشحنة الدلالية والعاطفية الكامنة في النص، والتي تؤثر في المتلقين "[1].

والاهتمام ببيان هذه الأنواع من العلاقات داخل الحقل المعجمي الواحد، لا يعني بالضرورة أن كل حقل دلالي يجب أن يشتمل على واحدة أو أكثر من هذه الأنواع، بل قد يتسنى للدارس أن يكتشف نوعاً آخر من العلاقات.[2]

إن بنية اللغة قائمة في الأساس على فكرة الارتباط بين الدال والمدلول أو الحاضر والغائب بأسلوب منطقي يستدعيه العقل البشري[3]، ونظرية الحقول الدلالية تنظر إلى العلاقات التلاؤمية أو الاستبدالية نظرة ثاقبة في دراسة الألفاظ دون إغفال للسياق؛ فهو الخطوة التمهيدية لأيّ عمل دلالي، يقول **(بالمر)**: " من السهل أن نسخر من النظريات السياقية، مثلما فعل بعض العلماء، وأن نرفضها باعتبارها غير عملية، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكننا أن نرفضها دون إنكار الحقيقة الواضحة، التي تقول بأن معنى الكلمات والجمل يرتبط بعالم التطبيق "[4].

يظهر ذلك من خلال قوله تعالى: (**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ**)**{الحشر: 2}**، ذلك أنه يمكن تصنيف كل لفظ من هذه الألفاظ في حقل دلاليّ معين، لكنّ قراءة النص ككل متكامل تجعلنا

---

(1) عياد، محمود: **الأسلوبية الحديثة محاولة تعريف. مجلة فصول.** مج(1). ع/2. يناير/ 1981. ص124. وانظر، عمر، أحمد مختار: **علم الدلالة.** ص80. وكلنتن، هيفاء عبد الحميد: **نظرية الحقول الدلالية دراسة تطبيقية في المخصص لابن سيده.** (رسالة ماجستيرغير منشورة). جامعة أم القرى. مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية. 2001. ص75.

(2) انظر، عزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية.** د.ط. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2002. ص11.

(3) انظر، طقوس، بسام: **دليل النظرية النقدية المعاصرة.** ط(1). الكويت: مكتبة العروبة. 2004. ص127.

(4) بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد.** ص80.

قادرين على تصنيف أكثر من لفظ داخل الحقل المعجمي الواحد، على أساس القاعدة التلاؤمية[1]، فاللفظ (قذف) ملائم للفظ (الرعب)، وليس الرعب سوى نتيجة حاصلة لعملية القــذف الموحيــة بالعنف والرهبة، فالسياق والأسلوب يجعلان اللفظين في حقل دلالــيّ واحــد، لــو تســنى لنــا تخصيص حقل لهذه الألفاظ أو تلك.

جاءت لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في ثلاثة حقول دلالية:

- حقل ألفاظ السلوك الدالة على سلوك بني إسرائيل عبر العصور.
- حقل ألفاظ الوصف التي تنزع إلى وصف بني إسرائيل نتيجــة ســلوكهم ونكــرهم وتمحلهم، فجاءت الأوصاف ثاقبة، كاشفة، تظهر عمق السوداوية التي غلبت علـــى كثير منهم.
- حقل الألفاظ الدالة على الجزاء، ذلك أنه من عدل الله Y أن ينعم علـــى المــؤمنين منهم، ويعاقب الجاحدين والمنكرين.

فالحقل الدلالي " يشمل قطاعاً دلالياً مترابطاً، مكوناً من مفردات اللغة التي تعبــر عــن تصوّر أو رؤية أو موضوع أو فكرة معينة "[2].

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الدراسات الحقلية بحاجة إلى مزيد من التــدرج والعمــق، ليتسنى لها أن تكون نظريات دلالية متناسقة، وهذا ما دفع بعــض البــاحثين إلـــى أن يطلقــوا اصطلاح (المجال الدلالي) بدل الحقل الدلالي.[3]

---

[1] انظر، حميده، مصطفى: **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**. ط(1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. مصر: الشركة المصرية. 1997. ص130-131. وبالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص143.

[2] عزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. ص12.

[3] انظر، بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص111.

المبحث الأول: حقل ألفاظ السلوك

يقال: " سلكت الشيء بالشيء أي: أدخلته فيه فدخل، كالطاعن يسلك الرمح فيه إذا طعنه تلقاء وجهه على سجيحته "[1]، ومنه قوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) **{المدثر: 42}.**

والسلوك ممارسة يمارسها الإنسان فتصبح علامة دالة عليه، كحال أولئك الذين سلكهم الله في سقر نتيجة نكولهم وتكبرهم عن أداء الصلاة، فأصبح تركهم للصلاة سلوكاً يمارسونه طول حياتهم.

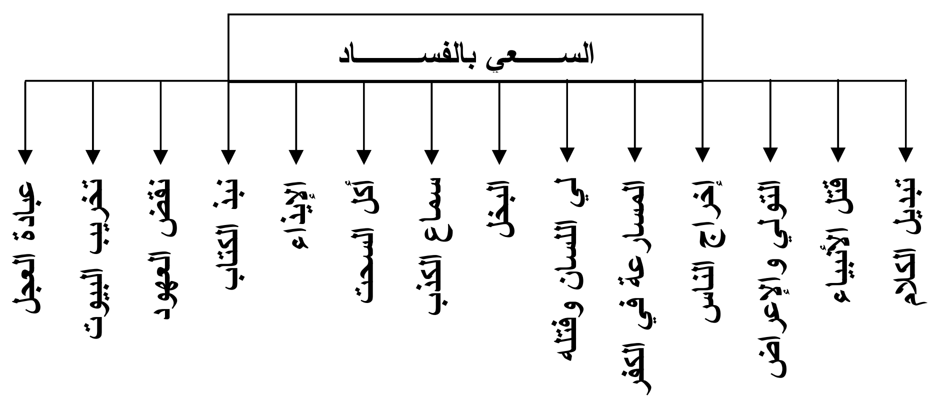
والقرآن الكريم يعجّ بالألفاظ الدالة على سلوك بني إسرائيل، لا سيما تلك التي مارسوا فيها أشد ألوان الفساد، وحينما نتحدث عن السلوك، إنما نقصد تلك الممارسة التي تمارسها هذه الشخصية أو تلك.

وردت الألفاظ الدالة على السلوك في لغة الخطاب القرآني من خلال نموذجين اثنين، هما:

- حقل ألفاظ السلوك للفئة الأكثر عدداً من بني إسرائيل.
- حقل ألفاظ السلوك للفئة القليلة المؤمنة منهم.

وهنا نتناول كل مجموعة على حدة، نلقي الضوء على العلاقة بين الألفاظ في المجموعة الواحدة، ثم العلاقة بين الألفاظ في كلتا المجموعتين.

جاءت ألفاظ السلوك للفئة الأكثر عدداً من بني إسرائيل واضحة لا لبس فيها، نجملها في الشكل الآتي[2]:



---

[1] الفراهيدي، الخليل بن أحمد: **كتاب العين**. ج(5). تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. د.ط. مصر: دار الهلال. د.ت. مادة **(سلك)**. ص311.

[2] انظر، **البقرة:** 59. و61. و64. و75. و101. **وآل عمران:** 37. 112. و181. و186. و187. **والنساء:** 46. و153.

يظهر لنا أن معظم الألفاظ الدالة على السلوك في الكثرة الغالبة من بني إسرائيل جــاءت بصيغة الفعل لا سيما المضارع منه، وهو الفعل الدال على التجدد والاستمرارية، نحو: **(يَسْعَونَ** في الأرض فساداً، **يَقْتُلونَ** النبيّين، **يُخْرِجونَ** أنْفسَهم، **يُسَارِعونَ** في الكفــر، **يَلْــوُونَ** أَلْسِــنَتَهُم، **يَبْخَلونَ** و**يَأمُرونَ** الناس بالبخل، **يَنْقُضُونَ** الميثاق**)**.

لعل هذا الأسلوب يظهر عمق الأثر المتجدد في هذا السلوك، فسعي بني إسرائيل بالفساد ظاهر منذ القدم؛ إذ قتلوا من الأنبياء ما قتلوا، وادعوا قتل عيسى υ، وحاولوا قتــل النبــيّ ρ، وعمدوا إلى قتل المصلحين على مرّ التاريخ.

وكذلك أفسدوا ويفسدون في إخراج الناس من ديارهم، فعلوا ذلك مع بعضهم قبيل ظهور الإسلام، ليتجدد الفعل فيهم من جديد في فلسطين؛ إذ طردوا أهلها منها وأقاموا مقامهم، ثمّ ادعوا ملكيتهم لهذه الأرض، وإذا ما خرجوا تراهم يخربون بيوتهم بأيديهم، هذا فعلهم زمن النبــي ρ، وهو كذلك يوم خرجوا من غزة ولبنان يجرّون أذيال الهزيمة.

هذا التجدد في السلوك والممارسة يظهر في كل الألفاظ الدالة على السلوك، لتبدو الدلالة بعمقها ودقة وصفها من خلال استخدام الفعل (المضارع).

يظهر لنا أن الدلالة الأساسية أو المركزية المتضمنة لكل المعاني الهامشية تكمــن فــي قوله: **(يسعون في الأرض فساداً)**، فالسعي بالفساد – بلا شك – دافع رئيس من دوافع البغــي، والقتل، والتحريف، والإعراض، وأكل السحت، والإيذاء، وغيرها من الألفاظ الهامشــية الدالــة على السلوك في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل.

وقد ظهرت بعض الألفاظ في هذا الحقل على صيغة المبالغة **(فعّال)** نحــو: ســمّاعون للكذب، وأكّالون للسحت...؛ لأنهما يعبران عن الكثرة في ممارسة هذا السلوك.

هذه الدلالة تتحقق أيضاً من خلال استخدام أســلوب التضــعيف، نحــو: ورود اللفــظ **(يَقْتُلون)** بالتشديد **(يقتّلون)**[(1)]، لما في ذلك من دلالة إضافية على الكثرة، ذلك أنهــم يســتعملون التضعيف للدلالة على الكثرة في العمل، نحو: كسّرته، وقطّعته، ومزّقته.[(2)]

[(1)] انظر، **سورة الأعراف**: 141.

[(2)] سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب**. ج(4). ص64.

ولعل مجيء الدلالة الأساسية بصيغة (المضارع) يضفي نوعاً من التوافق ومجمل الدلالات الهامشية، لورود كثير منها في صيغة (المضارع) أيضاً، ولتسهم في إنشاء علاقة تقوم على التضمين والاشتمال بين الألفاظ، لا سيما " أن الاشتمال مسألة عضوية في فصيلة معينة "[1]، فقوله **(وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً)** يكاد يكون جامعاً لكل ألفاظ السلوك الهامشية الأخرى، وإذا ما رمزنا إلى الكلمة الأساسية (السعي بالفساد) بالرمز (أ)، وإلى الكلمات الهامشية بالرمز (ب)، نستطيع أن نقول: إن الدلالة (ب) متضمنة للدلالة (أ)، وأما الدلالة (أ) فهي أعلى في التقسيم التصنيفي أو التفريعي لهذه الألفاظ.[2]

والتضمين يعني الاستلزام، فقولنا: **(يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً)**، يستلزم: أنهم مفسدون، وقولنا: إنهم مفسدون، يستلزم أنهم غير مصلحين، من هنا فإن الدلالة الأساسية هي الدلالة المشتملة على كل معاني الكلمات الهامشية، وهو ما يعرف في اصطلاح الدلالة بعلاقة الاشتمال أو التضمين أو ما يعرف بالاحتواء.[3]

فلنلاحظ مثلاً: اللفظ (نبذ)، واللفظ (ينقضون)، إذ جاء الفعل (نبذ) في تحديد السلوك لهذه الفئة، وهو عدم الاحتكام إلى كتاب الله (التوراة)، فجاء بالتعبير (نبذ) الدال على طرح الشيء إلى الأمام أو الوراء، يقال: نبذ أمري وراء ظهره إذا لم يعمل به.[4]

وجاء بلفظ (النقض) للدلالة على إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء[5]، فاللفظان يشيران إلى نوعين من السلوك الظاهر في بني إسرائيل، هما سلوك عدم الاحتكام إلى أمر الله، وسلوك عدم الالتزام بالمعاهدات أو الاتفاقيات. لكنهما في الوقت ذاته يشيران إلى معنى عام، وهو الهدم، فهدم الأحكام يظهر في اللفظ (نبذ)، وهدم العهود والمواثيق يظهر في اللفظ (ينقضون)، وكلاهما معلم من معالم الإفساد (ويسعون في الأرض فساداً)، من هنا فإن الدلالة (ويسعون في الأرض فساداً) متضمنة للفظ (نبذ) واللفظ (ينقضون).

---

[1] بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص118.

[2] عمر، أحمد مختار: **علم الدلالة**. ص99.

[3] انظر، بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص102.

[4] انظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **أساس البلاغة**. د.ط. القاهرة: دار الشعب للطباعة. 1960. ص928. وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(14). مادة **(نبذ)**. ص174.

[5] انظر، **السابق نفسه**. ج(14). مادة **(نقض)**. ص339.

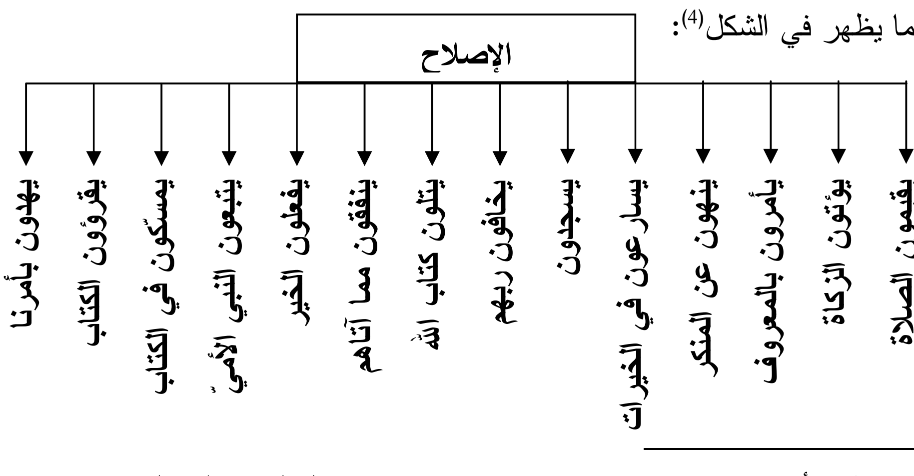
ومن يسعى إلى هدم الأحكام والعهود والمواثيق لا جرم أن يواظب على عبادة عجل ذهبيّ لا يضر ولا ينفع، يظهر هذا المعنى من خلال اللفظ (عاكفين) في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: (لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ) {طه: 91}، والعكوف هنا مواظبة، وسلوك يمارسه أولئك القوم الذين عكفوا على عبادة المخلوق، وزهدوا في عبادة الخالق.[1]

فالوقوف على الدلالة المعجمية لكل لفظ من ألفاظ الحقل الدلالي الواحد، وهو العنصر المعجمي للدراسة الدلالية (**Lexical**)، يعد ضرورة ملحة لتجلية العنصر التصوري (**Champconceptael**)، المتمثل بالدلالة الأساسية أو المركزية.[2]

إنه التصوير باللفظ المعبر عن الوقائع، والمصوِّر للأحداث على حقيقتها، لتتمثل لنا الشخصية بكل سوداويتها، وشذوذها عن جادة الصواب.

وثمة ألفاظ أخرى دالة على السلوك، لكنها تبدو مقابلة للألفاظ السابقة، فهي ألفاظ تعج بالحيوية وسلامة الفطرة، والصدق بشتى صوره وألوانه، إنه سلوك القلة القليلة المؤمنة التي عمد القرآن في كل موطن من مواطن الحديث عن بني إسرائيل أن يخصَّها بالذكر عن طريق التصريح أو التلميح، أو يعمد إلى أسلوب الاستثناء، كأن يتحدث عن المفسدين وأحوالهم ثمّ يقول: إلا المصلحين، إلا...، أو باستخدام (من) التبعيضية إنصافاً لهذه القلة القليلة المؤمنة.[3]

وردت ألفاظ السلوك للقلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل في لغة الخطاب على النحو الآتي، كما يظهر في الشكل[4]:



---

[1] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(10). مادة (**عكف**). ص242.

[2] انظر، عزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. ص12.

[3] انظر، **آل عمران**: 113-114. **والمائدة**: 168.

[4] انظر، **آل عمران**: 113-114.

تبدو ألفاظ السلوك الواردة في تحديد سلوك القلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل واضحة جلية، وهي من الألفاظ المقابلة لألفاظ السلوك الآنفة الذكر.

واللافت للنظر، أن معظم هذه الألفاظ جاءت بصيغة واحدة أيضاً، وهي صيغة المضارع، نحو: (**يقيمون، يؤتون، يأمرون، ينهون، يسارعون،...**)، وغيرها من ألفاظ السلوك؛ ولعل هذا يشير إلى دقة المقابلة بين هذه الألفاظ وبين الألفاظ الدالة على سلوك الفئة العاصية، وفي ذلك ملمح مهمّ، وهو أنّ أهم ما يميز هذه الفئة القليلة المؤمنة ذلك التجدد والاستمرار، في مجموعة السلوك كلها، فإقامة الصلاة مسلك متجدد فيها، لا ينفك عنها أبداً، وكذلك إيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كلها سلوكيات كاشفة، تجلّي لنا هذه الشخصية عبر كل العصور، يظهر ذلك من خلال استخدام الفعل (المضارع).

وردت الكلمة الأساسية أو المركزية المتمثلة باللفظ (أصلحوا)، جامعة لكل ألفاظ السلوك الأخرى، ومقابلة للدلالة المركزية والهامشية في ألفاظ السلوك للفئة العاصية، فلنلاحظ:

اللفظ (أصلحوا) يدل على الإصلاح بشتى صوره وأشكاله، ومشتمل على كل الدلالات الهامشية الأخرى، كـ(**إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،...**) وغيرها من الدلالات الآنفة الذكر، والإصلاح معلم من معالم الشخصية المؤمنة، ومميز رئيس من مميزاتها، يقول تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ) **{آل عمران: 110}**.

تبدو لنا العلاقة بين الكلمة الأساسية وهي (الإصلاح) والكلمات الهامشية وهي: (يقيمون الصلاة، يؤتون الزكاة، يأمرون، يسارعون...) علاقة اشتمال وتضمين، كعلاقة سابقاتها.

وتجدر الإشارة إلى أن ألفاظ السلوك للفئة القليلة المؤمنة لم ترد قط بصيغة المفرد، بل جاءت في كل محاورها بصيغة الجمع، للدلالة على الوحدة في التصور، والعمل ككتلة واحدة، وهو شأن هذا الدين، الذي ينبثق نوره من خلال العمل كفريق واحد، وإن قلّ فيه العدد، أو اضمحلت فيه العدة.

وأياً كان الأمر، فإن ألفاظ السلوك بشكل عام انقسمت إلى نموذجين متقابلين، يستدعي وجود كل منهما الآخر، وهو ما يسميه الباحثون بعلاقة " التداعي "[1]، القائمة على التقابل أو التضاد، فلنلاحظ:

نموذج (أ)		**نموذج (ب)**
• **يسعون في الأرض فساداً**	←	**المصلحين**
• **عاكفين**	←	**يقيمون الصلاة**
• **يبخلون**	←	**يؤتون الزكاة**
• **يسارعون في الكفر**	←	**يسارعون في الخيرات**
• **يلوون ألسنتهم بالكتاب**	←	**يتلون كتاب الله**

يظهر لنا أن علاقة التضاد نشأت بصورة جلية في بعض الألفاظ كـ:

(الإفساد والإصلاح)، و(البخل وإيتاء الزكاة)، و(المسارعة في الكفر والمسارعة في الطاعة)، و(ليّ اللسان، يتلون)، و(العكوف على عبادة العجل وإقامة الصلاة). وظهرت بعض الألفاظ دالة على التضاد المتدرج كـ: (الإعراض وفعل الخيرات)، و(النبذ والتمسك بالكتاب)، و(يأمرون الناس بالبخل ويأمرون بالمعروف)، وغير ذلك.

يبدو أن هذه العلاقة التي أظهرتها لغة الخطاب في بني إسرائيل، تبين لنا حقيقة الصراع بين الحق والباطل، القائمة على التضاد، إذ يستحيل اللقاء بينهما أو الاتفاق، فكل منهما له توجهه وتصوّره الذي يحظر عليه موافقة الآخر أو الاندماج معه.

من هنا جاءت لغة الخطاب عميقة في انتقاء الألفاظ وتوظيفها للتعبير عن حقيقة هذا الصراع بين الحق والباطل.

---

[1] انظر، عزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. ص45.

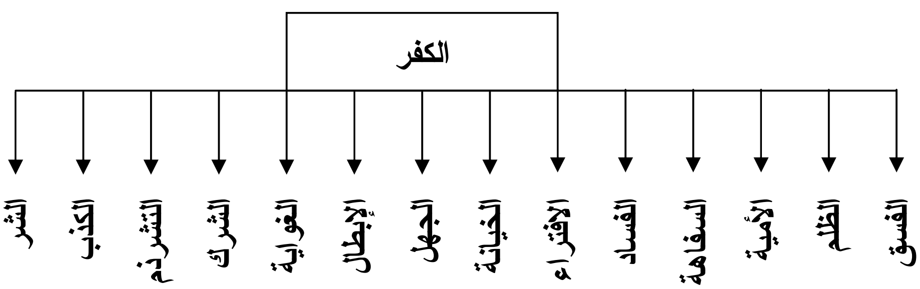
المبحث الثاني: حقل ألفاظ الوصف

عمدت لغة الخطاب القرآني إلى استخدام مجموعة من الألفاظ الوصفية الجامعة لكل أخلاق بني إسرائيل وسماتهم، حيث إن الوصف جاء نتيجة للسلوك الذي اتبعه بنو إسرائيل طول حياتهم، والقرآن الكريم كلام جامع صادق في الوصف والتعبير، يصف لنا الشخصية وصفاً عميقاً يتفق ومحور السلوك.

والآيات التي تضمنت أوصافهم وسماتهم كثيرة ومتعددة، تجعلنا قادرين على تصنيفها ضمن نظرية الحقول الدلالية، تحت لفظ عام يجمعها، وهو (الوصف).

جاءت ألفاظ الوصف في لغة الخطاب القرآني متضمنة لنموذجين من نماذج الشخصية الإسرائيلية، نموذج الباطل في شتى صوره وأشكاله، ونموذج الحق في صدق توجهه، رغم قلة عدده، وضعف قوته.

وردت ألفاظ الوصف لهذين النموذجين في لغة الخطاب، كما يظهر من خلال الشكل، على النحو الآتي[1]: **نموذج الباطل**



من الملاحظ أن لغة الخطاب في وصف بني إسرائيل لم تقتصر على صيغة واحدة، بل عمدت إلى استخدام اللفظ بصيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى.

فقد جاء وصف بني إسرائيل بالظلم في أكثر من (20) موضعاً، إذ ورد بصيغة اسم الفاعل (ظالمون) في أكثر من (14) موضعاً[2]، وصيغة المضارع (يظلمون) في أكثر من (7) مواضع[3]؛ ذلك لما يدله الاسم على ثبوت الدلالة ورسوخها، والفعل على الاستمرارية والتجدد.

---

[1] انظر، **سورة البقرة،** 54، و59، و92، و98، و142. **وآل عمران:** 63، و110، و113. **والنساء:** 50، و60، و151. **والمائدة:** 25، و26، و64. **والأعراف:** 148، و162، و177. **والتوبة:** 32. **والمجادلة:** 14. **والجمعة:** 8.

[2] انظر، **سورة البقرة:** 51. 92. 95. 246. **وآل عمران:** 94. **والأعراف:** 148. **والحشر:** 17. **والجمعة:** 5. و7.

[3] انظر، **سورة المائدة:** 162. و177. و**النحل:** 118.

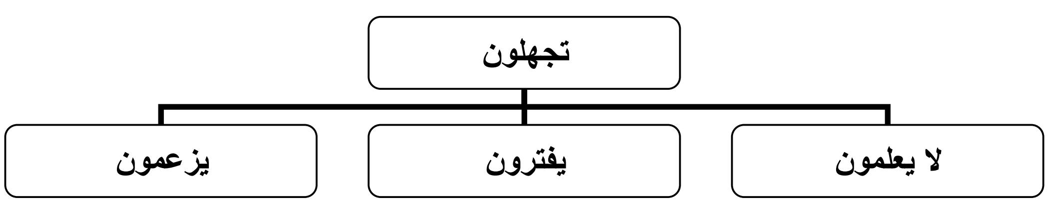
وكذلك الأمر مع اللفظ (فاسقون)؛ إذ ورد على صيغة اسم الفاعل في أكثـــر مـــن (10) مواضع[1]، وعلى صيغة الفعل المضارع (يفسقون) في أكثر من (3) مواضع.[2]

وشأن هذين اللفظين شأن غيرهما من الألفاظ كـــ (كـــافرون، يكفـــرون)، و(الكـــاذبون، يكذبون)، ولعل هذا الأسلوب الخطابيّ يسهم في كشف النقاب عن حقيقة السلوك الذي مارسه بنو إسرائيل عبر العصور؛ إذ إن اليهود مارسوا ظلمهم وكفرهم وفسقهم ومعظم ســـلوكياتهم طـــوال حياتهم، وعلى امتداد أطوارهم الزمنية التي عاشوها، حتى غدت هذه الصفات علامات دالة على أصل تكوينهم، فهم ظالمون، يتصفون بالظلم كمكون رئيس لهم، وهم دائمو الظلم والطغيان رغم اختلاف الزمان أو المكان، يظهر ذلك من خلال اللفظ (يظلمون).

من الملاحظ أن ألفاظ الوصف الدالة على الثبوت والرسوخ جاءت لتشكل السمات العامة لبني إسرائيل، أما الألفاظ المتجددة من زمن لآخر، فجاءت بصيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى.

يظهر ذلك من خلال الصفات: السفاهة، والغواية، والشرك، والشر، كلها سمات عامـــة متجذرة في المجتمع الإسرائيليّ منذ القدم، واليهود اليوم ورثوا هذه الســـمات وتناســـلوها حتـــى غدت مميزاً رئيساً من مميزات مجتمعهم.

أما الأوصاف الأخرى، وهي الدالة على التجدد والاستمرارية، فقد جاءت على صـــيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى، نحو: الكذب، والفسق، والظلم، والجهل، والافتـــراء، والـــزعم، وغير ذلك من الألفاظ؛ ولعل هذا يعود إلى أن هذه الأوصاف ثابتة ومتجددة في الوقت ذاته، فقد تأتي اللفظة لتحقق دلالة معينة في زمان معين، ثمّ يأتي ذكرها في موضع آخر لتحقـــق دلالـــة أخرى في موضع وزمان مختلفين، يظهر ذلك من خلال النموذج الآتي، والفعل (تجهلون) الذي يعطي صفة الجهل في المجتمع الإسرائيليّ:



[1] انظر، **سورة البقرة.** 99. **والمائدة:** 25. و26. و59. و81. **والحديد:** 16. **والحشر:** 5.

[2] انظر، **سورة البقرة:** 59. **والأعراف:** 163.

وهذه الأوصاف: الجهل، وما ينبثق عنه من افتراء وزعم، تبدو ظاهرة جلية في بني إسرائيل منذ أقدم العصور، ذلك أنهم جهلوا أمر دينهم، وحقيقة العهد الذي أعطاهم إياه ربهم، زمن موسى υ، ولم يدركوا كنه هذا الاستخلاف الربانيّ، فجاء الخطاب على لسان موسى υ: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) **{الأعراف: 138}**، موافقاً للحدث والسياق، يوم طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً إلهاً من دون الله تعالى.

أما في زمن ما قبل داود υ، فلم يكن جهلهم جهل عقيدة وعهد، بل كان حسداً وبغياً من عند أنفسهم، وذلك عندما طلبوا من نبيّ لهم أن يبعث لهم ملكاً للقتال في سبيل الله، وبعث الله لهم آنذاك طالوت ملكاً، فأبوا ذلك وجهلوه حسداً وبغياً، ثم قالوا: (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ) ؟! **{البقرة: 247}**.

أما جهلهم في زمن النبي ρ، فلم يكن في بداية الأمر جهل عقيدة، بل كان جهل بغي وهزء وحسد وكبر؛ ذلك أنهم وجدوا نعته ρ في توراتهم، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا بقرب قدومه، لكنه لما بُعث النبيّ الكريم من العرب رفضوا ذلك حسداً من عند أنفسهم.

من هنا نلاحظ أن سمة الجهل التي يتسم بها القوم تتجدد في كل زمان، بما يتوافق وطبيعة الأحداث والمواقف السائدة في ذلك العصر، لذا نجد القرآن الكريم يعبر عن هذه الدلالة بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرارية.

وكذلك يأتي على تخير اللفظ (يزعمون) و(يفترون)؛ ذلك أنهما من اختلاق الشيء وقول الكذب، وكلتاهما سمتان لا يتصف بهما إلا كل جاهل أحمق.[1]

يبدو أن الكلمة الأساسية أو المركزية الجامعة لكل هذه الأوصاف تتمثل في اللفظ (الكفر)، وهي سمة بني إسرائيل منذ القدم، وقد جاءت هذه السمة على صيغة الاسم، وكذلك وردت بصيغة المضارع، أما الألفاظ الأخرى فيمكن تصنيفها ضمن الكلمات الهامشية؛ ذلك أن

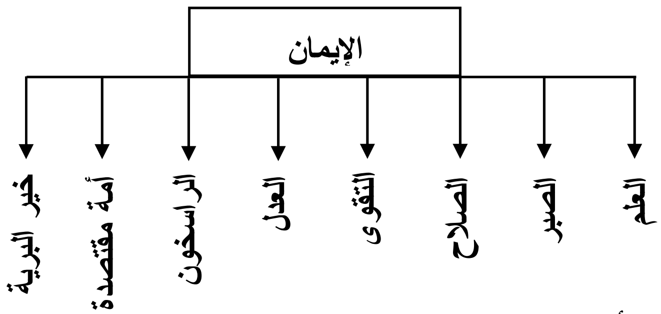
---

[1] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(7). مادة: **(زعم)**. 34. والرازي، محمد ابن أبي بكر: **مختار الصحاح**. تحقيق: محمود خاطر. الطبعة الجديدة. إخراج: دائرة المعارف. بيروت: مكتبة لبنان. 1995. مادة **(ف ر ا)**. ص210.

(الكفر) لفظ جامع لكل الأوصاف الأخرى، كالظلم، والفسق، والخيانة، وغيرها مـــن الأوصـــاف الآنفة الذكر.

أما علاقة هذه الأوصاف مع بعضها فهي كعلاقـــة ســـابقاتها، قائمـــة علـــى التضـــمين والاشتمال.

وثمة أوصاف أخرى على النمط ذاته جاءت تصف القلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، نلخصها في الجدول الآتي[1]: **نموذج الحق**



وردت هذه الألفاظ في معرض الوصف لإنصاف القلة القليلة المؤمنة من بني إســـرائيل، والقرآن الكريم يولي عناية خاصة لهذه الفئة رغم قلتها، إكراماً لثباتها على الإيمـــان، واتباعهـــا للأنبياء منذ موسى υ وحتى نبينا محمد ρ.

وقد أشرنا من قبل إلى إيمان بعض أهل الكتاب، والتحاقهم بصف المســـلمين، كعبـــد الله ابن سلام، وغيره من اليهود.

وردت ألفاظ الوصف للقلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، رغم قلتها، واضحة المعالم، محدِّدة للسلوك، متضمنة سمات أهل الحق على مرّ التاريخ، فجاءت الكلمة الأساسية (الإيمـــان) بصيغ مختلفة، نحو: (يؤمنون، والمؤمنون)، لتقف موقف المواجهة مع نموذج الباطل الذي تمثله الكثرة الغالبة من بني إسرائيل، جاءت الكلمة الأساسية أو المركزية متضمنة للدلالات الهامشـــية بشتى صورها وأشكالها، كوصف القلة القليلة المؤمنة بـــ(العلم)، وما يشير إليه من الحقائق التي لا شك معها، فهو من أهم سمات هذه القلة، إذ لا يكتمل الإيمان أو يتحقق مفهومه الكامل ما لـــم يعلم الإنسان حقيقة هذا المنهج أو التصور، وكذلك الأوصاف: الصبر، والصـــلاح، والتقـــوى، والعدل، كلها أوصاف جديرة أن تكون جزءاً من هذا الإيمان.

---

[1] انظر، **سورة البقرة:** 46. 249. **وآل عمران:** 110. 113. 114. **والنساء:** 162. **والمائدة:** 66. 138. 168...

من هنا نلاحظ أن الوصف (الإيمان) جامع لكلّ الأوصاف الأخرى، كـ: العلم، والصبر، والصلاح، والتقوى، والعدل، وغيرها من الأوصاف، فالعلاقة بين اللفظ (الإيمان) والألفاظ (العلم، والصبر،...) علاقة اشتمال وتضمين، وإذا رمزنا إلى الكلمة الأساسية (الإيمان) بالرمز (أ)، وإلى الكلمات الهامشية بالرمز (ب)، نستطيع أن نقول: إن الدلالة (ب) متضمنة للدلالة (أ)، وأما الدلالة (أ) فهي أعلى في التقسيم التصنيفي أو التفريعي لهذه الألفاظ.

هذا التدرج في التحليل الدلاليّ يدفعنا للإشارة إلى أن التضاد هو العلاقة الحتمية لهذين النمطين من الألفاظ الوصفية، فلنلاحظ:

نموذج (أ)		نموذج (ب)
• **تجهلون**	←	**يعلمون**
• **الكافرون**	←	**المؤمنون**
• **لا يعلمون**	←	**الراسخون في العلم**
• **الظلم**	←	**العدل**
• **أمة ظالمة**	←	**أمة مقتصدة**
• **شر البرية**	←	**خير البرية**

يبدو أن العلاقة بين هذين النموذجين تقوم على التضاد المباشر، كـ (الكافرون) و(المؤمنون)، و(يظنون) و(تجهلون) وكذلك أيضاً تقوم في بعض جوانبها على التخالف، وهو التضاد في المعنى، نحو: (أمة ظالمة)، و(أمة مقتصدة)؛ ذلك أن التضاد بينهما يكون بين (ظالمة) و(عادلة)، لكنه أورد الاقتصاد بمعنى العدل في الحكم على الأشياء.

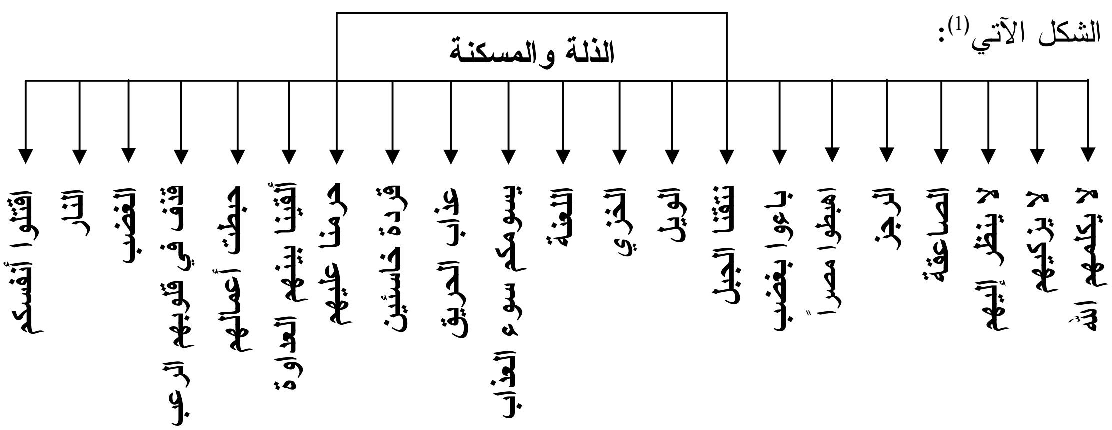
المبحث الثالث: حقل ألفاظ الجزاء

ليس غريباً أن نسمي هذا الحقل الدلالي باسم حقل ألفاظ الجزاء؛ ذلك أن السلوك يستدعي وصفاً، والوصف بدوره يستدعي جزاء يتمثل بالنعمة أو النقمة.

ولغة الخطاب جاءت مطابقة للوقائع، لا سيما أنها تعبّر عن سلسلة تاريخية ممتدة منذ زمن بعيد، تتمثل في حياة بني إسرائيل، فلا بد أن تكون موافقة للحال، متضمنة أحواله وأطواره بما يتوافق ومراحل النمو فيه.

عمدت لغة الخطاب إلى استخدام مجموعة من الألفاظ الدالة على الجزاء، وجاءت في نموذجين متقابلين، كنماذج السلوك والوصف.

ويمكن إجمال ألفاظ الجزاء الواردة، نتيجة عصيان بني إسرائيل وتلكئهم وتمردهم، في الشكل الآتي[1]:



من الملاحظ أن ألفاظ الجزاء الواردة في لغة الخطاب جاءت على نحو متسق مع الأحداث، فقسم من هذه الألفاظ وقعت أحداثها، وقسم آخر يتجدد بتجدد السلوك، وقسم أخير أعده الله يوم القيامة للمخالفين من بني إسرائيل، ولكل من يسلك سلوكهم أو يقتفي أثرهم.

وهنا مكمن التجدد في النص القرآني، ودليل ديمومته وصلاحه لكل زمان ومكان؛ ذلك أنّ سرد مثل هذه الألفاظ الدالة على الجزاء، ليس قاصراً على بني إسرائيل فحسب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وألوان الجزاء هذه متعلقة بطبيعة السلوك والمنهج، فهي واقعة في كل أمة تتصف بصفات المخالفين من بني إسرائيل.

---

[1] انظر، **سورة البقرة:** 54. 59. 61. 63. 65. 79. 85. 89. و**آل عمران:** 77. 112. 181. و**النساء:** 153. 154. 160. و**المائدة:** 13. 41. 60. 64. و**الأنعام:** 146. و**الأعراف:** 141. 147.

وردت ألفاظ الجزاء في معظمها، لا سيما تلك التي جاءت نتيجة لسلوك محدد سلكه بنو إسرائيل منذ القدم بصيغة الفعل الماضي، المضاف إلى ضمير المتكلم الدال على الجماعة (نـــا)، نحو: **(أرسلنا عليهم رجزاً، نتقنا، رفعنا، لعناهم، جعلنا، ألقينا بينهم العداوة، حرمنـــا علـــيهم، وغيرها من الألفـــاظ)**، ولعل ذلك يتسق وطبيعة الأحداث؛ فسلوك بني إسرائيل المتسـم بـــالكفر والحمق والتجرؤ على الله يستدعي أسلوباً مقابلاً ذا وقع شديد، وأثر رهيب دال علـــى قـــوة الله وجبروته، وهنا عمدت لغة الخطاب إلى ضمير الجماعة (نا)، رغم أن المجازي واحد وهـــو الله الذي لا إله إلا هو.

أما ألفاظ الجزاء التي ورد ذكرها في سياق القصة والحـــوار، فجـــاءت فـــي معظمهـــا بأسلوب الأمر، نحو : **(اقتلوا أنفسكم، اهبطوا مصراً، ذوقوا عذاب الحريق، وغير ذلـــك مـــن الألفاظ)**، ولعلّ هذا الأسلوب يستدعيه السياق؛ فالقصة إنما هي مجموعة مـــن الأحـــداث تتمثـــل للقارئ عندما يقف على أحداثها وأزمانها وشخصياتها، وأسلوب الأمر يستدعيه عنصر الحـــوار المميِّز للعمل القصصي.

في حين نجد ألفاظ الجزاء الواردة في سرد وقائع الأحداث لبني إسرائيل قاصرة علـــى صيغة الماضي، نحو **(باءوا بغضب، أخذتهم الصاعقة، ضربت عليهم الذلة، حبطت أعمـــالهم، قذف في قلوبهم الرعب، وغيرها من الألفاظ)**، ولعل مجيئها بصيغة الماضي يسهم في توظيفهـــا لتحديد الدلالة الزمنية للفعل، فهي أحداث وقعت ومضى عليها مدد طويلة، وجاء القرآن ليســـرد وقائعها، وليس ثمة صيغة أفضل في التعبير عن هذا المضمون من صيغة الماضي.

وتجدر الإشارة إلى أن ألفاظ الجزاء الدالة على التجـــدد والاســـتقبال جـــاءت بصـــيغة المضارع المتسق وطبيعة هذه الدلالة، فلنلاحظ اللفظ **(يسومهم)**، وسوم العذاب لبنـــي إســـرائيل متعلق بأحوالهم وأعمالهم، فالله Y قد تأذن بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلـــى يـــوم القيامة ما لم يحفظوا حدوده ويقيموا شرعه.

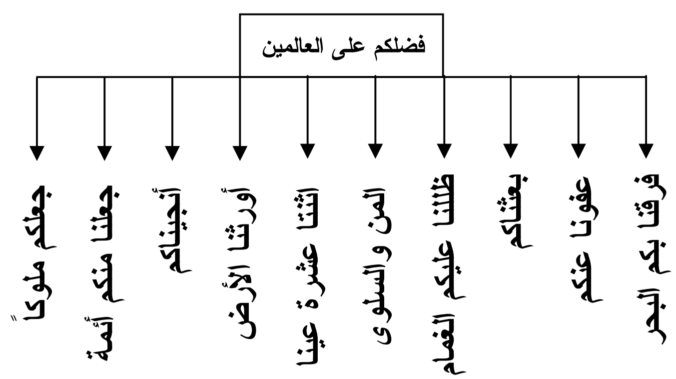
جاء اللفظ **(يسومهم)** بصيغة المضارع الدال على التجدد، وهو من الألفاظ الدالة علـــى الجزاء غير المقتصر على زمان محدد أو مكان معين. من هنا ندرك القيمة الوظيفية للفعل فـــي التعبير عن الدلالة الجزائية في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل.

وأياً كان الأمر، فإنّ ألفاظ الجزاء وردت في معظمهـا مشـتملة علـى دلالـة (**الذلّـة والمسكنة**)، المسبوقة بالفعل المبني للمجهول (ضربت)، والضرب إحاطـة واشـتمال، فالذلـة أحاطت بهم واشتملت عليهم، كالقبة التي لزمتهم، وأحاطت بهم من كل جانب، واليهود صاغرون أذلاء أهل ذلة ومسكنة[1]، ولعلّ هذا الاشتمال يُظهر العلاقة بين اللفظ (الذلة والمسـكنة) وبـين الألفاظ الأخرى، فهي علاقة قائمة على الاشتمال والتضمين، فالجزاء: لا يكلمهم الله، لا يزكيهم، لا ينظر إليهم، أخذتهم الصاعقة، الويل، سوء العذاب، اللعنة، ... إلخ، ماثل في دلالته مع دلالـة (الذلة والمسكنة) وعامل رئيس من عوامل تشكل هذه القبة التي ضـربت علـيهم مـن الذلـة والمسكنة والهوان.

من هنا يمكن القول: إن الدلالة (الذلة والمسكنة) تشكل الدلالة الأساسـية أو المركزيـة لألفاظ الجزاء للنموذج (أ)، في حين تكون الدلالات الأخرى هامشية إذا ما قورنت بالجزاء (الذلة والمسكنة).

والعلاقة بين مجموعة الألفاظ كلها، الأساسية منها والهامشية، علاقة تضمين واشـتمال، فالدلالة الأساسية مشتملة على كل معاني الألفاظ الهامشية الأخرى.

وثمة ألفاظ أخرى دالة على الجزاء في بني إسـرائيل، نتيجـة الطاعـة لأمـر الله Y، والاستجابة للنبي الكريم υ، يمكن إجمالها في الشكل الآتي[2]:



[1] انظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص174.

[2] انظر، **سورة البقرة:** 47. 50. 52. 56. 57. و**المائدة:** 20. و**الأعراف:** 137. 160. و**الشعراء:** 59. 65. و**السجدة:** 24. و**غافر:** 53. و**الدخان:** 32. و**الجاثية:** 16.

من الملاحظ أن كل الألفاظ الدالة على النعم في بني إسرائيل جاءت مسبوقة أو متضمنة للزمن الماضي من خلال استخدام الفعل الماضي، نحو: (**بعثناكم، فرقنا، عفونا، ظللنا، أنزلنا، انفجرت، أورثنا...**)، وألفاظ الجزاء دالة على أحداث وقعت سابقاً، ومضى على وقوعها قروناً عدة، فجاء القرآن بصيغة الماضي، التي تتفق والمحور الزمني لهذه الأحداث.

واتصال ضمير الجماعة (نا) بهذه الأفعال بالغ في الأهمية؛ لما يفيده هذا الضمير من التعظيم، فالله هو المنعم وحده، وهو المنتقم وحده، فهو عظيم في إجزال نعمته كما هو عظيم في إظهار قوته وبأسه.

تتمحور هذه الألفاظ حول معنى واحد من معانيه، وهو التفضيل والاختيار، والله Y اختار بني إسرائيل لحمل الرسالة، وحفظ الأمانة، وفضّلهم على أهل زمانهم؛ لأنهم كانوا هم الموحدين آنذاك، وكانوا امتداداً للأمة المسلمة من يعقوب وإسحاق ومن قبلهما إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، لكنهم رفضوا هذا الاختيار فتبوءوا من الله منزلة الذلة والصغار.

ولعل الألفاظ الأخرى الدالة على النعم في بني إسرائيل تتضمن هذا المعنى، وهو معنى التفضيل والاختيار، فلنلاحظ الألفاظ (**فرَقنا، بعثناكم، أنزلنا، ظللنا، انفجرت، أنجيناكم، جعلناكم ملوكاً**) وغيرها من الألفاظ الدالة على الجزاء، فهي تتمحور حول مجموعة من النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، وهي نعم مادية أحاطت بالقوم من كل جانب، وهي نتاج واضح للجزاء الأساس في بني إسرائيل وهو التفضيل والاختيار (وفضّلناكم).

من هنا يظهر لنا بأن الكلمة (**فضّلناكم**) هي الكلمة الأساسية أو المركزية في هذا الحقل من الألفاظ، ذلك أنها الكلمة الجلية التي تضمّ كل الألفاظ الأخرى ضمن ما يسمى بالألفاظ الهامشية، فالعلاقة بين هذه الألفاظ علاقة اشتمال وتضمين، كالعلاقات السابقة؛ فالكلمة الأساسية متضمنة لألفاظ الكلمات الهامشية كلها، فإذا رمزنا إلى الجزاء (فضلناكم) بالرمز (أ)، ورمزنا للألفاظ الهامشية الأخرى بالرمز (ب)، نستطيع أن نقول: إن الدلالة (ب) متضمنة للدلالة (أ)، وأما الدلالة (أ) فهي أعلى في التقسيم التصنيفي أو التفريعي لهذه الألفاظ.

أما العلاقة بين ألفاظ الجزاء في الحقل الدلاليّ بأسره، فهي علاقة قائمة على التضاد في المعنى وهو ما يسمى بـــ" التخالف "[1]، فلنلاحظ مثلاً:

نموذج (أ)		نموذج (ب)
• **الذلة والمسكنة**	←	**فضلناكم**
• **اقتلوا أنفسكم**	←	**بعثناكم من بعد موتكم**
• **حرمنا عليهم طيبات**	←	**أنزلنا عليهم المن والسلوى**
• **محرمة عليهم**	←	**أورثناها بني إسرائيل**
• **أخذتهم الصاعقة**	←	**ظللنا عليهم الغمام**
• **موتوا**	←	**بعثناكم**

ولعل انتقاء بعض هذه الألفاظ الدالة على التضاد من كلا النموذجين، لا يعني أن تكون علاقة التضاد واضحة ومحددة، لا سيما أن هذه الألفاظ لا يمكن دراستها بمعزل عن السياق.

وهذا ما يمكن أن يدخل ضمن ما يسمى بالتضاد المتدرج، أو ما يمكن أن نسميه بتضاد الشخصية أو تنافرها.

نخلص إلى أن البحث في دلالة الألفاظ، من وجهة نظر الحقول الدلالية، يسعفنا في الكشف عن العلاقات الكامنة بين هذه الألفاظ، ويميّز لنا بعض الدلالات الأساسية التي تغدو مميزاً من مميزات هذا الحقل أو ذاك، ولعلّ هذا ما وجدناه حياً واضحاً في هذه الدراسة.

وجمع الألفاظ الواردة في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل ضمن حقول دلالية، يسهم في كشف جوانب هذه الشخصية، ويمعن في وصفها، على حقيقتها، وقد ظهرت هذه الألفاظ لتشكل نموذجين من نماذج الصراع بين الحق والباطل، " إنه الصراع بين الشكر والجحود، والذكر والغفلة، والتواضع لله والجرأة عليه، وإسلام الإيمان ووقاحة المراء، والتضحية من أجل إقامة الدين وتحقيق مبادئه، والأنانية من أجل الذات وتحقيق مكاسب النفس، إنه الصراع من أجل العزة، والقعود إيثاراً للعافية "[2].

---

[1] انظر، بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص109.

[2] الطويل، السيد رزق: **بنو إسرائيل تاريخ وتحقيق**. د.ط. القاهرة: دار المعارف. 1980. ص29.

لذا نجد أن الألفاظ، في مجملها، انحصرت ضمن ثلاثة حقول: سلوك ووصف وجــزاء، ولعل وجود كل حقل من هذه الحقول يستدعي وجود الآخر، وهو ما يسمى بعلاقة البدء بالعاقبة، أو علاقة التداعي[1]، فلنلاحظ مثلاً:

ألفاظ سلوك		**ألفاظ وصف**		**ألفاظ جزاء**
(أ)		**(ب)**		**(ج)**
• **أصلحوا**	←	**الصالحين**	←	**أورثناهم الأرض**
• **يسعون فساداً**	←	**المفسدين**	←	**التيه**
• **يحرفون**	←	**الكفر**	←	**لعنهم الله**
• **يفترون**	←	**الكاذبون**	←	**حبطت أعمالهم**
• **يقتلون**	←	**الظالمون**	←	**حرمنا عليهم طيبات**

وهنا نجد أنفسنا أمام نموذجين من نماذج الشخصية القرآنية، شخصية الباطل بســلوكها وسماتها وجزائها المرتقب من الله تعالى، وشخصية الحق بسلوكها وسماتها وجزائها المرتقب من الله تعالى، ويبقى للمتلقي حرية الاختيار، وصدق الله إذ يقول: (**وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ**) **{البلد: 10}**.

لا شك أن دراسة الألفاظ ضمن نظرية الحقول الدلالية تسهم في إبراز قيمة كل لفظ من خلال موقعه وعلاقاته مع الألفاظ الأخرى؛ إذ إن المفردات كالجسم الإنسانيّ يتكون من: قلــب، وكبد، و....، وهي تعمل ضمن نسق معين كعمل جسم الإنسان.[2]

---

[1] انظر، عبد الجليل، منقور: **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**. د.ط. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. 2001. ص80. وعزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. ص45.

[2] انظر، أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**. ص226-228.

الفصل الثالث:

التحـــــليل التركيبـــــــــــــي

للغة الخطـــــــــــاب القرآني في بني إســــــــــــرائيل

ويشمل:

مدخل..

المبحث الأول: الأساليب الإنشائية الطلبية

المبحث الثاني: دلالة السياق

أولاً: أثر السياق في تخير الألفاظ

ثانياً: أثر السياق في تخير الاسم والفعل

ثالثاً: أثر السياق في تخير صيغة الفعل الماضي

رابعاً: أثر السياق في تخير المشتق

خامساً: أثر السياق في تخير صيغة الجمع

سادساً: سياقات الذكر والحذف

سابعاً: سياقات التقديم والتأخير

ثامناً: سياقات التعريف والتنكير

المبحث الثالث: الالتفات

المبحث الرابع: التعريض

مدخل

يشكل التحليل التركيبيّ للغة الخطاب محوراً رئيساً من محاور الدراسة الأسلوبية والدلالية؛ إذ يعد من أهمّ مستويات التحليل اللغوي للنصّ الأدبيّ، والأسلوبية بدورها تُعنى بهذا النوع من التحليل للوقوف على أهم الخصائص المميِّزة لهذا النص أو ذاك.[1]

والتحليل التركيبيّ في الدراسة الأسلوبية يتطلب دراسة الأساليب الإنشائية، والجمل من حيث ترتيبها من تقديم وتأخير، ودراسة الصيغ الفعلية وأزمانها، والوقوف على عناصر الجملة وأجزائها ومبادئ الاختيار فيها، مما يشكل انزياحاً عن المألوف، ثمّ دراسة الجملة، والفقرة، وصولاً إلى دراسة النص بأكمله، فنقطة البدء كما يرى **(عبد المطلب)** " ترتكز على الجزئيات وصولاً إلى كلية العمل الأدبيّ "[2].

ولا يعني ذلك أن تتناول الدراسة الأسلوبية والدلالية كلّ مظاهر التعبير في لغة الخطاب، بل لا بد أن تقتصر على دراسة الظاهرة المتكررة في جزء من النصّ أو في النص كله، أو دراسة الظاهرة التي تشكل خياراً من خيارات التعبير.

وتجدر الإشارة إلى أن السياق يتبوّأ منزلة عظيمة في التحليل التركيبيّ؛ ذلك أنّ السياق لا يقتصر على اللفظة المفردة، بل يتجاوزها ليشمل التركيب، وصولاً إلى النص الأدبي كله، ولا شك أنّ دراسة التركيب من خلال السياق يثري البحث الأسلوبيّ والدلاليّ، ويزيد من حيوية الدراسة وترابطها وتسلسلها، لا سيما أنّ لغة الخطاب تعجّ بالمتشابه اللفظيّ الذي يحمل في كل موضع من مواضع وروده دلالات إضافية، ومعاني بلاغية، يمكن استخلاصها من السياق.

نبحث في هذا الفصل أساليب الإنشاء الطلبيّ، وما يفيده كل أسلوب من معان بلاغية، تضفي على النص قيمة جمالية وفنية رائعة.

ثم نتناول دلالة السياق وأثره في تخيّر الألفاظ، والجمل، والصيغ على اختلاف أنواعها وأشكالها. ونبحث في سياقات الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، لنقوم بعد ذلك بتحليل أهم الظواهر الأسلوبية في لغة الخطاب، كظاهرتي الالتفات والتعريض.

---

[1] انظر، فضل، صلاح: **علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته**. ط(2). القاهرة. مؤسسة المختار. 1998. ص165-166.

[2] عبد المطلب، محمد: **البلاغة والأسلوبية**. ط(1). مصر: الشركة المصرية للنشر. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. 1994. ص207. وانظر، الراجحي، عبده: ***علم اللغة والنقد الأدبي/ علم الأسلوب***. **مجلة فصول**. مج(1). ع2/ يناير/ 1981. ص119.

المبحث الأول: أساليب الإنشاء الطلبي

تعددت أساليب الإنشاء الطلبي في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، وانحصرت في أربعة أساليب، وهي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء. وخرجت في مجملها عن معانيها التي وضعت لها إلى معان بلاغية وفنية وجمالية، تسهم في توجيه الدلالة بما يحقق الغرض الرئيس المتوخى في الآيات كلها.

أولاً: أسلوب الأمر

يعدّ أسلوب الأمر واحداً من الأساليب البلاغية المباشرة التي تعنى الدراسة الأسلوبية والدلالية بتحليلها والوقوف على أغراضها ومراميها.[1]

ويأتي الأمر إما بمعناه الأصليّ، وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وإما أن يتحول من أصل وظيفته إلى معنى بلاغي يتمّ تحديده من السياق.[2]

تعجّ لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بهذا النوع من الصيغ والتراكيب، التي تتخذ من الأمر أسلوباً لها، لتحقق معاني إضافية ودلالات بلاغية أخرى، يظهر ذلك من خلال لغة الخطاب، لا سيما تلك التي وردت على لسان موسى υ تجاه قومه، أو العكس.

وغالباً ما يبنى أسلوب الأمر في لغة الخطاب على طرفين: الأول يمثله الطرف الأدنى وهم بنو إسرائيل على مرّ العصور، والثاني يمثله خليفة الله على الأرض، سواء أكان نبياً مرسلاً أم مصلحاً خيّراً.

ولو فطن بنو إسرائيل لهذا المحدِّد المنطقيّ، لما أقدموا على سوء الأدب واللجاجة والكبر والعناد والكفر، وهذا ما يجعل لأسلوب الأمر أهمية بالغة في الدراسة الأسلوبية؛ ذلك أن هناك عدولاً واضحاً في لغة الخطاب نحو تحقيق معان إضافية تكشف عن البعد السلوكيّ لبني إسرائيل عبر العصور.

اقتصرت لغة الخطاب في بني إسرائيل على صيغة (فعل الأمر)، ولم ترد في صيغة أخرى، ووردت في أكثر من (70) موضعاً، توزعت – في أغلبها – على النحو الآتي:

---

[1] جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ترجمة: منذر عياشي. ط(2). حلب: دار الإنماء الحضاري. 1994. ص104.

[2] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور. ط(1). بيروت: دار الكتب العلمية. 1983. ص 318.

- خطاب من الله تعالى إلى بني إسرائيل. والعكس
- خطاب من موسى υ إلى بني إسرائيل. والعكس
- خطاب من محمد ρ إلى اليهود. والعكس
- خطاب بني إسرائيل بعضهم لبعض.

وخطاب المباشرة من الله تعالى لبني إسرائيل لم يأت في لغة الخطاب بوساطة موسى υ، كغيره من أفعال الأمر، وإنما أوردها الله مباشرة، كقوله: (يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ) {البقرة: 40}.

ورد هذا النوع من الأساليب في لغة الخطاب، لا سيما في سورة البقرة؛ ذلك أنها جاءت لتذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها الله عليهم، لعلهم يستجيبون أو يؤمنون، ولغة المباشرة من شأنها أن تكون أكثر تأثيراً بهم، وتذكيراً لهم، لا سيما أنها تخاطب اليهود المعاصرين للنبيّ ρ، في المدينة المنورة.

أما في السور الأخرى التي عمدت إلى التأريخ والتفصيل في أحداث بني إسرائيل كالأعراف مثلاً، أو التعنيف عليهم والدعوة إلى قتالهم والقصاص منهم كالمائدة وغيرها، فإننا نجد أن الأمر فيها يأتي على لسان موسى υ مشفوعاً بالصيغة الزمنية (وإذ).

من هنا يمكن القول: إن ما ورد من صيغة الأمر في خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، كان على حقيقته، وإنْ تضمّن معاني أخرى كالتهديد والوعيد، كقوله: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) {البقرة: 48}. أو النصح والإرشاد، كقوله: (أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ‌ۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ‌ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَـٰشِعِينَ) {البقرة:45-46}. أو التسخير، كقوله: (وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِى ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ) {البقرة 65}.

وإذا كان خطاب الله لبني إسرائيل يهدف إلى تذكيرهم بالنعم التي أنعمها على أسلافهم، فإن من المتوقع أن يستجيب القوم لهذا الأسلوب؛ لما يتضمنه من معاني التكريم والتفضيل، لكنّ القوم لم يلتفتوا إلى كل ذلك.

وكل ما ورد من أساليب الأمر المتضمِّن معنى الدعاء لم يكن إلا على لسان موسى υ، أو على لسان القلة القليلة المؤمنة منهم، كقولهم في حرب جالوت: (رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ) **{البقرة: 250}.**

يظهر لنا أن لغة الخطاب كانت ممعنة في توصيف الوضع العقديّ والسلوكيّ والنفسيّ لبني إسرائيل، فهم قوم يتّسمون بكل مظاهر الكبر واللجاجة والحمق والكفر، فكيف سيستجيبون لك يا محمد وهم لم يستجيبوا لمن أنعم عليهم بكل هذه النعم والخيرات؟!

أما أسلوب الأمر كما ورد على لسان خليفة الله في الأرض سواء أكان موسى υ أم غيره من الأنبياء والمصلحين، فقد غلب عليه طابع التدرج؛ إذ بدأ بأسلوب التلطف والنصح والإرشاد، كما يظهر في قوله تعالى: (ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) **{البقرة: 93}**، وقوله: (فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ) **{البقرة: 54}**، وقوله: (يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ) **{المائدة: 20}**، وغير ذلك.[1]

ثمّ يأخذ الأسلوب طابع التحفيز والإثارة، من خلال الإباحة والامتنان، نحو قوله:(كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ) **{الأعراف: 160}**. والإكرام، كقوله: (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ) **{المائدة: 21}.**

ولمّا لم يؤمن بنو إسرائيل إيماناً حقيقياً، أخذت لغة الخطاب طابع المحاججة والتكذيب والتبكيت والتعجيز، يظهر ذلك من خلال قوله: (وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} **{البقرة: 111}**[2].

ثمّ يأخذ أسلوب الأمر معنى إضافياً، وهو التعجيز، نحو قوله: (قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) **{البقرة: 94}**. ذلك أن تمني الموت ليس من سماتهم وأخلاقهم المألوفة، ولكنها من سمات الأبرار المقرّبين الذين يشتاقون إلى لقاء الله Y.[3]

---

[1] انظر، **سورة آل عمران:** 64. و**المائدة:** 21. 23. 72. و**الأعراف:** 128. 181. و**إبراهيم:** 6.

[2] انظر، **سورة آل عمران:** 93.

[3] انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.** مج(1). ج(1). ط(4). دمشق: دار الرشيد. بيروت: مؤسسة الإيمان. 1998. ص204.

إلى أن يأخذ الأمر طابع الإهانة والتحقير، نحــو قولــه: (يَـٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ) {البقـــــرة: 54}. وقولـــــه: (أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ) {البقرة: 61}. وقوله: (فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ) {طه: 97}.

ولعلّ استخدام صيغة الأمر على لسان موسى υ كما في (فَٱقۡتُلُوٓا) (ٱهۡبِطُوا) (فَٱذۡهَب) يعبّر عن الحالة الوجدانية التي ألمّت به υ. وذلك ملمح مهمّ من ملامح الدراسة الأســلوبية الحديثــة، يشير إليه **(بالي)** في حديثه عن أثر الصيغة في التعبير عن الحالة الوجدانية.[1]

ولمّا لم يستجب بنو إسرائيل لكل هذه الأساليب، عمد موسى υ إلى ربه يدعوه، والدعاء يفيد الطلب على سبيل التضرع[2]، نحو قوله: (رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ) {المائدة: 25}.

أما صيغة الأمر الواردة على لسان بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، فكانت واضحة جلية تعجّ بمظاهر الكبر واللجاجة والكفر والعناد، ولم تأخذ طابع التــدرج كمــا فــي أســلوب الأنبيــاء والمصلحين، وهي سمة واضحة في خطاب بني إسرائيل مع كل الأنبياء وليست مقتصرة علـــى موسى υ، انظر إلى صيغة الأمر في لوحة البقرة، وذلك قــولهم: (ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ) {البقــرة: 68}. فهم يطلبون من موسى υ أن يدعو ربه، وكأن حائلاً بينهم وبين الله، وصيغة (ادع) تعجّ بمظاهر الكبر واللجاجة، وكأنهم يخاطبون إنساناً عادياً، ولا يخاطبون نبياً مرسلاً!

ولعلّ تكرار هذه الصيغة في ثلاث مرات متتالية يؤكد هذا المعلم من معـــالم الشخصـــية الإسرائيلية، إنها سمة الكبر التي تتصف بها هذه الشخصية، وكيف لا؟! وهي الشخصـــية التـــي تجرأت على الله، وطلبت رؤيته جهاراً؟! يظهر ذلك من خلال صيغة الأمر (أرنا) فـــي قـــولهم لموسى υ: (أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ) {النساء: 153}.

---

[1] انظر، جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ص54.

[2] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص319.

إن لغة الخطاب تتخذ من صيغة الأمر سبيلاً أسلوبياً لتعرض هذه الشخصية بكل ما تتسم به من الضلال والكفر والفجور، فبعد كل المعجزات التي عاشها بنو إسرائيل لحظــة بلحظــة، يطلبون من موسى υ أن يجعل لهم إلهاً معبوداً من دون الله، وقولهم: (ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ) {الأعراف: 138}. واستخدام صيغة الأمر (ٱجۡعَل) ممعن فــي الدقــة؛ إذ إنهــم يطلبــون المعصية من نبيهم. كيف يكون ذلك؟! وفي هذا التخير لصيغة الفعل دليل على ســفه عقــولهم، وبلادة تفكيرهم، وسوء عقيدتهم، وفساد إيمانهم.[1]

وصيغة الأمر تؤكد هذا المعنى من خلال لوحة دخول الأرض المقدسة، يظهر ذلك فــي قولهم: (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ) {المائدة: 24}.

انظر إلى صيغة الأمر (فَٱذۡهَبۡ)وما فيها من سوء أدب مع نبي الله موسى υ، وصــيغة الأمر (فَقَٰتِلا) وما فيها من تجسيم للخالق جلّ في علاه، لعلّ هاتين الصيغتين تظهران لنا قــبح هذه الألوان التي تشكلت من خلالها صورة الإسرائيليّ في زمن موسى υ.

وهي ذاتها مع الأنبياء من بعد موسى υ، فعندما طلبوا من نبيّ لهم أن يبعث لهم ملكــاً يقودهم للقتال، قالوا: (ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا) {البقرة:246}. وقالوا للنبي محمد ρ: (وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا) {النساء: 46}. يريدون بذلك شتيمته، والدعاء عليه بالصمم.[2]

وبقولهم (راعنا)، يقصدون رميه ρ بالرعونة، ويوهمون أنهــم يقولــون (راعنــا)، أي: احفظنا. ورميه بذلك لما يتوهمونه من ميل فيه، يقال: الرّعن، هو أنف الجبل، لما فيه من الميل.[3]

أما خطاب بني إسرائيل تجاه بعضهم لبعض، فكان على نمــوذجين متقــابلين، نمــوذج الشخصية السلبية التي ظهرت في قوله: (وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ) {البقرة: 135}.

ونموذج الشخصية الإيجابية التي تحضّ القوم على الإقدام والتضحية في سبيل الله، يظهر ذلــك من خلال قوله تعــالى: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) {المائدة: 23}.

---

[1] انظر، طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ص498.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(3). ص376.

[3] انظر، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص204.

لا شك أن الوقوف على الأسلوب القرآنيّ في لغة الخطاب، وكيفية الانتفاع بصيغة الأمر أو غيرها من الصيغ في الكشف عن كل الجوانب المحيطة بالمعنى، يسهم في تشكيل طبقة اجتماعية تعجّ بمظاهر الكبر والكفر واللجاجة والخنوع.

ولعل هذا النوع من الاستدعاء يشكل محوراً رئيساً من محاور الدراسة الأسلوبية، وهو ما يسميه الأسلوبيون بدلالة التعبير من خلال الاستدعاء.[(1)]

ثانياً: النهي

الأصل في النهي أن يكون لطلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويؤتى به لتحقيق معان بلاغية يمكن إدراكها من خلال السياق.[(2)]

وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بـ (لا) الناهية الجازمة، وردت في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل في أكثر من (15) موضعاً، على النحو الآتي:

- نهي من الله Y أو من نبيه υ لبني إسرائيل.
- نهي من اليهود بعضهم لبعض.
- نهي من الله Y لموسى υ ومحمد ρ.

يشكل النهي من الله تعالى المحور الرئيس في هذا الأسلوب، وغالباً ما يكون على حقيقته، رغم ما يتضمنه من معان بلاغية أخرى، كالنصح والإرشاد، كما في قوله: (وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) **{البقرة: 42}**. وقوله: (لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ) **{المائدة: 77}**. أو التحذير والتهديد، كقوله: (لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ) **{النساء: 154}**.

ويغلب على صيغة النهي طابع التلطف والأناة، لا سيما تلك التي جاءت على لسان موسى υ، ولعل استخدام واو الجماعة يسهم في تعزيز هذا المعنى، كقوله: (وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ) **{المائدة: 21}**.[(3)]

[(1)] انظر، جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ص56. 65.

[(2)] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص320.

[(3)] انظر، **سورة البقرة**: 41. 42. 60. و**النساء**: 154. 171. و**المائدة**:44. 77. و**طه**: 81.

أما صيغة النهي من بني إسرائيل تجاه بعضهم لبعض، فلم تأت إلا في موضع واحد يظهر طبيعة الشخصية الإسرائيلية، التي تتميز بإصرارها على الكفر ورفضها للآخر، نحو قولهم: (وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ) {آل عمران: 73}.

ولمّا لم ينتفع بنو إسرائيل بكل ألوان النصح والإرشاد والتحذير والتهديد، أخذت لغة الخطاب تتجه نحو تيئيس النبي الكريم υ من إيمان هؤلاء، كما يظهر من خطاب الله لموسى υ: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) {المائدة: 26}. وخطابه للنبي ρ: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) {المائدة: 68}.

وتجدر الإشارة إلى أن التيئيس لم يرد إلا في سورة المائدة، وهي آخر ما نزل من القرآن في بني إسرائيل؛ ذلك أنها أخذت تعنف على القوم، وتحضّ المسلمين على قتالهم، وطردهم خارج المدينة.

ثالثاً: أسلوب الاستفهام

يشكل الاستفهام أسلوباً رئيساً من أساليب لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل؛ وتكمن أهميته في أنه ينقلنا إلى مشهد حيّ يدركه المتلقي من خلال مجموعة من المعاني البلاغية التي تسهم في إبراز جانب من الجوانب الفنية والجمالية لذلك المشهد.

والاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، يستخدم على حقيقته في مواضع معينة، أو لتحقيق أغراض أخرى ومعان بلاغية متعددة. وأدواته: حرفا الهمزة وهل، ومجموعة من الأسماء هي: ما، ومَن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيان.[1]

والاستفهام كونه رسالة خطابية يتطلب وجود طرفين رئيسين، هما: المرسل والمستقبل، وبهذا الفهم الأسلوبيّ والدلاليّ للتعبير القرآنيّ، فإن لغة الخطاب توزعت في أسلوب الاستفهام على النحو الآتي:

- خطاب الله تعالى إلى بني إسرائيل. وفي هذا النوع من الأساليب خرج الاستفهام عن حقيقته ليؤدي معاني بلاغية أخرى.
- خطاب النبوة إلى بني إسرائيل. لا سيما في: موسى υ، والنبي محمد ρ.

---

[1] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص308-309.

- خطاب بني إسرائيل تجاه أنبيائهم.
- خطاب بني إسرائيل تجاه بعضهم لبعض.

خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لمعان أخرى يتضمنها الموقف السياقي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في أكثر من **(70)** موضعاً.

ففي خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، خرج الاستفهام بمجمله إلى معان بلاغية، يشكل الأسلوب الإنكاريّ المحور الرئيس فيها. كقوله: (**أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم؟**) **{البقرة: 100}**. ولم ترد هذه الصيغة (**أَوَكُلَّمَا**) إلا في بني إسرائيل، وهي صيغة تستخدم لتأكيد الإنكار؛ ذلك أن نبذ العهد يكون أكثر قبحاً بعد العقد، وأن الاستكبار يكون أكثر قبحاً في حضرة النبي الكريم ρ.[1]

وغالباً ما يتضمن الإنكار معاني إضافية أخرى، كالإنكار المشوب بالتوبيخ والتقريع والتعجب، نحو قوله: (**أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ**)؟ **{البقرة: 44}**. فقد ورد أن أحباراً من اليهود كانوا " يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ρ ولا يتبعونه "[2].

وكذلك الإنكار المشوب بالتقريع، نحو قوله: (**وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلاً جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلاً**)؟ **{الأعراف: 148}**.[3]

وهنا تأخذ لغة الخطاب طابع الأمر من خلال الاستفهام، كقوله: (**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡ**)؟ **{آل عمران: 20}**. أي: أسلموا، ولعل ذلك يتضمن معنى التوبيخ والتنديد؛ فهم أهل كتاب سماوي، كان الأجدر منهم أن يتبعوا النبي محمد ρ، لأنهم يعرفون نعته ووصفه.[4] يقول **(الرازي)**: " إنما جاء بالأمر على صورة الاستفهام، لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة، وهي التعبير

---

[1] انظر، فوده، عبد العليم السيد: **أساليب الاستفهام في القرآن**. د.ط. القاهرة: مؤسسة دار الشعب. د.ت. ص22–23.

[2] الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص161.

[3] انظر، **سورة البقرة**: 85. 87. 91. 108. 133. و**النساء**: 53, و**المائدة**: 74. 75. و**الأعراف**: 169. و**التوبة**: 30.

[4] انظر، يوسف، عبد الكريم محمود: **أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه**. ط(1). دمشق: مطبعة الشام. د.ت. ص28.

بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف، لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف، بل الحال يقبل. ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان، هل فهمتها؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم "[1].

وأياً كان الأمر، فإنّ بني إسرائيل أنكروا نبوته ρ، وأخذوا يتهافتون على أعراض الدنيا، ويقولون سيُغفر لنا، ويؤولون الكتاب بما يحقق رغباتهم الوضيعة، وهنا تتجه لغة الخطاب إلى أسلوب الاستفهام التقريري، نحو قوله تعالى: (**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**)؟ {**الأعراف: 169**}.[2]

وغالباً ما تضمن التقرير معاني إضافية، كالتعجب والحثّ، كقوله: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ**)؟! {**النساء: 60**}. والتقرير المتضمن معنى التحذير، كما في قوله: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ**)؟ {**النساء: 44**}.[3]

ويتجه الأسلوب الخطابي من خلال الاستفهام إلى معنى التعجب، كقوله: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ**)؟! {**آل عمران: 23**}. والتعجيب هنا للنبي محمد ρ من فعل أولئك الذين يبدّلون كلام الله بما يتوافق وأهدافهم ورغباتهم.

وفي هذا النوع من الأساليب قيمة تربوية، تهدف لغة الخطاب إلى تعميقها في نفوس المسلمين، ذلك أن الخطاب، وإنْ كان في بني إسرائيل، إلا أنه يتضمن معنى التحذير للأمة المسلمة من الاتصاف بصفات بني إسرائيل، والتخلّق بأخلاقهم الوضيعة.

يظهر ذلك من خلال أسلوب التعجب المتضمّن معنى التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى: (**أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**) {**المائدة: 76**}.[4]

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(7). ص213.

[2] انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(3). ج(9). ص626.

[3] انظر أيضاً، **سورة البقرة**: 77. 80.

[4] انظر أيضاً، **سورة آل عمران**: 66. **والمائدة**:43. 75.

ثمّ يأخذ الخطاب بعداً إضافياً يتضمن معنى التهويل، كما في قوله: (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) {آل عمران: 25}. أي كيف حالهم؟ وهو " استعظام لما أعدّ الله لهم. وتهويل لهم. وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه "[1].

ومنه ما يتضمن معنى التهديد والوعيد، كما في قولــه: (فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) {النساء: 62}.

ولكنّ بني إسرائيل لم يستجيبوا لله Y، بل أنكروا ربوبيته، وادعوا بعد كل ذلك أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم بمنأى عن النار، فهي لن تصيبهم! خابوا وخسروا. ولهذا نجد لغة الخطــاب تعمد إلى الاستفهام التوبيخيّ، كقولـــه تعـــالى: (أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) {البقرة: 80}. والتهكميّ ، كما في قولـــه: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) {المائدة: 60}.

وهذه البشرى الأليمة لأولئك القوم، لو كانوا يفقهون، ما كانت إلا نتيجة لسلوكهم وبغيهم وإفسادهم في الأرض، يظهر ذلك من خلال الاستفهام المتضمّن معنى النفي، كما في قوله تعالى: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) {الأعراف: 147}.

يظهر لنا أن أسلوب الاستفهام، وما خرج إليه من معان بلاغية فـــي خطـــاب الله لبنـــي إسرائيل، جاء ليأخذ طابع التدرّج في الخطاب، فمن أسلوب الإنكار والتقرير والتعجب والأمـــر والتهويل والتهديد والوعيد وصولاً إلى التهكم والنفي.

ولعل ذلك يتفق ومراحل النمو في بني إسرائيل، ذلك أن القرآن نـــزل منجمـــاً حســـب الأحداث والوقائع، وغالباً ما تضمنت كل سورة من سوره القرآنية جملة من معـــاني الاســـتفهام الواردة في بني إسرائيل، ليسهم ذلك في تثبيت صفاتهم، وتحديد سلوكهم، والإشارة إلى غضـــب الله عليهم، لأنهم أهل عصيان وفجور.

---

[1] الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص377.

وليس بعيداً عن ذلك، ما يتصف به أسلوب الاستفهام في خطاب أنبياء الله تعالى لبني إسرائيل؛ إذ أخذ الاستفهام بعده الإنكاري، نحو قوله تعالى: (أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ)؟ {البقرة: 139}.[1]

وقد يتضمن الاستفهام الإنكاريّ معاني أخرى، كالتعجب مثلاً، نحو قوله: (لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)؟! {آل عمران: 65}. والإنكار مع النفي، كقوله: (هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ)؟ {المائدة: 59}. والإنكار مع التوبيخ، كقوله: (أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ)؟ {الأعراف: 140}.وقوله: (لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ) {الصف: 5}. والإنكار مع التقريع، كقوله: (أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)؟ {الأعراف: 150}.

ثمّ يأخذ الاستفهام بعده التقريري، كما في قوله: (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا)؟ {طه: 86}.[2] ولكنّ بني إسرائيل دأبوا على التمرد والعصيان، فيلجأ النبيّ موسى υ إلى مناجاة ربه، ليدرأ العذاب عن نفسه وعن المؤمنين.

يستخدم لهذا المعنى أسلوب الاستفهام الدال على الاستعطاف، والمتضمن معنى الدعاء، وذلك في قوله: (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ)؟ {الأعراف: 155}. أي: لا تهلكنا.[3]

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأسلوب لم يرد إلا على لسان موسى υ، وفي ذلك ملمح مهم من ملامح الشخصية الإسرائيلية، وهو أنها لا تلجأ إلى الله Y حتى في وقت الشدة، إنها طبيعة النفس الإنسانية المتمردة الطاغية المتكبرة.

وهذا ما يؤكده الاستفهام من خلال خطاب بني إسرائيل لأنبيائهم، نحو قول الحواريين لعيسى υ: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)؟ {المائدة: 112}. وما يتضمنه هذا الاستفهام من نفي المانع وليس لنفي الاستطاعة.[4]

---

[1] انظر، **سورة البقرة**: 140. **وآل عمران**: 70. 71. 99. 183. و**الصافات**: 125.

[2] انظر أيضاً، **سورة البقرة**: 246.

[3] انظر، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ص428.

[4] انظر، يوسف، عبد الكريم محمود: **أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه**. ص41.

ثم ها هم يتخذون من السخرية والاستهزاء وسيلة لهم في محاربة النبيّ محمــد ρ فـــي المدينة، يظهر ذلك من خلال الاستفهام، وذلك قولهم في شأن تحويل القبلة: (مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا) {البقرة: 142}. وليس غريباً عليهم ذلك، فقد رموا نبيهم موسى υ بالهزء، يظهر ذلك من خلال الاستفهام الاستنكاري، وذلك قولهم: (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا)؟ {البقرة: 67}.

أيّ حمق يتصف به هؤلاء القوم؟! وأيّ بلادة فكر سيطرت على عقــولهم وأحاسيســهم ووجدانهم؟! حتى إنهم لينهون المؤمنين منهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر، فهــم لا يكتفون بالمعصية والوقوف إلى جانب الباطل، بل ينكرون فعل الشخصية المؤمنة منهم، يظهــر ذلك من خلال الاستفهام المتضمن معنى الإنكار، فـــي قـــولهم: (لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا)؟ {الأعراف: 164}.

نلاحظ أن الاستفهام بالهمزة يمثل غالبية الاستفهام في بني إسرائيل، إذ جاء في أكثر من (40) موضعاً، يليه الاستفهام بــ(ما) في (14) موضعاً، يليه الاســتفهام بــــ(هــل) فـــي (5) مواضع، يليه الاستفهام بــ(كيف) في (3) مواضع، و(أنّى) فـــي (3) مواضـــع، و(مَـــن) فـــي موضعين اثنين، و(ماذا) في موضع واحد.

وليس في ذلك ما يمثل انحرافاً عن الأسلوب القرآنيّ كله. ولكنّ الانحراف الأسلوبيّ إنما ظهر في خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي الذي وضع لأجله؛ لتأدية معان إضافية تلقي علـــى النص ظلالاً نابضة بالحياة، يعيش معها المتلقي بكل أحاسيسه ووجدانه.

رابعاً: النداء

والنداء يعني طلب إقبال المخاطب أو دعوته بحرف نائب مناب فعل، كـــ (أدعــو) أو (أنادي). وأدواته هي: الهمزة، وأيا، وأي، وآي، وهيا، ووا، ويا.[1]

ورد أسلوب النداء بكثرة في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، وجاء في أكثــر مــن (40) موضعاً، واقتصر على أداة النداء (يا).

تشترك أداة النداء (يا) بين البعيد والقريب، ويخصــها بعضــهم لنــداء البعيــد، يقــول (**الزمخشري**): " هي لنداء البعيد، أو من هو بمنزلته من نائم أو ساه "[2]. وقد ينادى بها القريــب " إذا كان الخطاب المرتب على النداء في محل الاعتناء بشأن المنادى "[3].

عمدت لغة الخطاب إلى النداء بـــ (يا أهل الكتاب) في أكثر من (10) مواضع، وبـــ (يا بني إسرائيل) في أكثر من (6) مواضع، وبـــ(يا قوم) في أكثر من (6) مواضع، وبـــ (يا أيهــا الذين هادوا) في موضع واحد، وبـــ(يا أيها الذين أوتوا الكتاب) في موضع واحد أيضاً. واستغنى عن الأداة في أكثر من (7) مواضع.

أما المتكلم في هذه المواطن جميعها فهو الله Y أو نبيّه المرسل، سواء كان هذا النبي هو موسى υ، أو النبي عيسى υ، أو النبيّ محمد ρ.

أما الطرف الثاني فهو بنو إسرائيل، وهم بدورهم لم يستخدموا ســوى جملــة واحــدة للنداء في القرآن الكريم كله وهي: (يا موسى). هكذا دونما تقدير أو إجلال لمقام النبوة الكريمة، خطاب يتضمن سمات هذا المجتمع الذي غلبت عليه اللجاجة والكفر والعناد والكبر.

ولعلّ لجوء لغة الخطاب إلى أداة النداء (يا)، وهي تتدفق من نبيّ الله موسى υ، يعبر عــن حالة نفسية ووجدانية ألمت به، وبمن جاء بعده من الأنبياء في حواراتهم مع بني إســرائيل، وكــأن أسلوب النداء المتمثل بـــ(يا) يضفي نوعاً من الاستعطاف والتودد لأولئك القوم، لعلهم يستجيبون أو يؤمنون، ففي امتداد الصوت ما ينبئ عن حالة نفسية مصوّرة لأحزانه وآلامه وآماله υ.[4]

---

[1] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص101.

[2] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **المفصل في علم العربية**. ط(2). بيروت: دار الجيل. 1323هـــ. ص309.

[3] الزركشي، محمد: **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: أبو الفضل المياطي، القاهرة: دار الحديث. 2006. ص1195.

[4] انظر، فيود، بسيوني عبد الفتاح: **علم المعاني**. ط(3). القاهرة: مؤسسة المختار. 2004. ص331.

جاء الخطاب بالنداء من الذات العلية لبني إسرائيل للتنبيه على عظيم الأمر المدعو لـــه، وعلوّ شأنه، كقوله تعالى: (يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ) {البقرة: 40}. وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم) {النساء: 47}. وغالباً ما تتضمن لغة الخطاب من الذات العلية إثارة الانتباه والمبالغة والتأكيد لتحقيق مفهوم العبودية الخالصة في بني إسرائيل، فتذكيرهم بالنعم يستوجب الطاعة والامتثال لأمر الله تعالى، ودعوتهم للإيمـــان بـــالنبيّ محمد ρ أمر جلل لا يستقيم إسلام المرء دونه.[1]

ولعلّ هذا التكرار الكمّي في لغة الخطاب يسهم في تركيز المعنـــى، وتعميـــق الدلالـــة، ويضفي على النص مزيداً من الوضوح والكثافة.

أما النداء من نبيّ الله موسى υ فجاء يعجّ بمظاهر التودد والاســتعطاف، مـــن خـــلال التكرار الكمّي لجملة النداء (يا قوم)، فلـــنلاحظ قولـــه: (يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ) {البقرة: 54}. وقوله: (يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ) {المائدة: 20}.

وليس ثمة شك أن هذا الأسلوب لا يقتصر على موسى υ، بل يغلب على لغة الخطـــاب لدى جميع الأنبياء والمصلحين، فلنلاحظ قوله تعالى على لسان عيســـى υ: (وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ) {المائدة: 72}. والأسلوب ذاته على لسان النبـــي محمـــد ρ: (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ) {المائدة: 59}.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن أسلوب النداء على لسان موسى υ، يكاد يكون أكثـــر رقـــة وتودداً من غيره من الأنبياء؛ ذلك أنه منهم، فخطابه لهم جاء بـــ (يا قوم)، أما النبي محمـــد ρ، فكان خطابه بـــ (يا أهل الكتاب)؛ لأن محاججته كانت لليهود والنصارى، كما مرّ في ســـورة آل عمران التي نزلت محاججة لوفد من نصارى نجران، وأحبار من يهود المدينة. وبهذا تنقلنا لغـــة الخطاب من خلال جملة النداء إلى واقع حيّ مليء بالمعاني والعبر.

---

[1] انظر، **سورة البقرة**: 47. و122. و**المائدة**: 15. و19. **طه**: 80. وفارس، أحمد محمد: **النداء فـــي اللغـــة والقـــرآن**. ط(1). بيروت: دار الفكر اللبناني. 1989. ص135.

ولعلّ أسلوب النداء في بني إسرائيل يتضمن معنى الحثّ، فالنداء بـــــ (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ) يذكرهم بسموّ منزلتهم؛ فهم أهل كتاب منزل من الله Y، وكذلك في نسبتهم إلى إســرائيل وهــو يعقوب υ تشريف لهم، لو كانوا يعلمون.

وقد يتضمن النداء معنى الزجر، كما في نداء موسى υ فــي قولــه: (قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ) {طه:95}. فهو يريد زجر السامريّ وتأنيبه على فعلته التي أقدم عليها فــي إضـــلال القوم، وإبعاده لهم عن جادّة الصواب.

وغالباً ما يلي النداء الأمر والنهي والاستفهام " وكأنه يعدّ النفس ويهيئهــا لتلقــي تلــك الأساليب، ولذا فهي تتقوى به، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن، وينبه المشاعر، فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام، صادف نفساً مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحسّ واع وذهن منتبه "(1).

ولعل هذا التنوع في استخدام الأساليب من خلال النداء يسهم في استمالة المخاطب، وبثّ روح الطمأنينة في قلبه، فيجعله أكثر استجابة لهذا الأمر أو النهي أو غيرهمـــا مـــن الأســـاليب الإنشائية الطلبية.(2)

وإذا كان أسلوب الأنبياء تجاه بني إسرائيل يعجّ بمظاهر التلطف والاستمالة والتودد، فإنه لم يكن كذلك من بني إسرائيل تجاه أنبيائهم؛ ذلك أنّ لغة الخطاب تعود لتؤكد من خـــلال النـــداء سمات بني إسرائيل واتصافهم باللجاجة والكبر والعناد والتمرد والعصيان، انظر إلـــى نـــداءاتهم لنبيهم موسى υ فلن تجد إلا أسلوباً واحداً، وذلك كقـــولهم: (يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ) {البقرة: 55}. وقولهم: (يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ) {البقرة: 61}.(3)

وبنو إسرائيل لم يلتجئوا إلى الله Y في السراء أو الضراء، لكنهم في كل مرة يطلبـــون من موسى υ أن يدعو ربه لتحقيق هذا الغرض أو ذاك.

---

(1) فيود، بسيوني عبد الفتاح: **علم المعاني**. ص336.

(2) انظر، فارس، أحمد محمد: **النداء في اللغة والقرآن**. ص159-160.

(3) انظر أيضاً: **سورة المائدة**: 22. 24. **والأعراف**: 138.

وفي ذلك ملمح مهمّ من ملامح الشخصية الإسرائيلية، التي تتسم بالجهل والكبر والحمق، فهي لم تدرك حقيقة الإيمان، ولم تتذوق طعم الدعاء، ولم تؤمن إيماناً حقيقياً بعد.

أما النداء المتضمن معنى الدعاء، فلم يرد في لغة الخطاب إلا على لسان نبيّ الله موسى υ، كقوله: (رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) **{المائدة: 25}**. وقوله: (رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ) **{الأعراف:151}**. أو على لسان الثلة المؤمنة من بني إسرائيل، نحو قولهم: (رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) **{البقرة: 250}**.[1]

ونداء العبد لربه يستدعي وجود أداة النداء (يا)، لكنّ لغة الخطاب تعمد إلى حذف أداة النداء للتعبير عن القرب المتحقق يقيناً بين العبد وبين خالقه، جلّ في علاه.

وفي حذف أداة النداء ما يحمل معنى الرجاء والاستعطاف والكشف عن الحالة الوجدانية العميقة التي أخذت تكتنف موسى υ؛ نتيجة تكذيب قومه له رغم كل المعجزات التي أرسلها الله Y إليهم.

---

[1] انظر أيضاً، **سورة آل عمران**: 53.

المبحث الثاني: دلالة السياق

يشكل السياق المحور الرئيس للدراسة اللغوية والبلاغية والتفسيرية علـى حـد سـواء، فالقدماء أعلوا من شأنه، وبحثوا من خلاله جملة من القضايا والأخبار، وإن لم يتناولوه كظـاهرة دلالية تسهم في تحليل النص على اختلاف أساليبه وموضوعاته.[1]

يشير المعنى اللغوي والاصطلاحيّ للسياق إلى التتابع والتسلسل، وفيه جانب كبير مـن التلاؤم الذي يظهر من خلال سوق الإبل، وما يضفيه ذلك من جمال وروعة، وحال هذا المشهد هو ذاته حال الألفاظ والتراكيب؛ وما السياق إلا عامل رئيس من عوامل هذا التلاؤم.[2]

ومن المجاز قولهم: " هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده "[3].

ولكي يكون الكلام صادقاً ومقبولاً يجب " أن يجمع بين حسن التركيب، إلى حسن التواؤم مع الواقع الخارجي (الموقف) "[4]؛ ذلك أن المعيار الحقيقيّ للحكم على صحة النص هو السـياق الذي يسير فيه، وهنا تبرز قيمة السياق في الدلالة سواء كان سياقاً لغوياً أو سياق حال.

يقول **(الجرجاني):** " الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، ممـا لا تعلُّق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك، أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراهـا بعينها تَثْقُل عليك وتُوحِشك في موضع آخر "[5].

والقرآن الكريم، وهو كتاب الله الخالد، ذو نصوص لغوية وسور جامعة دفعت المفسرين للانطلاق من رحم السياق أملاً في الكشف عن دلالاته، لا سيما أن القرآن نزل منجّمـاً حسـب

---

[1] انظر، ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**. ج(1). ص83. والأنباري، محمد بن القاسم: **كتـاب الأضـداد**. تحقيـق: محمد أبو الفضل إبراهيم. د.ط. بيروت: المكتبة العصرية. 1991. ص2-4.

[2] الجوهري، إسماعيل بن حماد: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج(4). ط(2). بيروت: دار العلم للملايين. 1979. مادة **(سوق)**. ص1499. وانظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(3). تحقيق: عبد السلام هارون. ط(2). بيروت: دار الجيل. 1999. مادة **(سوق)**. ص117. وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسـان العرب**. ج(7). مادة **(سوق)**. ص304.

[3] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **أساس البلاغة**. ص468.

[4] الطلحي، ردة الله: **دلالة السياق**. ط(1). مكة المكرمة: مطابع جامعة أم القرى. 1424 هـ. ص62.

[5] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص46.

الأحداث والمواقع، ولعلّ ذلك يسهم في وضوح الصورة بألوانها الأخّاذة فتقع في العين والقلب موقعاً حسناً.

والسياق يرشد إلى تنوع الدلالة وهذا " من أعظم القرآئن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: (ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ) {الدخان: 49} كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[1].

روي عن مروان بن الحكم حول فهمه لقوله تعالى: {لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {آل عمران: 188} أنه قال: " لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبنَّ أجمعون، حتى بيّن له ابن عباس: أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ρ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأرَوه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه "[2].

من هنا كان لمعرفة الأحداث والوقائع التي نزل في إثرها القرآن ضرورة حتمية، لا سيما معرفة المكي والمدني من القرآن الكريم؛ حيث إن أهل مكة كانوا يتسمون بالجحود والكفر والغلظة على النبي ρ، فجاء القرآن ليخفّف عنه ρ، وليثبته ومن معه من المؤمنين من خلال عرض قصص الأمم السابقة التي صبرت وثبتت رغم ما أصابها من لأواء، فكانت جديرة بنصر الله Y وتمكينه. أما القرآن المدني، فقد أخذ يفضح سلوك اليهود والمنافقين، ويكشف زيف ادعاءاتهم، لما تتطلّبه طبيعة المرحلة؛ فاليهود والمنافقون حاربوا رسول الله ρ فور وصوله إلى المدينة، وأخذوا يعدّون العدة لقتله والتآمر عليه، كما مر في دراستنا التمهيدية.[3]

والاهتمام بدراسة السياق لا يقتصر على العرب القدماء، بل نجد المحدثين من العرب والغرب يؤسسون لنظرية سياقية حديثة تقوم على تحديد الاصطلاحات، وإرساء الحدود، وإظهار المعالم المميزة لكل نوع من أنواع السياق، ليغدو السياق ظاهرة لغوية قائمة بذاتها، يقبل عليها الدارسون تعريفاً وتصنيفاً وتحليلاً.

---

[1] ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر: **بدائع الفوائد**. مج(2). ج(4). د.ط. بيروت. دار الكتاب العربي. د.ت. ص9-10.

[2] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ص49.

[3] انظر، إعلاوي، نزيه محمد: **الشخصيات القرآنية**. ط(1). عمان: دار صفاء. 2006. 295. و304-309.

يقول (**الطلحي**): " لعل من الإنصاف القول بأن هؤلاء الغربيين قد صاغوا هذه الفكرة في شكل نظرية قابلة للتطبيق على جميع أنواع المعنى من صوتية وصرفية ونحوية واجتماعية، ووصفوا لها من المعايير والإجراءات ما يجعلها تقف على قدم المساواة مع بقية النظريات التي تتناول المعنى بالتحليل والتفسير "[1].

وللتمثيل على أهمية السياق في تحديد الدلالة وتوجيهها، قوله تعالى: {ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ} **{فصلت: 40}**، حيث يفيد الأمر التهديد والوعيد، أما قوله ρ لمن حضر بدر: "اعملوا ما شئتم"[2]، فإن الأمر يفيد التلطف والرضا عنهم، برغم وحدة اللفظ، لكنّ اختلاف الموقف في كلتا الحالتين أدى إلى انصراف الدلالة إلى معنيين مختلفين.[3]

يظهر لنا أن السياق هو المحدد للمعنى، وهو " البيئة اللغوية التي تحيط بالكلمة أو العبارة أو الجملة، وتُستمد أيضاً من السياق الاجتماعي وسياق الموقف، وهو المقام الذي يقال فيه الكلام بجميع عناصره، من متكلم ومستمع، وغير ذلك من الظروف المحيطة، والمناسَبة التي قيل فيها الكلام، والكلمة عندما توجد في جملة أو عبارة، فهي في سياق لغوي، وعندما تقال هذه الجملة أو هذه العبارة في مقام معين، فهي في موقف اجتماعيّ محدد، فإنه يمثل سياقها الاجتماعي، وهذان السياقان كلاهما يسهم في إيضاح دلالة الكلمة "[4].

وإذا كنا قد تناولنا دلالة الأصوات، ثم دلالة الألفاظ ضمن ما يسمى بنظرية الحقول الدلالية، فإنه لحريّ بنا أن نلقي الضوء على أثر السياق في تخيّر الألفاظ والصيغ، ذلك أن نظرية الحقول الدلالية تمثل محاولة لقراءة النص ضمن ما يسمى بالسياق اللغوي، والوقوف على دلالة السياق في لغة الخطاب يسهم في الكشف عن السرّ العجيب لتخيّر هذه الألفاظ أو تلك، الأمر الذي يجعلها أكثر تأثيراً في المتلقي، فإذا بها تعجزه بجمال سبكها، وروعة نظمها، واختلاف مواضع ورودها.

---

[1] الطلحي، ردة الله: **دلالة السياق**. ص165. و186- 190. وانظر، بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**. ص74-80.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. ج(3). رقم (3983). ص13.

[3] انظر، الطلحي، ردة الله: **دلالة السياق**. ص192.

[4] حيدر، فريد: **علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية**. د.ط. القاهرة: مكتبة النهضة. 1999. ص56.

أولاً: أثر السياق في تخيّر الألفاظ

تتحدد بلاغة اللفظ، كما يرى اللغويون والبلاغيون، في مطابقته للمعنى، والإحاطة به إحاطة السوار بالمعصم، ولعل الصورة الذهنية التي تتشكل فور النطق باللفظ تكون ألصق بهذا اللفظ من غيره؛ ذلك أن " التعبير القرآنيّ تعبير فنيّ مقصود "[1] يهدف إلى تكوين صورة ذهنية تكون أكثر تأثيراً في المتلقي، كعادة النصوص البلاغية التي تنزع إلى دقة الاختيار، وعمق الوصف، وجلال التراكيب، وليس من شك أن دقة الاختيار للمفردة القرآنية وتوجيهها بما يتوافق ومحور الهدف الذي تصبو إلى تحقيقه يشكل العنصر الأهم في إعجاز هذا القرآن وبلاغته.[2]

وما زالت الدراسات القرآنية بحاجة إلى مزيد من البحث في هذا الميدان الخصب، والتنقيب عن تلك العلاقات التي تربط هذه الألفاظ بعضها ببعض، على نحو ما يظهر في قوله تعالى في سورة البقرة: (وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ) **{البقرة: 63}**، مقارناً بقوله في سورة الأعراف: (وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ) **{الأعراف: 171}**.

يقول (**السامرائي**): " والقرآن لا يستعمل لفظتين بمعنى واحد تماماً، وإن كانتا مترادفتين أو مبدلتين، وحتى إذا كانتا من لغتين، فهو يخص كلاً منهما بمعنى، كما خص **(العيون)** بعيون الماء ولم يستعملها للباصرة...، فخص كل لغة بسياق "[3].

يظهر لنا أن اختيار اللفظ في المكان المناسب إنما يتحدد من خلال السياق، فالسياق هو الموجّه لاختيار هذه اللفظة أو تلك، وهنا يكمن دور السياق وأهميته في الكشف عن المعنى، وليس من قيمة حقيقية للدراسة الدلالية ما لم تتوج بدلالة السياق، التي تعدّ المنطلق الرئيس لدراسة الظواهر الأسلوبية والدلالية في النص القرآنيّ.

ونحن بدورنا سنتناول بعض الألفاظ الواردة في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، ثمّ نبحث عن أثر السياق في تخيّر هذه الألفاظ دون غيرها.

---

[1] السامرائي، فاضل صالح: **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**. ط(4). عمان: دار عمار. 2007. ص11.

[2] انظر، البوطي، محمد سعيد: **من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**. د.ط. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1996. ص136.

[3] السامرائي، فاضل صالح: **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**. ص41.

لقد اهتم القدماء والمحدثون من علماء التفسير في هذا النوع من الدراسات، تحت ما يسمونه بـ"**المتشابه اللفظي**"[1]، لكنهم غالباً ما اكتفوا في ذكر الحكمة لاستخدام اللفظ في موضع دون آخر؛ ولعل مردّ ذلك إلى أنهم لم يتناولوا سياق الموقف أو الحال برمته، بل أخذوا من كل شيء أطرافاً، ولسنا نزعم أننا سنأتي بما لم يأت به الأولون، ولكننا سنبحث في سياق الموقف أو الحال الذي استدعى انتقاء هذه اللفظة أو تلك.

والقول بالمتشابه اللفظي لا يعني القول بالترادف اللغوي، ذلك أن الترادف هو موطن خلاف بين اللغويين منذ القدم، لا سيما في القرآن الكريم، فكثير من اللغويين يرون أن لكل لفظ دلالة مميزة له عن الألفاظ الأخرى.[2]

وليس الخوض في اختلاف اللغويين أو الانتصار لرأي على آخر من صميم دراستنا، لكنّ الذي يعنينا هو أن الترادف يقع في اللغة، لكنه غير مبرر في القرآن الكريم، إذا ما قرأنا المعنى من خلال السياق لا سيما سياق الموقف أو الحال.

قال (**ابن تيمية**): " فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر، وإما معدوم، وقلّ أن يعبَّر عن معنى واحد بلفظ آخر يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن "[3].

من هنا نستطيع أن نقول: " إن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته "[4]، ضمن ما يستدعيه السياق من تحديد للمعنى، وتوجيه للأذهان نحو صورة متخيلة تكاد تنقل المتلقي إلى واقع حيّ، عبر فصاحة اللفظة التي لا تتحدد إلا من خلال النظم وحسن الملاءمة وفضل المؤانسة.[5]

---

[1] يطلق المتشابه في اللغة على ما تماثل من الأشياء أو تشابه وعلى ما يلتبس من الأمور. انظر، الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**. مادة: **(ش ب هـ)**. ص138. **والمتشابه اللفظي**: هو " إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص، وحكمته التصرف في الكلام، وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ". الزركشي، محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**. ص87.

[2] انظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**. علق عليه: أحمد حسن بسج. ط(2). بيروت: دار الكتب العلمية. 2007. ص59–60.

[3] ابن تيمية، أحمد: **مجموع الفتاوى**. ج(13). جمع وترتيب: عبد الرحمن قاسم. دط. د.ت. ص341.

[4] أبو زهرة، محمد: **المعجزة الكبرى القرآن**. د.ط. القاهرة: دار الفكر العربي. 1970. ص104.

[5] انظر، الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص36.

جاءت ألفاظ المتشابه اللفظي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، لا سيما في سورتي البقرة والأعراف، على النحو الآتي:

الرقم	الآيات	الألفاظ المتبادلة
1	قال تعالى:(يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ) {البقرة: 49}. وقال أيضاً: (يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ) {الأعراف: 141}.	يذبّحون يقتّلون
2	قال تعالى:(وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ) {البقرة:58}. وقال: (وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ) {الأعراف: 161}.	ادخلوا اسكنوا
3	قال تعالى: (فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ) {البقرة: 59}. وقال أيضاً: (فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ) {الأعراف: 162}.	فأنزلنا / فأرسلنا يفسقون/ يظلمون
4	قال تعالى: (فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا) {البقرة: 60}. وقال أيضاً: (فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا) {الأعراف:160}.	انفجرت انبجست
5	قال تعالى: (وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ) {البقرة: 63}. وقال أيضاً: (وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ) {الأعراف: 171}.	رفعنا/ نتقنا الطور/ الجبل

وللوقوف على الحكمة في تخيّر اللفظ في هذه السورة أو تلك، لا بد أولاً من الوقوف على السياق العام لكل سورة، نقرأ فيها أسلوبها ونحدد المحور الرئيس الذي يجمعها، ثم نستخلص دور السياق في تخيّر الألفاظ.

فسورة البقرة سورة مدنية باتفاق، وهي من أوائل ما نزل في المدينة، إثر هجرة النبي ρ إليها قادماً من مكة، والمدينة مجتمع متعدد الشرائح، ففيها اليهود والمنافقون، وفيها كذلك المسلمون الذين بدأوا يؤسسون لمجتمع إسلامي جديد.[1]

[1] انظر، الزركشي، محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**. ص132.

والنبي ρ منذ أن دخل المدينة أخذ في دعوة أهلها إلى الإسلام على اخـتلاف أفكـارهم وعقائدهم، وعمل على مخاطبتهم باللين والرفق، موضحاً لهم أسس هذا الدين، وانطلق في دعوة اليهود إلى الاحتكام إلى دين الله Y، والتصديق بما جاء في تـوراتهم مـن وصـفه ρ ونعتـه، والقرآن الكريم في هذه الفترة حريص على دفع أولئك اليهود إلى الإيمـان، فخـاطبهم بـاللين والرفق، وعرَض لمجريات الأحداث التي واكبوها عرضاً سريعاً، غرضُه في ذلـك تـذكيرهم بالنعم التي أنعمها الله على أسلافهم من قبل؛ لعلهم يؤمنون أو يستجيبون.

من هنا نلاحظ أن الغرض الرئيس لسورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، في محاولة لاستقطاب القوم إلى دين الله، باتباع أمر النبيّ الكريم ρ.

وهي تهدف كذلك إلى إبراز موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينـة، ثـمّ إعداد الجماعة المسلمة عبر تبصيرها بطبيعة هذا الصنف من البشر.

ولمّا كانت هذه السورة تهدف إلى حثّ القوم على الإيمان بالله والتصديق بنبوة محمد ρ، أخذت لغة الخطاب فيها تتدفق لتحقيق هذا الغرض، فلنلاحظ، مثلاً، في مستهلّ الحديث عن قصة بني إسرائيل، قوله تعـالى: (يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ) **{البقرة: 40}**، ثم أكد على المعنى ذاته وبالصيغة نفسها في الآية (47)، وفي صيغة أخرى في الآية (122)، ليبرز الموضوع الرئيس لهذه السورة، وهـو أن يـذكرهم بالنعم التي أنعمها على أسلافهم من قبل، مستخدماً في ذلك اللفظ (وإذ) بكثرة بالغة، لما يتضـمنه من معنى (واذكروا إذ)، ثم أخذت السورة تسرد ألوان هذه النعم كنجاتهم من فرعون، وعفـو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل، وبعثهم من بعد موتهم، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسـلوى، وغيـر ذلك من النعم الكثيرة، التي أنعمها عليهم نتيجة الطاعة، وحرموها نتيجة المعصية.[1]

أما سورة الأعراف، فهي سورة مكية باتفاق، وموضوعها الرئيس التـأريخ للقصـص القرآني، لا سيما قصة بني إسرائيل، للوقوف على العقيدة بكل تجلياتها، ذلك أن النبي ρ ومـن معه من المؤمنين، تعرضوا لظلم شديد من كفار مكة، فكان لا بد من التسلية عنه ρ ومن معـه من المؤمنين، ثم تثبيتهم على الحق، والتأكيد لهم بأن العاقبة للمتقين من خلال عـرض قصـص

---

[1] انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(1). ص78.

الأولين من لدن آدم وحتى موسى، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، ولمّا كانت الحكمة الظاهرة من سورة الأعراف التأريخ لقصة بني إسرائيل، أخذت الآيات القرآنية تفصّل في الأحداث الواحد تلو الآخر، فجاءت الألفاظ متفقة مع هذا السياق كما سيتبين لنا إن شاء الله.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن القصص القرآنيّ لا يُسرد إلا لمواجهة حالة معينة في ظــروف معينة، ولعل ذلك يظهر من خلال التوزيع العجيب للقصص القرآني عبر سور القــرآن الكــريم كله، ليتفق ذلك ومحور السياق والمغزى.

وبعد أن سردنا، بعجالة، المحور الرئيس لكلا السورتين، نذهب إلـــى التحليـــل الـــدلالي للألفاظ، لنخلص إلى أثر السياق في تخيّر هذه الألفاظ.

- الفرق بين الذبح والقتل

الذبح والقتل لفظان يؤديان إلى نتيجة واحدة وهي الموت، لكنّ لكل منهما دلالة مميــزة تميزها عن الأخرى، دون أن يكون هناك تناقض أو ترادف تام بينهما.

قال (**الراغب**): " أصل الذبح: شق حلق الحيوانات...، وقوله في البقرة: {**يُذَبِّحُونَ**} على التكثير، أي: يُذبَح بعضهم إثر بعض "[2].

أما (القتل) فهي تدل على الموت نتيجة الإذلال. قال (**ابن فارس**): " القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة "[3].

لعل إظهار الصورة المروعة للقتل في سورة البقرة يتفق ومحور السياق؛ ذلك أن السياق يذكّر بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها الله عليهم، وصورة الذبح المتخيّلة من خلال اللفظ تستدعي منهم الاستجابة للنبي ρ؛ فهي تذكرهم بالمآسي التي لحقت بهم من فرعون وجنده، وأن الفضـــل في إنجائهم يعود إلى الله تعالى، نتيجة التزامهم بأوامره، واستجابتهم لنبيهم موسى υ.

نلاحظ أن السياق هو العامل الرئيس في تخيّر اللفظ (يذبّحون) في سورة البقرة، في حين نجد اللفظ (يقتّلون) أبلغ وأكثر دقة في الاستخدام في سورة الأعراف؛ ذلك أن سورة الأعــراف

---

[1] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى**. (رســالة ماجســتير غير منشورة). جامعة أم القرى: مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية. 2005. ص253-254.

[2] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص182.

[3] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(5). مادة **(قتل)**. ص56.

من السور التي نزعت إلى تعنيف بني إسرائيل عبر التأريخ لأحداثهم الجسام، وقصصهم العظام، فهي تفضح السلوك، وتفصّل في العقوبات التي حلت بهم نتيجة نكولهم وظلمهم وتجبّرهم.

فاستخدام اللفظ (يقتّلون) في سورة الأعراف ممعن في الدقة والروعة؛ ذلك أن القتل يذكرهم بالمذلة التي أركسوا فيها نتيجة القتل بكثرة بالغة، ولعلّ أسلوب التضعيف يسهم في كشف هذه الدلالة، لأن القتل الذي لحق بهم كاد أن يودي بهم جميعاً، ولولا استجابتهم لنبيهم موسى υ لكانت بالنسبة إليهم الحالقة.

- **الفرق بين الدخول والسكون**

الدخول معروف، فهو نقيض الخروج، أما السكن فهو نتاج عملية الدخول، قال **(الرازي):** " الدخول مقدم على السكون، ولا بد منهما، فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة، والسكون في السورة المتأخرة "[1]، ولا أظن أن الأمر كذلك؛ ذلك أن السكون ضد الحركة، يقال: " سكن الشيء يسكن سكوناً إذا ذهبت حركته "[2]، ومن المجاز قولهم: "سكنت نفسي بعد الاضطراب"[3].

لكنّ الذي يجلّي لنا حقيقة المشهد هو السياق؛ إذ إن السياق في سورة البقرة، وهو التذكير بالنعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، وسرد الأحداث دونما تفصيل، يستدعي تخيّر اللفظ (ادخلوا)؛ ذلك أن الأمر في بدايته يتضمن الدخول، ودخول الأرض المقدسة نعمة في حد ذاتها، أما التفصيل في حكمة الدخول ومتطلباته فإنه من اختصاص سورة الأعراف المفصِّلة والمؤرِّخة للأحداث، فالسكون الذي تهدف إليه سورة الأعراف هو امتثال أمر الله تعالى، وإقامة الأحكام والشرائع، وبناء دولة إسلامية تحكم بمنهاج رب العالمين، ولن تتحقق هذه السكينة ما لم تنتظم أمور الناس ضمن منهج الله تعالى، فلمّا كان الأمر في الأعراف يهدف إلى التفصيل والتأريخ نزع إلى ذكر (اسكنوا) لما يؤول إليه هذا الفعل من العمل على تحقيق منهج الله، وإقامة هديه.

أما في سورة البقرة، فالأمر لا يحتاج إلى هذا النوع من التفصيل؛ حيث اكتفى بذكر اللفظ (ادخلوا) دون اللفظ (اسكنوا) والله أعلم.

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص92.

[2] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(7). مادة **(سكن)**. ص220.

[3] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **أساس البلاغة**. ص452.

- **الفرق بين الإنزال والإرسال**

قال **(الرازي)**: " الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث بالآخرة "[1]، في حين يرى **(ابن فارس)** أن الإنزال كلمة صحيحة تدل على هبوط الشيء ووقوعه، ومنه النازلة: الشديدة من شدائد الدهر، أما الإرسال فيدل على الانبعاث والامتداد، يقال: جاءوا أرسالاً: أي: متتابعين، والرِّسل: اللبن الكثير المتتابع الدَّر.[2]

يظهر لنا أنّ دلالة كلّ من اللفظين الإنزال والإرسال تتفق ومحور السياق الواردة فيه؛ ذلك أن سورة البقرة وهي التي نزلت في تذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها الله على آبائهم من قبل، واستعطافهم للإيمان بنبوة محمد ρ، ثمّ تحذيرهم من مخالفته، تتطلب لفظاً عميقاً يذكّرهم بالنوازل التي نزلت بالقوم نتيجة التحايل على طاعة الله، فاستخدم لذلك اللفظ (أنزلنا) الدال على الإنزال دفعة واحدة، فهو غير التنزيل الدال على التدرج.[3]

أما في الأعراف، ولمّا كان الهدف الرئيس منها هو التأريخ لقصة بني إسرائيل، فقد عمد إلى اللفظ (أرسلنا) الدال على التتابع، فهو يصف العذاب الذي لحق بالعصاة منهم بأنه كان متتابعاً مسلطاً عليهم، لا ينفك عنهم أبداً.[4]

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص94.

[2] انظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(5). مادة **(نزل)**. ص417. وج(2). مادة **(رسل)**. ص392. والراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص201-202.

[3] الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**. ج(15). تحقيق: مجموعة من المحققين. د.ط. دار الهداية. د.ت. مادة **(نزل)**. ص728.

[4] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص225.

- **الفرق بين الفسق والظلم**

ليس الفسق كالظلم، لما بينهما من اختلاف دلاليّ واصطلاحي، فالفسق " هو الخروج عن الطاعة، تقول العرب: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت "[1]، والفسق: خروج عن الشـــرع، وهو أعمّ من الكفر؛ ذلك أن " الفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير "[2].

قال (**ابن فارس**): " ظلم: الظاء واللام والميم، أصلان صحيحان: أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وضع الشيء غير موضعه تعدياً "[3].

قال (**الراغب**): " والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير "[4].

وهنا نعود إلى السياق ودوره في تخيّر اللفظ، ففي سورة البقرة يعمد إلى تخيّـــر اللفـــظ (يفسقون)؛ ذلك أن لغة الخطاب فيها كانت للمعاصرين للنبي ρ، لتذكرهم بالنعم التي منّ الله بها على أسلافهم، وتدعوهم إلى الإيمان بالدين الجديد، وطاعة النبي ρ، ولمّا كان ذلك يتضمن معنى التحذير لهم من مخالفة أمر النبي ρ، جيء باللفظ (يفسقون) الذي يتضمن معنى التحـــذير مـــن الخروج عن الطاعة، ومآل هذا الخروج من الغضب واللعنة والقتل.[5]

أما في سورة الأعراف، وهي السورة المفصّلة والمؤرِّخة لقصة بني إسرائيل، فقد جـــاء اللفظ (يظلمون) وهو اللفظ الأعمّ؛ ذلك أنهم ظلموا أنفسهم، وأساءوا إلى أنبيائهم من قبل، وسعوا في الأرض فساداً، وغير ذلك من ألوان الظلم، ثمّ إن سورة الأعراف، وهي مكية، جاءت لتثبت المؤمنين، ولتحذرهم كذلك من كل سلوك سلكه بنو إسرائيل من قبل، لئلا يحلّ عليهم ما حل على المخالفين والعصاة من بني إسرائيل.

---

[1] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(4). مادة **(فسق)**. ص 502.

[2] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص382.

[3] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(3). مادة **(ظلم)**. ص428.

[4] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص318.

[5] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص228.

- **الفرق بين الانفجار والانبجاس**

أصل الانفجار التفتح في كل شيء، ومنه الفجر وهو شق الشيء بشكل واسع، أما الانبجاس فهو تفتح الشيء بالماء فقط، والانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، أما الانفجار فيقال فيما يخرج من أصل واسع، قال (**القرطبي**): " والانبجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون انبجاساً ثمّ يصير انفجاراً "[1].

قال (**الرازي**): " الانفجار خروج الماء بكثرة، والانبجاس خروجه قليلاً، والفجر الشق في الأصل، والانفجار الانشقاق، ومنه الفاجر؛ لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص، فلا يتناقضان... وقوله انبجس أولاً، ثم انفجر ثانياً، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلاً، ثم يكثر لدوام خروجه... وحاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر، أي يخرج الماء كثيراً، ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي: يخرج قليلاً "[2].

يلاحظ أن القراءة الآنفة الذكر كانت بمعزل عن السياق؛ ذلك أن سورة البقرة وهي سورة تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، جديرة بتخيّر اللفظ (انفجرت) الدال على خروج الماء بكثرة في إشارة إلى نعمة العيون التي أنعمها الله على بني إسرائيل، أما سورة الأعراف وهي السورة التي تهدف من خلال التأريخ التفصيليّ إلى تقريع العصاة الذين يتبعون غير سبيل المؤمنين، فاللفظ (انبجست) أدق في التعبير، وهو خروج الماء قليلاً؛ ذلك أن السياق في سورة الأعراف ليس كالسياق في سورة البقرة.

قال (**السيوطي**): " في البقرة (فانفجرت) وفي الأعراف (فانبجست)؛ لأنّ الانفجار أبلغ في كثرة الماء، فناسب سياق ذكر النعم التعبير به "[3].

---

(1) القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص284. وانظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**، ج(1). مادة **(بجس)**. ص199. والراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، ص47. 375.

(2) الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص96.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ص481.

- **الفرق بين رفع الطور ونتق الجبل**

الرفع معروف، أما النتق فهو من الفعل نتق، وهو " يدل على جذب الشيء وزعزعته وقلعه من أصله "[1]، حتى ينفصل انفصالاً كلياً عن مكانه.

والجبل كذلك معروف، أما الطور فهو " أصل يدل على معنى واحد وهو الامتداد في شيء من مكان أو زمان، من ذلك طوار الدار وهو الذي يمتد معها من فنائها "[2].

يظهر لنا أن تخيّر اللفظ (الطور) في سورة البقرة، و(الجبل) في سورة الأعراف غاية في الدقة والعمق؛ ذلك أن سورة الأعراف مكية نزلت على قوم لم يكن لهم دراية بهذا الجبل الذي يطلق عليه الطور في سيناء، وسياق سورة الأعراف وهو التأريخ لبني إسرائيل، كما ذكرنا سابقاً، وتثبيت المخاطبين وتحذيرهم من الاتصاف بصفات بني إسرائيل يتطلب ذلك؛ حيث عمد إلى ذكر (النتق) الذي يحمل معنى التعنيف على القوم، ثم اللفظ (الجبل) الذي يتضمن معنى القوة، لما ينسجه من صورة متخيّلة للمتلقي، فيحدث فيه رهبة تدفعه إلى السير في طاعة الله والتزام شرعه، وهذا ما كانت تهدف إليه سورة الأعراف.

أما في سورة البقرة، وهي نموذج تعداد النعم التي أنعمها الله Y على بني إسرائيل، فكان من الأجدر تخيّر اللفظ (رفعنا) الذي لا يتضمن قوة اللفظ (نتقنا) ورهبته، ثمّ تخيّر اللفظ (الطور)؛ لأن المخاطبين في هذه السورة هم اليهود المعاصرون للنبي ρ، وهم على علم كامل بمجريات الأحداث لأسلافهم من بني إسرائيل، فعمد إلى تخيّر اللفظ الذي يكون أدعى للاستجابة، وأبلغ في تحقيق الهدف المراد.[3]

نلاحظ أن الطور أضخم من الجبل، والرفع مناسب للطور؛ لأنه ضخم والرفع نسبيّ. أما الجبل فصغير، ويمكن بنتقة واحدة أن يرتفع كثيراً، ولعل الجبل المقصود جزء من الطور.

نخلص إلى أن سياق الموقف له أثر في تخيّر المتشابه اللفظيّ، فهو يسهم في الربط بين المعنى الخارجي أو الحرفي أو المعجمي للفظ، والمعنى الداخلي أو التوسعي الذي يحقق للمتلقي فهماً عميقاً يزيد من قدرته على الإلمام بالمعنى السياقي والاجتماعي والنفسي على حدّ سواء.

---

[1] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(5). مادة **(نتق)**. ص387.

[2] **السابق نفسه**. ج(3). مادة **(طور)**. ص430.

[3] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص244-246.

ولا يعني هذا أن لغة الخطاب اقتصرت على تخيّر المتشابه اللفظيّ فحسب، بل إن هناك تخيّراً فريداً يدلّ على العمق المعجز في انتقاء بعض الألفاظ دون غيرها؛ لما تحدثه من عمق في الدلالة، وروعة في النظم.

ففي قوله تعالى: (وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ) **{البقرة: 60}**، تأكيد على اتصافهم بالتمادي في الفساد؛ ذلك أن اللفظ (تعثوا) من العثّ " وهو شدة الفساد، يقال عثي يعثي عثياً، وعثا يعثو عثوّاً، وعاث يعيث وعيوثاً ومعاثاً، ويقال: عثّ يعثّ في المضاعف: أفسد، ومنه العُثَّة وهي السوسة التي تلحس الصوف. وفي قوله (مُفۡسِدِين) تأكيد للمعنى وإن اختلف اللفظ "[1]، فكأنه قال: لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه.[2]

يظهر لنا أنّ تخيّر اللفظ (تعثوا) الدال على شدة الإفساد، هو ما يتطلبه السياق في البقرة؛ ذلك أنّ هذا الأسلوب من النهي (لا تعثوا) جاء بعد سرد بعض النعم التي أنعمها الله Y على بني إسرائيل، من إنزال المن والسلوى، وتظليلهم بالغمام، وتفجير الحجر بالماء، وكأنه يريد أن يحذّر المخاطبين من الاتصاف بصفات أسلافهم الذين لم يقدّروا النعمة ولم يحفظوا حدودها، بل طغوا وأفسدوا حتى باءوا بغضب من الله.

يقول تعالى: (وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ) **{البقرة: 61}**، وتخيّر اللفظ (باءوا) بعد (لا تعثوا) يؤكد المعنى نفسه؛ ذلك أنه لا يقال باء فلان بفلان، إلا إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، واليهود بذلك استحقوا غضب الله تعالى، نتيجة كفرهم، وقتلهم للأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وغير ذلك من الأفعال والأقوال.[3]

وقد يكون اللفظ (وَبَآءُو) مقلوب (آبوا)، وهو الرجوع[4]، فقد رجع بنو إسرائيل إلى مصرٍ من الأمصار، يتيهون فيه، حينما آثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير.

---

[1] القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص327.

[2] انظر، الزجاج، إبراهيم بن السريّ: **معاني القرآن وإعرابه**. ج(1). ص142. والزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص173.

[3] انظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص174. والقرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص334.

[4] انظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(1). مادة (**أوب**). ص151.

وأياً كان الأمر، فإن تخيّر اللفظ (باءوا) يتفق وطبيعة الموقف أو السياق، وفي استخدامه وانتقائه إنصاف لهم، ووصف دقيق لحالهم، لأنهم كانوا جديرين بهذا الغضب الإلهي الذي أخــذ يلازمهم طول حياتهم.

لذلك جاءت سورة البقرة لتخاطب المعاصرين للنبي ρ، بأسلوب دقيق يتفــق ومحــور السياق، فخطاب موسى υ لقومه كان يتصف بالتلطف والأناة، والتذكير بأســلوب يهــدف إلــى تحقيق الهداية لقومه، فلنلاحظ، مثلاً، قوله تعــالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} **{البقرة: 54}**، قال **(صاحب الكشاف):** " فإن قلت من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفــاوت، {مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ} **{الملك: 3}**، ومتميزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفــة، والصــور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم، الذي برأهم بلطف حكمتــه على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل فــي الغبــاوة والبلادة، حتى عرّضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقه، ونثر ما نظــم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة ما لا يقدر على شــيء منها "[1].

ولتأكيد هذا المعنى كرّر اللفظ نفسه، (عِندَ بَارِئِكُمْ) ولم يقل (عنده)؛ " حملاً للمخاطبين على التفكر والتذكر والطاعة، وإشعاراً لهم بأن عبادة من برأهم وذرأهم وخلقهم في أحسن تقويم خير في دنياهم وأخراهم "[2].

قال **(أبو السعود):** " والتعرض لعنوان البارئية؛ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، ومن الغواية منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمتــه بريئــاً مــن التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة "[3].

---

(1) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص169.

(2) طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ص363.

(3) أبو السعود، محمد العمادي: **إرشاد العقل السليم**. ج(1). د.ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي. د.ت. ص102.

يظهر لنا أنّ قراءة القدماء لتخيّر اللفظ (بارئكم) كانت بمعزل عن السياق، والسياق يجلّي لنا حقيقة هذا التخيّر والانتقاء؛ ذلك أن سورة البقرة هي من أكثر السور حديثاً عن بداية الخلق، قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا} **{البقرة: 29}**، وغاية هذا الخلق إنما تتحقق بالاستخلاف، فجاء الحديث عن قصة آدم υ قبل الولوج في الحديث عن بني إسرائيل، ثمّ الحديث عن قصة إبراهيم υ وجعله إماماً، فعندما كان السياق في البقرة يتمحور حول الاستخلاف، وغاية خلق الله للأمم والشعوب، جيء باللفظ (بارئكم) الدال على الخلق في أحسن صورة، لكون الإنسان خليفة الله في الأرض. والله أعلم.

من هنا كانت دعوة النبيّ ρ لوفد من نصارى نجران وأحبار اليهود، كما يظهر من سورة آل عمران، تطبيقاً لهذا الاستخلاف، وحملاً للأمانة على أتمّ وجوهها، قال تعالى: (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ) **{آل عمران: 64}**، فاللفظ (تعالوا) مأخوذ من التعالي، وهو " الارتفاع من وضع هابط إلى مكان عال، ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوجه إلى حيث يُدعى إليه "[1].

ولعل لاختيارها، في هذه السورة وفي هذا الموضع بالذات، معنى مقصوداً؛ ذلك أن سورة آل عمران كانت محاججة لوفد من نصارى نجران وأحبار من يهود المدينة، فالخطاب جاء متسقاً وطبيعة الموقف، إذ افتتح بجملة النداء (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ)، ثمّ جاء اللفظ (تعالوا) وما يحمل من أسلوب الترغيب والتطلف في العبارة، وما يدل عليه من الارتفاع والعلو، لأن غاية النبيّ ρ في أن يخلصهم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.

في حين نجد اللفظ (اهبطوا) الوارد على لسان موسى υ في سورة البقرة، {ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} **{البقرة: 61}**، يتفق ومحور الموقف؛ إذ آثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، والهبوط إنما يدل على الانحطاط والدنوّ، يقول **(ابن فارس):** " الهاء والباء والطاء كلمة تدل على انحدار"[2]، وبنو إسرائيل دأبوا على هذا النوع من الدنوّ والانحدار.

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. مج (4). ج(8). ص86.

[2] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. ج(6). مادة **(هبط)**. ص30.

من هنا تظهر قيمة اللفظ فيما يحدثه من أثر في المتلقي؛ ذلك أنه يسهم في تعميق القـيم الشعورية التي تحدث هزة وجدانية تضفي على المعنى خصوصية وعمقاً.[1]

وكذلك أيضاً قوله في سورة النســاء: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً} **{النساء: 47}**، نجد اللفظ (نطمس) دالاً في ذاته، يحمل معنى التهديـد والوعيـد والقوة والرهبة، إنّه الطمس الدالّ على استئصال الشيء، ومنــه طمــس الطريــق، أي: درس وامّحى، وطمس الأثر ذهاب نوره. ورجل مطموس وطميس: لا شق بين جفنيه.[2]

وتخيّر اللفظ (نطمس) في هذه السورة، وفي هذا الموضع بالذات، غاية في الدقة؛ ذلك أن سورة النساء هي السورة الجامعة لأسباب العقوبات التي حلت ببني إسرائيل، وفيها معنى التهديد والوعيد، قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً} **{النســاء: 155}**[3]، وســرد هــذه المميزات الجحودية التي تميّز بها بنو إسرائيل يتطلب لفظاً مروّعاً، وذا وقع شديد على اللاحقين منهم، لا سيما أن الخطاب كان للمعاصرين للنبيّ ρ، وما دام أسلوب التلطف في سرد النعم كما ظهر في سورة البقرة لم يأت بنتيجة مع أولئك لا جرم أن يعمد النص القرآنــيّ إلــى أســلوب الترهيب والوعيد لتحقيق هذه الغاية.

وتجدر الإشارة إلى أن لغة الخطاب في سورة النساء، إن كانت عميقة تهدف إلى التهديد والوعيد، مدت إلى إنصاف القوم، فهي لغة صادقة معبرة موحية، قال تعالى في وصــفهم: {مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ} **{النساء: 46}**، وفي ذلك إنصاف لهم؛ إذ بــدأت لغــة الخطاب بــ(من) التبعيضية، ثمّ أتبعها باللفظ (الكلم) ولم يقل (الكلام)؛ " لأنهم إنما يحرّفون كلــم النبيّ ρ، أو ما عندهم في التوراة، وليس يحرفون جميع الكلام "[4].

---

[1] انظر، قطب، سيد: **النقد الأدبي أصوله ومناهجه.** ط(3). القاهرة: دار الفكر العربي. 1960. ص70.

[2] انظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **أساس البلاغة.** ص594. وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمـد ابن مكرم: **لسان العرب،** ج(9). مادة **(طمس).** ص145.

[3] انظر، **سورة النساء:** 156-161.

[4] القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن.** ج(3). ص376.

أما سورة المائدة، وهي سورة الحسم الخطابيّ، كما يظهر لنا؛ فقد أخذت تسرد أوصاف بني إسرائيل وسلوكهم وأفعالهم وأقوالهم، وتخاطبهم بأسمائهم وأوصافهم، بـــاليهود، ثـــم ببنـــي إسرائيل، ثم بالذين هادوا، ثمّ بأهل الكتاب، لتقرر حقيقة حاسمة[1]، وهي أن المســـميات لا تفيـــد شيئاً، وأن المعيار الحقيقيّ إنما يتحقق في الطاعة والخضوع لأمر الله Y، جاءت لغة الخطـــاب لتشنّ هجوماً عنيفاً على العصاة من بني إسرائيل، فمن الوصف إلى تحديد السلوك إلى العقوبـــة إلى اللعن والطرد من رحمة الله، إلى إسدال الستار بدعوة موسى υ: {رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ} **{المائدة: 25}.**

ولمّا كانت لغة الخطاب في سورة المائدة على هذا النحو، جاء بـــاللفظ الأكثـــر دلالـــة، والأعمق وصفاً، حين قال: {لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} **{المائـــدة: 63}**، فاختيار اللفظ (يصنعون) غاية في الدقة والعمق؛ لأن الصنع أقوى من العمل، والعمل " إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً متمكنـــاً، فجعـــل جـــرم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً "[2].

وما دام المرء بعيداً عن الاحتكام إلى أمر الله، والانقياد إلى طاعته ورضـــوانه، يبقـــى وضيعاً جاهلاً لا يعتدّ برأيه ولا بعلمه، فهو خاو في فهمه، ومهما ادّعى غير ذلك فهو لا يمثـــل شيئاً في ميزان الله تعالى، جاءت لغة الخطاب لتؤكد هذا المعنى، قال تعالى: {قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} **{المائـــدة: 68}**، وفـــي قوله (لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ) ما لا يخفى من التصغير والتحقير، كقولك: هذا لـــيس بشـــيء، إذا أردت تحقيره وتصغير شأنه.[3]

يبدو أن الوقوف على السياق يسهم في تحديد الدلالة وتوجيهها، والكشف عن مضامينها، وهي بذلك تجعل المتلقي لهذه الألفاظ بوعي، أكثر تفاعلاً وإدراكاً لكنهها وسرها وجمالها، فـــإذا به يعيش معها في سكناتها وحركاتها.

---

[1] انظر، **سورة المائدة:** 12. 19. 41. 51. 59. 64. 65. 78. 68. 69.

[2] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير.** ج(12). ص40.

[3] انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.** مج(3). ج(6). ص410.

ثانياً: أثر السياق في تخيّر الاسم والفعل

لا تقتصر أهمية السياق على تخيّر الألفاظ كما مر آنفاً، ولكن الأهمية أيضاً تكمن في تخيّر الصيغة القرآنية بما يخدم السياق، ويؤكد على المغزى نفسه الذي يرمي السياق إلى تحقيقه، والقرآن الكريم يعجّ بالصيغ المختلفة، كصيغتي الاسم والفعل، وصيغتي الماضي والمضارع، وصيغ المشتقات على اختلافها وتنوعها.

والمتمعّن في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، يجد أن هناك تخيّراً عجيباً في انتقاء هذه الصيغ وتوظيفها بما يتفق وتاريخهم الطويل عبر العصور، الذي يعج بالضلال والكبر واللجاجة والكفر.

فقد يرد التعبير بالاسم تارة، وبالفعل تارة أخرى، لتحقيق غرض دلاليّ أو بلاغيّ معين. والمعلوم أن الفعل يدل على التجدد، في حين يدل الاسم على الثبوت، قال (**الجرجاني**): " فإذا قلت (زيد منطلق) فقد أثبتّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدُث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل) و(عمرو قصير)، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: (زيد منطلق) لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: (زيد ها هو ذا ينطلق)، فقد زعمت أن الانطلاق يقع جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويزجّيه "[(1)].

وتجدر الإشارة إلى أن الوقوف على السياق يثري البحث الدلالي والأسلوبي، ويسهم في توجيه دلالة الاسم أو الفعل بما يعزز الغرض التاريخي أو الديني أو البلاغيّ.

يظهر ذلك من خلال اللفظ (ظلم)، إذ ورد في سورة البقرة في غير صيغة، فجاء بصيغة الماضي، في قوله تعالى: {وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ} {**البقرة: 54**}.

وبصيغة المضارع، في قوله: {وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ} {**البقرة: 57**}.

---

(1) الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص174.

ثم بصيغة الاسم في قولـــه: {وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ} {البقرة: 92}.

وللوقوف على هذا التغاير في الاستخدام لا بد من الاستعانة بالسياق، إذ جاءت الصـــيغة بالماضي فور عودته υ من الميقات؛ لأن الفعل وقع في غيابه، وانتهى الأمر بهم إلى هذا الفعل الشنيع، وأرادوا العودة إلى جادّة الصواب، فكأنهم انتهوا من حدث جلل وأقبلوا على حدث آخر.

أما في الآية الثانية، فالخطاب من الله Y للمعاصرين للنبيّ ρ، يذكّرهم بالنعم التي أنعمها عليهم، ويحذرّهم كذلك من الظلم، في إشارة إلى أن الظلم حدث متجدد في أسلافهم، لـــم ينفــك عنهم أبداً، ولئلا يكونوا كسابقيهم في الكفر والعصيان.

قال (**ابن الأثير**): " اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع منها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأنّ السامع يشاهدها "[1].

أما في الآية الأخيرة، فجاء الخطاب على سبيل الإجمال، ولم يفصّل في عودة موسى υ، كالآية الأولى، وما دام لم يفصّل اكتفى بذكر الاسم من خلال الجملة الحالية (وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ)؛ ذلك أن الاسم يخلو من الزمن، ويعطي الدلالة نوعاً من الثبوت، وكأنّ الظلم الذي مارســـه بنـــو إسرائيل واتصفوا به، أصبح دالاً عليهم، ومعلماً بارزاً من المعالم المميزة لهم.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك انتقاء عجيباً للأسماء والأفعال بما يتوافق ومحور السياق فـــي لغة الخطاب، فسورة النساء، على سبيل المثال، سورة مدنية نزلت بعد البقرة، وفي ذلك مغـــزى لا بد من الإشارة إليه؛ إذ إنّ سورة النساء جاءت لتقرير معظم التشريعات في بناء الجماعة المســـلمة، لتطهّر المجتمع المسلم من كل الشوائب، فلا بد إذن من تحديد العلاقة بين المسلمين واليهود، لا سيما أن الخطاب السياسيّ الظاهر في سورة البقرة لم يأت بنتيجة مع أولئك، فكان لا بـــدّ مـــن توجيــه المسلمين إلى طبيعة التعامل مع هؤلاء، لكي لا يلتبس الأمر عليهم.[2]

---

[1] ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر**. ج(2). ص14.

[2] انظر، الحميدان، عصام بن عبد المحسن: **الصحيح من أسباب النزول**. ط(1). بيروت: مؤسسة الريان. 1999. ص113.

من هنا نجد أن لغة الخطاب عمدت إلى ذكر أسباب العقوبات التي حلّت ببني إسـرائيل، وأخذت تعنّف في وصفهم، في محاولة لتحذير اليهود أولاً عبر التهديد والوعيـد، ثـمّ لتحـذير المسلمين أخيراً من الاتصاف بمثل هذه الأوصاف.

ولعل ما يؤكد ذلك أن سورة النساء من أكثر السور استخداماً للفعل المضـارع المحـدّد للسلوك، فلنلاحظ بعض هذه الأفعال: **(يبخلون، يأمرون الناس بالبخـل، يكتمـون، ينقضـون، يحرفون، يزكون أنفسهم، يكفرون، يحسدون، يزعمون)**[1] وغير ذلك من الأفعال الدالـة علـى التجدد في الفعل، وكأنه يريد أن يقول: إن هؤلاء القوم دائمو الاتصاف بهذه الأوصاف، وإنّ هؤلاء اليهود وهم الذين يدّعون أنهم من سلالة أولئك، إنما ورثوا عنهم تلك الأوصاف، حتى غدت مميـزاً رئيساً من مميزاتهم، وفي ذلك تعنيف لهم، وتحذير للمسلمين من مجاملتهم أو التهاون معهم.

ولا شك في أن التعاقب في الاستخدام للجملتين الفعلية والاسمية يسهم كذلك في كشـف المعنى، وتحديد الدلالة، لا سيما إذا كان هذا الانتقاء يتفق ومحور السياق.

ولغة الخطاب تعجّ بالجمل الاسمية والفعلية، ولكنّ الذي يعنينا هو التحول من الاسـمية إلى الفعلية أو العكس، بما يتفق والمحور الرئيس للسياق، فلنلاحظ مثلاً قوله تعالى: {وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ} **{البقرة: 48}**، حيث أتى بالجملة المعطوفة (وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) اسمية مع أن الجمـل التـي قبلهـا فعلية؛ إذ إن هذا التحول يفيد " المبالغة والدلالة على الثبات والديمومة، أي أنهم غير منصورين دائماً، ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح "[2].

وكذلك قولـه: {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٌ} **{البقـرة: 103}**، فقـد أوثرت الجملة الاسمية (لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٌ) على الفعلية؛ " لما في ذلك من الدلالـة علـى إثبات المثوبة واستقرارها "[3]، ولعلّ في ذلك ترغيب لهم للإيمـان بـالله Y، واتبـاع الرسـول الكريم، وهذا يتفق والمحور الرئيس للآيات في سورة البقرة.

---

[1] انظر، **سورة النساء:** 37 – 38. 44 – 60.

[2] صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.** مج(1). ج(1). ص123.

[3] الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف.** ج(1). ص200.

وليس هذا فحسب، بل إن هناك اختياراً عجيباً للجملة الحالية في لغة الخطاب، وتوظيفها بما يعزز الغرض المتوخى، وبما يلقي على النص بعداً تصويرياً معبراً، فلنلاحظ قوله تعالى: (وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ) {البقرة: 50}. إذ جيء بالجملة الحالية (وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ) لترسم صورة لأولئك المنكرين، بما تعجّ به من التبكيت والتعريض؛ لأنهم رغم معاينتهم للمشهد من أوله إلى آخره، نجدهم يرغبون في العودة إلى الوثنية التي ألفوها، وهذا ما جعلهم، فيما بعد، يستغلون فترة غيابه υ، ليعبدوا العجل، الذي هو مثل في الغباوة والبلادة.[1]

ثالثاً: أثر السياق في تخيّر صيغة الفعل الماضي

قد يرد الفعل في موضع بلفظ الماضي، على صيغة (أفعل)، الدالة على التعدية، وفي موضع آخر على صيغة (فعّل)، الدالة على التكثير من الفعل، ولعلّ في ذلك أهمية تتضح من خلال السياق، فالماضي يدل على حدوث الفعل في الزمن الماضي، لكنّ تخيّر هذا الفعل على صيغة معينة يعطي دلالة إضافية تتفق ومحور السياق.[2]

قال (**سيبويه**): " تقول: كسَرتها، وقطعتها، فإذا أردت كثرة العمل قلت، كسّرته، وقطّعته، ومزّقته ...، واعلم أن التخفيف في هذا جائز، كله عربي، إلا أنّ فعّلت إدخالها ههنا ليتبين الكثير"[3].

قال تعالى: (وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ) **{البقرة: 49}**، وقال في موضع آخر: (وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ) **{الأعراف: 141}**، فجاء في البقرة على التضعيف (نَجَّيۡنَٰكُم) وفي الأعراف (أَنجَيۡنَٰكُم)، حيث إنه لما كان موضع البقرة لتعداد النعم والآلاء، فقد عمدت لغة الخطاب إلى ما يناسبه، من خلال التضعيف الدال على الكثرة، ذلك أنهم كانوا يتعرضون لأبشع ألوان العذاب من فرعون وقومه، وفي إنجائهم نعمة عظيمة تستدعي منهم إيماناً سريعاً.

---

[1] انظر، الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص76.

[2] انظر، ابن الحاجب، جمال الدين: **الشافية في علم التصـريف**. ج(1). تحقيق: حسن أحمد عثمان. ط(1). مكة المكرمة: المكتبة المكية. 1995. ص19 - 20.

[3] سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب**. ج(4). ص64. وانظر، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص483.

أما ترك التضعيف في الأعراف، فلعله تقريع لهم وتأنيب، والقرآن الكريم كما يرى **(السامرائي)**: " يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهل في التنجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها. فإن أنجى أسرع من (نجّى) في التخلص من الشدة والكرب...، فإنه لمّا كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل (أنجى) بخلاف البقاء مع آل فرعون، فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل له (نجّى) "[1]، فالتفصيل في سورة الأعراف اقتضى ذلك الإسراع في إنجائهم، فقال (أنجيناكم).

أما قوله في البقرة: (وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ) **{البقرة: 57}**، وقوله في سورة طه: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ) **{طه: 80}**، فقد قال **(السامرائي)**: " ذهب جماعة إلى أنّ (نزّل) يفيد التدرج والتكرار، وأن الإنزال عامّ. وقيل: إن ذلك هو الأكثر، وليس نصاً في أحد المعنيين "[2]، ومن ذلك: سمي الكتاب تنزيلاً، فاستخدم مع القرآن الكريم اللفظ (نزّل) الدال على التنزيل المنجّم، الذي يقتضي التفصيل، أما مع التوراة فاستخدم اللفظ (أنزل) الدال على نزوله على موسى υ دفعة واحدة، في وقت واحد.[3]

وما دامت سورة البقرة تهدف إلى تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد عمدت لغة الخطاب إلى اللفظ (أنزلنا) الدال على النعمة في كمالها ونضوجها، فلا حاجة إلى التدرج في التعبير عن الإنزال من خلال اللفظ (نزّل) الدال على التدرج، والسياق في هذا الموضع بالذات تناول مجموعة من النعم في آية واحدة، لغرض التعداد، فذكر إنجاءهم من فرعون وتظليلهم بالغمام وغير ذلك من النعم.

ثمّ إنه عمد إلى اللفظ (أنزلنا) في البقرة لغرض التنويع في الصيغ؛ ذلك أنها سبقت باللفظ (وظللنا)، قال تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ} **{البقرة: 57}**.

أما في سورة طه، وهي سورة مكية نزلت قبيل إسلام عمر بن الخطاب τ، فكانت لغة الخطاب تهدف إلى التسلية عن النبيّ ρ، وتثبيته ومن معه من المؤمنين، فذكرت قصة موسى

---

[1] السامرائي، فاضل صالح: **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**. ص70-71.

[2] **السابق نفسه**. ص63.

[3] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(3). ص283.

υ، ونعم الله عليه وعلى قومه، بأسلوب يعجّ بالتلطّف، ثمّ أخذت تفصّل في الحديث عن بني إسرائيل لاستخلاص العبر والعظات في حتمية الصراع بين الحق والباطل، لتخلص في النهاية إلى أن العاقبة للمتقين.

ولمّا كان الأسلوب في طه ينزع إلى التفصيل، ذكر اللفظ (نزّلنا) الدال على التدرج والتكرار، لإظهار النعمة وهي تتدفق على بني إسرائيل، نتيجة طاعتهم لنبيهم موسى υ، واستجابتهم لأمر الله تعالى في الخروج من مصر والتوجه إلى بيت المقدس.

يظهر لنا أن السياق هو المحدِّد الرئيس لهذه الدلالة أو تلك، وهو الملاذ للمتمعن في كتاب الله Y لاستخلاص المعاني والعبر.

رابعاً: أثر السياق في تخيّر المشتق

قال تعالى في سورة المائدة: {وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ} **{المائدة: 41}**، وقال أيضاً: {سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ} **{المائدة: 42}.**

عمدت لغة الخطاب إلى تخيّر الصيغة (فعّال) وهي صيغة مبالغة، للتعبير عن كثرة سماعهم للكذب، وكثرة أكلهم للحرام، في إشارة إلى انغماسهم في المعاصي والذنوب دون رادع أو خشية، ولعلّ من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنّ هذين السلوكين (سمّاعون للكذب)، و(أكّالون للسحت) وردا بصيغة المضارع كذلك، (يسمعون)، و(يأكلون)، وفي ذلك إشارة إلى التجدد في السلوك، حتى بات معلماً من معالم هذه الشخصية.[1]

وهنا لا بدّ من الوقوف على أثر السياق في تخيّر هذين اللفظين لا سيما في هذه السورة؛ حيث إن سورة المائدة وهي سورة الحسم الخطابيّ، أخذت تشنّ هجوماً عنيفاً على يهود، وتفضح أساليبهم، وتصف حقائقهم، فهي الفاضحة بالنسبة ليهود، ولأجل ذلك جاءت لغة الخطاب متضمنة هذا المعنى، من خلال صيغة المبالغة (سمّاعون) و(أكّالون)، من هنا فإن اختيار هذه الصيغة في سورة المائدة دون غيرها إنما يعبّر عن المحور الرئيس الذي يكاد ينتظم في كلّ هذه السورة، وهو إعلان الحرب على يهود.

---

[1] انظر، **سورة المائدة:** 42. وصافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.** مج(3). ج(6). ص357.

ولم تقتصر لغة الخطاب على هذا النوع من الصيغ الاشتقاقية، بل عمدت إلى الصفة المشبهة الدالة على الفاعل، كاستخدام (الأليم) بمعنى (المؤلم)، و(الحريق) بمعنى (المحرق)، فلنلاحظ قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} **{البقرة: 174}**، إذ جيء باللفظ (أليم) وهو بمعنى (مؤلم)، وفي قوله تعالى: {وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} **{آل عمران: 181}**، جيء باللفظ (الحريق) بمعنى (المحرق)، ويأتي ذلك لتبشيع صورة العذاب، ولتجسيم هذا المشهد " بهوله وتأججه وضرامه.. جزاء على الفعلة الشنيعة: قتل الأنبياء بغير حق، وجزاء على القولة الشنيعة: إن الله فقير ونحن أغنياء "[1].

وكذلك نجد لغة الخطاب عمدت إلى الصفة المشبهة (فعيل) بمعنى (مفعول)، ففي قوله تعالى: {فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} **{النساء: 53}** استخدم اللفظ (نقير) بمعنى (منقور)، فكأنه أراد: شيئاً منقوراً، لأن النقرة إنما تكون في ظهر النواة، أو ما ينقر في الحجر أو الخشب، وهو مثل يضرب للشيء الطفيف، وفي هذا دقة في الوصف، وبراعة في التصوير، في إشارة إلى ما يتصفون به من البخل والشح.[2]

خامساً: أثر السياق في تخيّر صيغة الجمع

لتخيّر صيغة الجمع مغزى يهدف السياق إلى تحقيقه، ولغة الخطاب في بني إسرائيل جاءت متضمنة لبعض الجموع الدالة على الكثرة أو القلة بما يتفق ومحور السياق.

فلنلاحظ، مثلاً، قوله تعالى: (نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ) **{البقرة: 58}**، وقوله أيضاً: (نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ) **{الأعراف: 161}**، نجد أن لغة الخطاب في البقرة عمدت إلى جمع التكسير وهو جمع كثرة في الغالب، يدل على العشرة فما فوق، في حين عمدت إلى جمع المؤنث السالم وهو جمع قلة، يدل على الثلاثة فما فوقها إلى العشرة.[3]

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج (2). ج(4). ص177.

[2] انظر، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص505. وصافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مج(3). ج(5). ص63.

[3] لجمع القلة في جمع التكسير أربعة أبنية: أَفْعُل، وأفعال، وأَفْعِلةٌ، فِعْلَةٌ. وما عداها فهو جمع كثرة غالباً. أما جمعا السلامة فهما جمعا قلة. انظر، ابن عقيل، بهاء الدين: **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**. مج(2). ج(4). ط(20). القاهرة: مكتبة دار التراث. 1980. ص114.

لمّا كان السياق في البقرة يتضمن تعداد النعم، جيء بالجمع (خطاياكم) الدال على الكثرة؛ لما يفيده من كثرة الخطايا، وتجاوزه تعالى عن هذه الخطايا من أهمّ النعم التي أنعمها على بني إسرائيل، إذ إنه رغم كثرتها وعظمها يبقى هناك أمل كبير في المغفرة.[1]

أما في سورة الأعراف، وهي سورة التأريخ لأحداث بني إسرائيل، لأجل التعنيف عليهم، نتيجة كفرهم ومعصيتهم، فقد جاءت لغة الخطاب لتتخيّر الجمع (خطيئاتكم) الدال على القلة، وكأنّ المغفرة لا تتحقق إلا لبعض الخطيئات القليلة، غير العظيمة، وفي ذلك إشارة إلى تحذير القوم من الارتكاس في الذنوب والمعاصي، ودفعهم إلى الإيمان، والتصديق بنبوة الرسول ρ.

وكذلك الأمر في قوله تعالى: (وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ) **{البقرة: 61}**، وقوله في آل عمران: (وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ) **{آل عمران: 112}**.

ولعل انتقاء الصيغة على التكثير في سورة البقرة من خلال استخدام الجمع(ٱلنَّبِيِّـۧن) وهو جمع قلة، يظهر أثر السياق في توجيه هذا الانتقاء، لأنّ سورة البقرة كانت خطاباً للمعاصرين للنبيّ ρ، بقصد تذكيرهم بالنعم التي أنعمها الله على أسلافهم، ولم يكن المقصود مواجهتهم؛ لا سيما أنها من أوائل السور التي نزلت في المدينة، فجاء الخطاب بصيغة جمع القلة ليتوافق والمحور الرئيس لهذه السورة.[2]

أما في سورة آل عمران، التي جاءت محاججة لوفد من نصارى نجران وأحبار من يهود المدينة، كما مرّ آنفاً، فالأمر يتطلب وصفاً ممعناً في الدقة لأولئك القوم عما فعله أسلافهم من قتل الأنبياء والمصلحين، ثمّ إنّ آيات آل عمران جاءت لتحذّر اللاحقين من أفعال من سبقهم ممن لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة. والله تعالى أعلم.

---

[1] انظر، الشثري، صالح بن عبد الله: **المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية**. (رسالة دكتوراة غير منشورة). جامعة أم القرى: مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية. 2001. ص189.

[2] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص240.

سادساً: سياقات الذكر والحذف

تناول البلاغيون في مباحث علم المعاني ظاهرة الذكر والحذف في أحوال المسند والمسند إليه، وما تخرج إليه من معان بلاغية يمكن استخلاصها من خلال السياق.[1]

والحذف بوصفه أسلوباً تحويلياً، يسهم في الكشف عن كثير من المعاني العميقة والأسرار الجمالية الجمّة، من خلال ما يتضمنه من إيجاز ورمزية، وأسرار جمالية يحسها المتلقي، ويعيش مع إيحاءاتها التي تبدو تصويرية في كثير من الأوقات. على أن لا يسهم هذا الحذف في إضعاف المعنى، وتفتيته، بل يعمد إلى تكثيفه وشدّ أزره، فيجمع ما بين القوة في التركيب والدقة في البيان.[2]

وإذا كانت ظاهرة الحذف في المسند والمسند إليه تحقق معاني بلاغية، فإنها كذلك في حذف بعض قيود الجملة ومتعلقاتها، كحذف الصوت أو اللفظ أو الأداة أو الجملة، مما يشكل فسحة كبيرة للتعبير البلاغي، لا سيما تلك التي يكون فيها الحذف عدولاً عن المألوف، وانزياحاً عن القاعدة المعيارية المعروفة؛ التي يكون فيها " ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد في الإفادة "[3].

وهنا تتجلّى القيمة البلاغية والمعنوية للسياق؛ ذلك أن المعنى " يفهم من السياق أكثر مما يفهم من الوحدات الصريحة التي تؤلفه، أي أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تعزى بشكل بسيط إلى وحدة معينة، أو وحدات مضمومة بطريقة آلية "[4].

والذي يعمد إلى قراءة النص القرآني في بني إسرائيل يجد كثيراً من ألوان الحذف البلاغيّ في لغة الخطاب، كحذف الصوت، كما في قوله تعالى: (فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) **{المائدة: 44}**. حيث حذف ياء المتكلم. وقوله في البقرة: (فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي) **{البقرة: 150}**. بإثبات ياء المتكلم؛ ذلك أن سياق البقرة هو الحديث عن القبلة وأمر تحويلها، وبث اليهود

---

[1] انظر، الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص112. والسكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص176. والقزويني، جلال الدين محمد: **التلخيص في علوم البلاغة**. ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي. ط(2). مصر: دار الفكر العربي. 1932. ص53.

[2] انظر، أبو موسى، محمد: **خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**. ط(2). القاهرة: مكتبة وهبة. 1980. ص213. وعطية، مختار: **الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. 1997. ص252.

[3] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص146.

[4] ناصف، مصطفى: **نظرية المعنى في النقد العربي**. ط(2). القاهرة: دار الأندلس. 1981. ص161-162.

للشائعات، فهو مقام طويل، تعمد لغة الخطاب فيه إلى التفصيل. أما في سورة المائدة، فجـاءت في مقام الإيجاز؛ إذ يتضمن السياق الحديث عن التوراة فحسب.

فلما كان المقام مقام تفصيل وإطالة، عمدت لغة الخطاب إلى إثبات ياء المتكلم. ولما كان المقام مقام إيجاز واقتضاب، عمدت لغة الخطاب إلى حذف ياء المتكلم.[1]

ولعلّ ذكر ياء المتكلم في البقرة يتضمن معنى التعظيم للمنعم الـذي أنعـم علـى بنـي إسرائيل بالنعم الكثيرة، أما في المائدة فكان الخطاب يتضمن معنى التهديد والوعيد لأولئك الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.

وكذلك في قوله: (وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ) **{البقرة: 40}**. وقوله: (وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ) **{البقـرة: 41}**.

ذلك أن سياق الخطاب في البقرة يتضمن ذكر النعم، دون التفصيل فيها، فقد عمد إلى حذف الياء.

ومن الحذف في لغة الخطاب حذف الكلمة، كما فـي قولـه تعـالى: (وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ) **{البقـرة: 51}**. وقولـه: (وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ) **{الأعـراف: 142}**. فذكر (إذ) في البقرة، وحذفها في الأعراف؛ ذلك أن سياق البقرة كان لتعداد النعم في بني إسرائيل، وهي سورة مدنية جاءت لتذكير اليهود المعاصرين للنبيّ ρ بالنعم التي أنعمها الله على أسلافهم، وهذا ما تتضمنه الكلمة (وإذ) أي: واذكر إذ.

أما في الأعراف، فقد جاءت أحداث هذه السورة بهدف التأريخ لبني إسـرائيل، وسـرد ملامحهم وتعنيفهم، ليكون في ذلك عبرة للجماعة المسلمة، فلما كـان السـياق سـياق تـأريخ وتفصيل، ولم يكن سياق تذكير، فقد عمد إلى الحذف.[2]

وللمعنى نفسه، يذكر اللفظ (رَغَدًا) في البقرة، فيقول: (فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا) **{البقرة: 58}**. ويحذفه في الأعراف: (وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ) **{الأعراف: 161}**.

ومن ذلك أيضاً، أنه ذكر كلمة (ليلاً) في الدخان، وذلك قوله: (فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) **{الدخان: 23}**. وحذفها في سورة طه.[3]

---

[1] انظر، السامرائي، فاضل صالح: **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**. ص24-25.

[2] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص195.

[3] انظر، **سورة طه:** 77.

والسّرى لا يكون إلا بالليل، وجيء باللفظ (الليل) للتأكيد؛ ذلك أن سياق سورة الدخان يتناول محور الهجرة لبني إسرائيل كموضوع رئيس فيها، ولكي تكون الهجرة موفقة لا بدّ من السير ليلاً، وهذا من الأخذ بالأسباب. لا سيما أن سورة الدخان، وهي مكية، تمثل إرهاصاً للهجرة النبوية المحمدية، وكأنّ في ذلك توجيهاً للمسلمين بالسير ليلاً.[1]

أما في سورة طه، وهي تحمل ما تحمله من معاني التلطف والأناة والرفق، فالأولى ترك ذكر الليل إمعاناً في تحقيق ذلك المعنى.

ومن أنواع الحذف في لغة الخطاب حذف الجملة، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ) {الأعراف: 150}. وقوله في طه: (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا) {طه: 85}. ففي طه ذكر جملة النداء (يَٰقَوۡمِ) وفي الأعراف حذفها؛ ذلك أن الخطاب في الأعراف يتسم بالعمومية؛ إذ يشمل الذين عبدوا العجل، والذين لم يعبدوه. ولو أنه ذكرها لكان المخاطبون كلهم مستخلفين، وهذا غير جائز.[2]

أما في سورة طه، فالخطاب لقومه العصاة، وهو يعجّ بأسلوب التودد والتلطف، أملاً في تحقيق الهداية لهم، وإن تضمن معنى التوبيخ والتقريع.

وتجدر الإشارة إلى أن سياق الأعراف، وهو التأريخ لبني إسرائيل وتعنيفهم وتحذيرهم، دفع إلى حذف جملة النداء؛ لما تتضمنه من معاني التلطف والتودد، أما السياق في طه، وهي مكية، فهو يهدف إلى التلطف بالنبي ρ، وتثبيته في مواجهة الأعداء، ويعرض لقصة موسى υ بأسلوب يعجّ بمظاهر الأناة والرحمة والرفق.

وكأن الحذف أداة للتعبير عن الانفعال، فهو في الأعراف ينمو ويتطور ويأخذ أبعاداً تعنيفية على بني إسرائيل، وهو على عكس ذلك في طه.[3]

---

[1] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(7). مادة **(سرا)**. ص179. والراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**. ص237.

[2] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(2). ص155.

[3] انظر، جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ص55.

ولهذا نجد أن لغة الخطاب تعمد إلى تأكيد هذا المعنى، من خلال تصوير المشهد بعنفه وقوته ووقعه على موسى υ، ففي الأعراف ذكر قوله تعالى: (وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ) **{الأعراف: 150}**. أما في طه فعمد إلى الحذف.

ولمّا كانت سورة طه تعج بمظاهر التلطف والتودد، فقد ذكر قول هارون لأخيه: (يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ) **{طه: 94}**. أما في الأعراف فحذف حرف النداء الدال على الاستعطاف، الذي يزيد من معنى التودد والتلطف.[1]

ومن ذلك أيضاً، قوله في البقرة: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ) **{البقرة: 57}**. وكذلك في الأعراف.[2] وحذفها في طه. ففي البقرة وهي لتعداد النعم لا بد من ذكرها كواحدة من نعم الله على بني إسرائيل، وفي الأعراف، لا بدّ من ذكرها كحدث تاريخيّ وقع في بني إسرائيل.

أما في طه، وهي السورة التي تسرد أحداث ما قبل التظليل، عمدت لغة الخطاب إلى الحذف؛ لكي لا يحدث خلط في التفصيل التاريخي لقصة بني إسرائيل.[3]

ومن أنواع الحذف أيضاً في لغة الخطاب، حذف شبه الجملة، نحو قوله في النساء: (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ) **{النساء: 153}**. إذ ذكر شبه الجملة (بظلمهم) في النساء وحذفها في البقرة[4]؛ ذلك أن سياق سورة النساء يتضمن تعداد أسباب العقوبات التي حلّت ببني إسرائيل عبر العصور، ولمّا كان ذلك هو محور السياق في النساء، عمدت لغة الخطاب إلى ذكر الظلم كظاهرة أصيلة في بني إسرائيل، وكسبب رئيس فيما حلّ بهم من العقوبات والويلات. أما في سورة البقرة، وهي لتعداد النعم كما مرّ آنفاً، فكان من الأولى الحذف.[5]

يظهر لنا أنّ الذكر يمثل جانباً موضوعياً في الصياغة اللغوية، وهو كذلك لا يخلو من معان إضافية يستدعيها السياق أو الحال، وبذلك يكون للذكر أثر في توجيه الدلالة في بعض السياقات، كما يكون للحذف أهمية في توجيه الدلالة في سياقات أخرى.

---

[1] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص323.

[2] انظر، **سورة الأعراف**: 157.

[3] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص207.

[4] انظر، **سورة البقرة**: 55.

[5] انظر، **سورة النساء**: 154-157.

فقد تعمد لغة الخطاب إلى حذف المفعول؛ لشناعة ذكره، كما في قوله تعالى:(ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ) **{البقرة: 51}**. إذ حذف المفعول الثاني للفعل (اتخذتم)، والتقدير: (ثـمّ اتخـذتم العجل إلهاً ومعبوداً من بعده)، وذلك " لشناعة ذكره، ولعلمهم هم بأنهم قد اتخذوه إلهاً "[1].

ومن ذلك أيضاً قولـه: (فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) {طه: 83}. أي: فنسي موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو ههنا، فقد عمد إلـى الحذف لشناعة ذكره.[2]

ومن حذف المفعول ما يفيد إطلاق معنى اللفظ، كقوله تعالى على لسان موسـى υ: (إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ) **{الأعراف: 138}**. لم يقل ماذا يجهلون..؛ " ليكون في إطلاق اللفظ مـا يعنـي الجهل الكامل الشامل.. الجهل من الجهالة ضد المعرفة، والجهل من الحماقة ضد العقـل! فمـا ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود "[3].

وقد يكون الحذف لترك ما لا ضرورة لذكره، لوضوحه من خلال السياق، وهـذا ممـا " يكسب الكلام قوة وجمالاً "[4]، كقولـه تعـالى: (لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ) **{آل عمران: 113}**. والتقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى.[5] وقد يكون في عدم ذكرها إبعاد لها وتلـويح بقـبح صورتها، وسوء فعلها.

ومن الحذف ما يكون للابتعاد عن التكرار، نحو قوله: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ) **{النساء: 44}**. والتقدير: (يشترون الضـلالة بالهدى) لكنه حذف منعاً للتكرار، فقد ورد في البقرة قوله: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ) **{البقرة: 175}**.

---

[1] طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ص357.

[2] انظر، أبو شادي، مصطفى عبد السلام: **الحذف البلاغي في القرآن الكريم**. د.ط. القاهرة: مكتبة الإيمان. 1992. ص63.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(3). ج(9). ص629.

[4] مطلوب، أحمد: **أساليب البلاغية**. ط(1). الكويت: وكالة المطبوعات. 1980. ص161.

[5] انظر، الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. مج(3). ج(8). ص187.

ومن ذلك أيضاً حذف الموصوف والإبقاء على الصفة لإثباتها، كقوله تعـالى: (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنۡهُمۡ) {المائدة: 13}. أي: ولا تزال تطلع على فئة خائنة منهم، يقـول (قطـب): " الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة.. يجملها النص بحذف الموصـوف وإثبات الصفة (خائنة)، لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القـوم، فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم مع الرسول ρ ومع الجماعة المسلمة "[(1)].

وهكذا كان لدراسة الحذف أو الذكر في ضوء السياق أهمية بالغة فـي الوقـوف علـى المعنى البلاغيّ للنص القرآنيّ، لا سيما أن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف " ينبغي أن يكـون هو الفارق بين مقررات النظام اللغويّ، وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي "[(2)].

سابعاً: سياقات التقديم والتأخير

يشكل أسلوب التقديم والتأخير مظهراً من مظاهر الدراسة الأسلوبية في القرآن الكـريم، فهو أسلوب بلاغيّ يهدف إلى تحقيق معان بلاغية تضفي على النص قيمة جمالية، فيمـا تحققـه من تفاعل نفسيّ وشعوري، فلنلاحظ قوله تعالى: (وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ) {البقرة: 40}. وما يفيده هـذا التقديم من الاختصاص، وما يضفيه من شعور نفسيّ بالرهبة الحاصلة والخاصة له سبحانه، إنها رهبة العبد وشعوره بالذلة والخضوع أمام عظمة الخالق جل في علاه.

يقول (بدوي): " حرصت الجملة في القرآن، على أن يكون هذا التقـديم، مشـيراً إلـى مغزى، دالاً على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسيّ، يتقدم عنـدها مـا تجـد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلاً بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يـدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعني، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فـلا جرم أن يتقدم في الجملة كما تقدم في النفس، ويدعو البلاغيون هذا التقديم بالاختصاص"[(3)].

ولا تتحقق القيمة البلاغية للتقديم والتأخير كظاهرة أسلوبية إلا من خلال ما تمثلـه مـن عدول يسهم في الكشف عن الجماليات البلاغية واللغوية والنفسية للنصّ الأدبي أوالقرآنيّ.

[(1)] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(6). ص678.

[(2)] حسان، تمام: **اللغة العربية معناها ومبناها**. ط(1). القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة. 1973. ص298.

[(3)] بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ص90.

فالتقديم والتأخير وسيلة من وسائل النحو التحويليّ، يتمّ فيه تحويل الجملة من فعلية إلى اسمية، ومن اسمية إلى فعلية، وما يفيده ذلك من إبراز العناية والاهتمام[1]، وهو " باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة، ويُفْضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعْراً يروقك مسمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان "[2].

ولا يقتصر التقديم أو التأخير على المسند أو المسند إليه، بل يتعداهما ليشمل كذلك المتعلقات والتوابع التي تأتي تالية لهما، ويكون للتقديم أو التأخير لهذه المتعلقات ميزة إضافية يمكن أن تسهم في تحقيق اعتبارات ودلالات أخرى يتضمنها السياق.[3]

يغلب على أسلوب التقديم والتأخير في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل جملة من المعاني التي تهدف إلى تعنيف بني إسرائيل، وتأكيد سماتهم وأوصافهم، وتصوير واقعهم المليء بالصور السلبية، ومن ذلك تقديم المفعول وما يفيده من الاختصاص، نحو قوله تعالى:(سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ) **{الأعراف: 177}**. كأنه قيل خصوا أنفسهم بالظلم، واتسموا بهذا الوصف ولم يتعدّوا إلى غيره.[4]

ومن ذلك قوله: (كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) **{المائدة: 70}**. إذ قدّم المفعول على الفعل والفاعل، لتشويق السامع إلى ما فعلوا؛ ذلك أن التكذيب والقتل وإنْ كانا منكرين، إلا أن تكذيب الأنبياء وقتلهم أقبح، فكان التقديم لهذه الفائدة.[5]

وقد يعمد إلى تأخير الفعل عن مفعوله، لتأكيد سمة من سمات بني إسرائيل، نحو قوله: (وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) **{الأعراف: 154}**. وتأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً، إشارة إلى ضعف الرهبة في قلوبهم.[6]

---

(1) انظر، سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب**. ج(1). ص55-56.

(2) الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص106.

(3) انظر، الهاشمي، أحمد بن إبراهيم: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**. ط(12). د. مكان نشر. د.ت. ص90.

(4) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(2). ص168.

(5) انظر، الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(12). ص55.

(6) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(2). ص154.

ولمّا كان بنو إسرائيل يتصفون بهذه الصفات وغيرها، فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وحرموا النصر والتمكين في الدنيا والآخرة، وأسلوب التقديم للمسند إليه يؤكد هذا المعنى، من خلال قوله تعالى: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) {البقرة: 48}. قدّم المسند إليه في قوله (وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) " لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق، فضلاً عما استفيد من نفي الفعل، وإسناده للمجهول "[1].

ولا يقتصر التقديم في لغة الخطاب على الكلمة، بل هناك تقديم للجمل بعضها على بعض، كقوله تعالى: (فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ) {المائدة: 44}. فتقديم الخشية على الاشتراء ممعن في الدقة والوصف؛ ذلك أن " إقدام القوم على التحريف لا بد أن يكون لخوف ورهبة، ولمّا كان الخوف أقوى تأثيراً من الطمع قدم تعالى ذكره، فقال: (فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ)... ولما ذكر أمر الرهبة أتبعه بأمر الرغبة، فقال: (وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ) أي: كما نهيتكم عن تغيير أحكامي لأجل الخوف والرهبة، فكذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة "[2].

وثمة مواضع للتقديم والتأخير من المتشابه اللفظي في لغة الخطاب، كقوله تعالى: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) {البقرة: 48}. وقوله أيضاً: (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) {البقرة: 123}.

ففي الآية الأولى قدم ذكر الشفاعة على العدل، وفي الثانية قدم ذكر العدل على الشفاعة، والشفاعة مصدر من قول الرجل شفع لي فلان إلى فلان شفاعة، وهو طلبه إليه في قضاء حاجته.[3] أما العدل فهو الفدية، وقيل للفدية من الشيء عدل، لمعادلته إياه.[4]

---

(1) طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة.** ص348. وانظر، شيخون، محمود السيد: **أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم.** ط(1). القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية. 1983. ص42.

(2) الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير.** ج(12). ص4-5.

(3) انظر، ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **مقاييس اللغة.** ج(3). مادة **(شفع)**. ص201.

(4) الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن.** ج(1). د.ط. بيروت: دار الفكر. 1405هـ. ص637.

وتجدر الإشارة إلى أن حديث الآيتين كان عن نفسين اثنتين: الأولى النفس الجازية، والثانية النفس المجزية.

وسياق الآية الأولى جاء في بداية الحديث عن بني إسرائيل، أما سياق الآية الثانية، فجاء بعد سرد طويل لأحداث بني إسرائيل من النعم والعقوبات.

والآيتان تبددان وهم اليهود فيما يدّعونه من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم سيبذلون الفدية التي ستنجيهم من هول يوم القيامة ووعيده. وبهذا لا بد للغة الخطاب أن تتضمن الحديث عن كل نفس وتنكر عليها ما تزعمه من أكاذيب وتضليل.

فالآية الأولى في النفس الجازية، والآية الثانية في النفس المجزية؛ ذلك أن قوله (**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ**) في الآية الثانية يدل على ذلك، فالنفع يكون للنفس المجزية لا النفس الجازية. والسياق يؤيد ذلك، حيث إن سياق الآية الأولى كان في الحديث عن أحبار اليهود وكتمانهم لأمر رسول الله ρ، فجاء الخطاب لينفي هذا الوهم الذي قد يستولي على عقولهم، ليظهر لنا هذه الشخصية عاجزة كليلة لا تملك أن تشفع لأحد يوم القيامة، فقدم ذكر الشفاعة نافياً قبولها من الشافع، ثمّ ثنى بذكر العدل، ونفى فائدته بلفظ الأخذ، وهو لفظ أعمّ من لفظ القبول، حتى يشمل العدل الذي تقدمه النفس الشافعة من مالها أو من مال المشفوع له. أما في حديث الآية الثانية عن النفس المجزية، فقد جاءت بعد عرض طويل وسرد مفصل لقصة بني إسرائيل، لتأخذ لغة الخطاب بعداً جديداً في التأسيس للعلاقة الجديدة بين المسلمين واليهود، فهي نفس لم تستجب لنداء الحق، بل ضلت وأضلت كثيراً، فلن يقبل منها فدية يوم القيامة، وليس هذا فحسب بل تعمد لغة الخطاب إلى أسلوب التيئيس، وذلك قوله: (**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ**) دلالة على أنها قد تقبل من غيرهم، لكنها غير مقبولة منهم، ولن تنفعهم أبداً.[1]

ومن ذلك قوله في البقرة: (**وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ**) **{البقرة: 58}**. وقوله في الأعراف: (**وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ**) **{الأعراف: 161}**. فلما كان محور الحديث في سورة البقرة تعداد النعم التي أنعمها الله على بني

---

[1] انظر، الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج(1). ط(4). بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1985. ص 252. والشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص184-185.

إسرائيل، عمد إلى تقديم السجود، لأنه يتوافق ومحور السياق العام للسورة. أما في الأعراف وهي التي تنزع إلى تعنيف بني إسرائيل والتأريخ لأحداثهم الجسام، فعمد إلى تقديم قوله: (وَقُولُواْ حِطَّةٌ) تذكيراً لهم بأنهم أهل عصيان وفجور؛ إذ لم يلتزموا أمر الله، بل غيّروا وبدّلوا.[1]

ولنلاحظ قوله في البقرة: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ) {البقرة: 61}. وقوله في آل عمران: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ) {آل عمران: 112}. حيث جاء الترتيب في البقرة على النحو الآتي: الذلة، والمسكنة، والغضب. وفي آل عمران، بدأ بالذلة والغضب والمسكنة.

والذلة لفظ جامع للذل والصغار، وقيل: القتل، والأسر، والسبي، وأخذ الأموال، وفرض الجزية، وغير ذلك مما قد يُنزل المرء مكاناً ذليلاً يكون فيه حقيراً مهاناً.[2] أما المسكنة فهي الفقر؛ إذ يسمى الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده.[3]

ولعل السياق هو ما يجلّي لنا حقيقة الأمر، ذلك أن سياق البقرة جاء في مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين للنبي ρ، يذكرهم بالنعم التي أنعمها الله على أجدادهم، ويحذرهم من العصيان والتمرد فيصيبهم ما أصاب سابقيهم من الويلات والعقوبات، فجاء على ذكر ما هو أشد على نفوسهم وأعظم أثراً فيهم، إذ بدأ بالذلة التي تذكرهم بأسوأ أحوالهم عبر العصور، من التشرذم والتفرق والتشتت من بلد لأخرى. ثم جاء على ذكر المسكنة، وهي الفقر الماديّ والمعنوي، ذلك أن قلوبهم كانت فقيرة خاوية من مخافة الله تعالى، وهي على كل حال ليست في نفوسهم بمنزلة الذلة. ثمّ جاء على ذكر الغضب من الله، وهو ما لم يلتفت إليه بنو إسرائيل طول حياتهم، ولأجل هذا عمد إلى تأخير ذكره.

أما في آل عمران، فالخطاب للنبيّ محمد ρ وللجماعة المسلمة، يبصرهم بحال اليهود تجاههم، ولأجل ذلك بدأ بالذلة لتقبيح صورتهم، فتنفر منها النفس، ويتجرد من حبها القلب، ثمّ يأتي على ذكر الغضب، وما يمثله هذا من مكانة في فهم المسلمين، ذلك أنهم يحبون من يحبه

---

[1] انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. ج(1). ص277.

[2] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). 292.

[3] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(7). مادة **(سكن)**. ص220.

الله، ويبغضون من يبغضه الله. ثم ينتهي بذكر المسكنة التي لا مكانة لها عند المسلمين بعد ذكر الذلة والغضب، وبهذا يدرك المسلمون ضرورة الأخذ على أيدي اليهـود بكـل قـوة، دون أن تأخذهم في ذلك رحمة أو شفقة.[(1)]

ثامناً: سياقات التعريف والتنكير

تشكل سياقات التعريف والتنكير ظاهرة جلية في لغة الخطاب القرآنيّ لبنـي إسـرائيل، تسهم في تحقيق معان بلاغية تنسجم ومحور الآيات كلها، ولعل القيمة الجمالية لأسلوبي التعريف والتنكير هو فيما يحدثانه من أثر في المتلقي.

أولاً: التعريف

والمعرفة تأتي بخلاف النكرة، فهي " ما دلت على شيء بعينه "[(2)]، وتضم: الضـمائر، والعلم، واسم الإشارة، والموصول، والمعرف بالألف واللام، ثمّ المضاف إلى واحد منها إضـافة معنوية. ولكل أداة من هذه الأدوات طعم خاص تختلف به عن غيرها، ويسهم في تحديد معنـى الكلمة، ومكانها، وقيمتها عند المخاطب.[(3)]

تعجّ لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل بهذا الأسلوب، الذي يسهم في تحقيق معـان بلاغية، يمكن استخلاصها وملاحظتها من خلال السياق.

فمن ذلك التعريف بالألف واللام، فتكون لتعريف عهد وجودي بين المتكلم والمخاطـب، كقولك: قدم الرجل، لمعهود بينك وبين المخاطب، وتسمى أل العهدية. وتكون لتعريـف الجـنس نحو قولهم: الرجل خير من المرأة، إذا قوبل جنس الرجال بجنس النساء، وتسمى أل الجنسية.[(4)]

ومن أجمل مواقعها أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس. كقوله تعـالى: (وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) {البقـرة: 53}. فكأنه قـال: آتينـاه الكتـاب المسـتكمل لخصائص جنسه، فهو الكتاب المتضمن للأحكام والشرائع، وهو المفرق بين الحق والباطل.[(5)]

---

(1) انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص239.

(2) العلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**. ج(2). مراجعة وتدقيق: جماعة من العلماء. د.ط. بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت. ص11.

(3) انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص178.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الأشباه والنظائر في النحو**. ج(3). ط(3). القاهرة: عالم الكتب. 2003. ص89-90.

(5) انظر، بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ص108.

وهو بذلك يتضمن معنى التشريف والتعظيم، لا سيما إذا كان معرفاً بالإضافة، نحو قوله: (وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) **{البقرة: 101}**. تعظيماً لقدر هذا الكتاب، وإجلالاً له.

ومما يفيده التعريف بالألف واللام قصر الصفة على الموصوف، والإحاطة بها، والشمول عليها، نحو قوله: (وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ) **{البقرة: 120}**. فإيراد (الهدى) معرفاً بأل في قوله (**هُو ٱلۡهُدَىٰ**) مع اقترانه بضمير الفصل يفيد " قصر الهداية على دين الله، فالإسلام هو الهدى كله، وما عداه هوى وعمى "[1].

وكذلك ما يفيده التعريف من التهويل والتصوير، وذلك في قوله تعالى: (وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ) **{البقرة: 55}**. فالتعبير بـ (ٱلصَّٰعِقَة) يسوق إلى الذهن مشهداً حياً محدداً، إنها صاعقة من السماء واضحة ضخمة بضخامة صوت الصاد الذي يعجّ بملامح التفخيم والصفير.

أما التعريف بالاسم الموصول، فله من المعاني البلاغية والجمالية ما لغيره من أنواع التعريف، فهو " ذو قدرة على التفصيل والتحديد، وفيه من الأسرار والخفايا ما يثلج الصدر ويفضي إلى اليقين وحسن التبيين "[2].

فقد يفيد التعريف بالصلة معنى التحديد والاختصاص، نحو قوله تعالى: (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ) **{البقرة: 59}**. ففي قوله (ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ) إشارة إلى أن من بني إسرائيل ثلة لم تبدل ولم تغيّر، وأن هذه المخالفة القولية والفعلية التي قام بها العاصون من بني إسرائيل، إنما هي خاصة بأولئك الذين ظلموا أنفسهم بغيّها وإضلالها، وظلموا نبيهم بعصيانه ومخالفة أمره.

---

[1] انظر، الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. ج(1). ص81.

[2] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص199.

ولما كانت قصة أصحاب السبت واضحة جلية عند اليهود المعاصرين للنبي ρ، عمدت لغة الخطاب إلى التعريف من خلال الاسم الموصول، نحو قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ) {البقرة: 65}. وما يتضمنه هذا التعريف من تفصيل، فهم على دراية كاملة بكل حيثيات هذا الاعتداء.

وقد يفيد التعريف بالاسم الموصول معنى التعريض والإبعاد، كقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) {آل عمران: 77}. إنهم معروفو الاسم والهوية، تكتفي لغة الخطاب بصيغة الموصول للتعبير عن قبح فعلهم، وسوء أخلاقهم.

وكذلك عمدت لغة الخطاب إلى أسلوب التعريف بالإضافة، لا سيما في جملة النداء، كقوله:(يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) {البقرة: 40}. وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ) {النساء: 48}. وقوله: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ) {المائدة: 19}. ولعل هذا الأسلوب يتضمن معنيين متقابلين، الأول: وهو الترغيب في دعوة بني إسرائيل، فنسبتهم إلى إسرائيل وهو يعقوب υ، ونسبتهم إلى الكتاب وهو كتاب الله Y، يدفعهم إلى الإيمان والتصديق بنبوة محمد ρ.

أما المعنى الآخر، فيظهر من خلال ما يتضمنه هذا الأسلوب من معاني التأنيب والتوبيخ والتقريع؛ ذلك أنه كان من الأجدر بهم، وهم من أبناء الأنبياء، وهم أهل كتاب سماوي، أن يستجيبوا لدعوة محمد ρ، لكنهم لم يفطنوا إلى هذا المعنى؛ لأنهم أهل لجاجة وكفر وعصيان.[1]

وقد يفيد التعريف معنى التهويل والتعظيم من خلال اسم الإشارة، كقوله تعالى: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ) {آل عمران: 112}[2]. وغالباً ما يأتي اسم الإشارة (ذلك) في ذكر أسباب العقوبات والويلات، إذ يخاطب اليهود المعاصرين للنبي ρ، فيذكرهم بما فعل أسلافهم، من خلال استخدام اسم الإشارة الدال على البعيد، لإظهار بعد الفترة الزمنية، وتهويل العقوبة التي حلت بهم من قبل.

---

[1] انظر، طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ص543.

[2] انظر أيضاً، **سورة آل عمران**: 182. و**الأنعام**: 146. و**الأعراف**: 146. و**الحشر**: 4. 13. 14.

ثانياً: التنكير

تعددت المعاني البلاغية للتنكير في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، يمكن استخلاصها والوقوف على دلالاتها من خلال السياق، فكلمة (حياة) في قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ) {البقرة: 96}. تدل على معناها المجرد. والسياق يمنحها معنى إضافياً يتضمن معنى التحقير، فالمراد هنا بيان حرص هؤلاء على مطلق حياة، فلا يعنيهم أن تكون هذه الحياة رفيعة أو وضيعة، إذ يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة، ولهذا يأتي النص القرآني بأسلوب التنكير للتنديد بهم.[1]

وقد يفيد التنكير معنى التهويل، كقوله تعالى: (وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) {البقرة: 48}. فلنلاحظ التنكير في قوله (يَوْمًا) أي: يوماً شديد الهول، وما يضفيه هذا المعنى من رهبة وقوة. ثمّ التنكير في قوله: (نَفْس) وما يفيده ذلك من أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقناط الكليّ القطّاع للمطامع.[2]

وهنا نجد أن لغة الخطاب تستثمر هذا الأسلوب البلاغي للتعبير عن التفخيم والتهويل والتعظيم، فلنلاحظ قوله: (وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) {البقرة: 49}. ففي تنكير (بَلَآء) و (عَظِيم) تصوير لهول ما واجهه بنو إسرائيل من ظلم فرعون وجنوده، وتفخيم للأحداث، وكأن تذكير المخاطبين بهذا المشهد العظيم يدفعهم للإيمان والتوبة والتصديق بالنبي محمد ρ.

وتأتي لغة الخطاب لتأخذ مسلكاً أسلوبياً آخر يتضمن معنى التحذير من خلال التنكير وما يفيده من معاني التكثير والتهويل، نحو قوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ

---

[1] انظر، بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ص102.

[2] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). 164-165. والفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(3). ص54.

وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولاً) {النساء: 47}. ففي إبهام اللفظ (وُجُوهًا) ما يفيد معنى التكثير والتهويل لحال أولئك الذين تحايلوا على أنفسهم، وظنوا أنهم بمنأى عن قدرة الله تعالى، ولعل هـذا الأسـلوب يتضمن معنى التحذير للأمة المعاصرة حتى لا تسلك المسلك ذاته فيصـيبها مـا أصـاب بنـي إسرائيل من قبل.

وتجدر الإشارة إلى أن سياقات التعريف والتنكير لا تقتصر على هذا النوع من الألفـاظ في لغة الخطاب، بل وردت فيما يسمى بالمتشابه اللفظي، نحو قوله تعالى: (وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ) {البقرة: 61}. وقوله في آل عمران: (وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ) {آل عمران: 21}.

فالحق المذكور في البقرة غير الحق المذكور في آل عمران؛ ذلك أن الحق فـي البقـرة إشارة إلى القتل المعروف، فجاء الخطاب بالتعريف بلام العهد، لأنه يتضمن الحديث عن أنـاس معهودين، فناسب أن يؤتى بالتعريف، لأن الحق الذي كان يستباح به قتل الأنفس عنـدهم كـان معروفاً، كقوله: (وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ) {المائدة: 45}. فالحق الذي تقتل به الأنفس معهود معروف.[1]

أما في آل عمران، فالخطاب للنبي ρ وللمؤمنين، ولهذا جيء بصيغة التنكير؛ لتعظيم هـذا الفعل الشنيع، وتجريم فاعله، وتهويل المشهد برمته.[2]

وبعد، فإن السياق يعدّ العنصر الرئيس لفهم الآيات على حقيقتها، والوقوف على أسرارها الجمالية والفنية، يقول (**قطب**): " ومن ثمّ يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أنّ لكل سـورة مـن سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مـع روح حـيّ مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلـى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضـوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقيّ خاص إذا تغيّـر فـي ثنايا السياق، فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً "[3].

---

[1] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص174. والفخر الرازي، محمد بن عمـر: **التفسـير الكبيـر**. ج(3). ص103.

[2] انظر، الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق**. ص241-242.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(1). ص23.

المبحث الثالث: الالتفات

تعدّ ظاهرة الالتفات من الظواهر الأكثر شيوعاً في القرآن الكريم، وقد بـدت واضـحة جلية في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، ولعل الوقوف على دراسة هذه الظاهرة يعـد مـن الأهمية بمكان؛ لما تضفيه من قيمة وظيفية وجمالية تسهم في تحديد الأبعاد الموضوعية والنفسية والوجدانية للغة الخطاب في النص القرآنيّ.

عُني القدماء بالالتفات كظاهرة تعبيرية، لها أهميتها فيما تحدثه من أثر في المتلقي؛ ذلك " أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد "[1].

وإذا كان اهتمام البلاغيين بالالتفات على أنه نقل للقول من المخاطب إلى الغائب ومـن الواحد إلى الجماعة، فإنّ مفهومه الأوسع والأبلغ يشمل كل تحول أو انكسار أو عدول للأسلوب، ونقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى مطلقاً، داخل النسق التعبيري الواحد.[2]

ويسميه ابن الأثير بـ (شجاعة العربية)؛ " لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجـل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذا هذا الالتفات في الكـلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات "[3].

تعجّ لغة الخطاب في بني إسرائيل بمظاهر الالتفات، كالالتفات في الصيغ، والضـمائر، والعدد، ووضع الظاهر موضع المضمر.

وغالباً ما يتضمن هذا الالتفات معاني بلاغية يستدعيها السياق؛ ذلـك أن الانتقـال مـن أسلوب إلى أسلوب لا يتحقق إلا لفائدة تزيد المعنى وضوحاً وتحديداً. غير أن هـذه الفائـدة " لا تحدّ بحدّ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها "[4].

---

[1] الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص12. والسكاكي، أبـو يعقـوب يوسـف: **مفتـاح العلـوم**. ص95. والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ص435.

[2] انظر، الزركشي، محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**. ص152. والسكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص95. والعلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز**. ج(2). ص132. وطبل، حسن: **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيـة**. د.ط. القاهرة: دار الفكر العربي. 1998. ص55.

[3] ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر**. ج(2). ص4.

[4] **السابق نفسه**. ج(2). ص5.

أولاً: الصيغ

يتحقق هذا النوع من الالتفات كلما تخالفت صيغتان في نسق واحد من مـادة معجمية واحدة، وهذا النوع من الالتفات لا يتمثل في اللغة الفنية عامة، وفي لغة الخطاب القرآني خاصة إلا لدواع بلاغية، وأسرار بيانية.[1]

من ذلك الالتفات بين صيغتي الفعل الواحد كما في قوله تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) **{البقرة: 49-50}.**

ففي هذا النسق التعبيري نجد لغة الخطاب تعمد إلى الفعل (نجّى) للدلالة علـى تكثيـر المعنى وتأكيده والمبالغة في إثباته، وذلك يتفق ومحور السياق؛ ذلك أن مـدلول التنجيـة بفعـل (نجى) كان تخليصهم من معاناة طويلة عانوها من الذبح والقتل والاستحياء على يد فرعون وجنوده.

أما مدلول التنجية بفعل (أنجيناكم) فكان يقتصر على تخليصهم من الغـرق الـذي أودى بحياة فرعون ومن معه.[2]

فالتنجية بفعل (نجى) تمثل مسلكاً أسلوبياً يتوافق وسياق سوم العذاب والذبح والاستحياء، وكذلك التنجية بفعل (أنجيناكم) تمثل مسلكاً أسلوبياً آخر يتوافق وسياق الغرق.

وتجدر الإشارة إلى أن " القرآن لم يأت بالصيغة التي تدل على هذه الحقبة مـن حيـث الزمن، فهو يعرض عن الماضي الذي يصور ما حدث لأجدادهم في زمن موسى وقَبله، ويصور هذا الحدث بالصيغة التي تدل على الحضور والمشاهدة، وكأن الأمر يقـع بهـم، لا بأجـدادهم، وكأنه يقع بهم الآن. والغرض من ذلك: وضع الأمر بين أيديهم، وعرضه على أبصارهم، ليرقق قلوبهم، ويصرفهم إلى الإيمان بمحمد ρ.

وهذا التصرف أقدر على تحريك القلوب، وأكثر استثارة للعواطف والوجدان، وأقـرب إلى بعث الخشية والخضوع للملك الديّان "[3].

---

[1] انظر، طبل، حسن: **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية.** ص56.

[2] انظر، **السابق نفسه.** ص67.

[3] لاشين، عبد الفتاح: **المعاني في ضوء أساليب القرآن.** ط(4). القاهرة: دار الفكر العربي. 1999. ص187.

أما الالتفات بين صيغ الأفعال (الماضي، والمضارع، والأمر)، فهو ظاهرة جلية في لغة الخطاب، كالالتفات من الماضي إلى المضارع، نحو قوله: (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) {البقرة: 87}. وقوله: (وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) {آل عمران:187}. وقوله:(فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) {المائدة: 70}.

وغالباً ما تعبر لغة الخطاب عن الحال الماضية بصيغة المضارع؛ لاستحضار الصورة الهائلة للفعل، والتعجب منه، والتنبيه على أن ذلك هو ديدنهم المستمر وإن اختلف الزمان أو المكان.(1)

ففي قوله: (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) {البقرة: 87} استحضار للصورة الأليمة والبشعة التي كان يصنعها بنو إسرائيل في أنبيائهم، فتبدو قبيحة، تنفر النفس منها. وهي كذلك تسهم في توبيخ اليهود المعاصرين للنبيّ ρ، وحثهم على التخلي عما يتمسكون به من عقائد باطلة.(2)

ومنه الالتفات من المضارع إلى الماضي، نحو قوله في وصف القلة المؤمنة: (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ) {الأعراف: 170}.

وكأنّ إقامة الصلاة جزء رئيس في أصل تكوينهم، فهم لا ينفكّون عنها أبداً، فجيء بصيغة الماضي، لتحقيق دلالة زمنية تظهر التزامهم بالصلاة منذ البداية. أما دلالة التمسك بكتاب الله Y، فظهرت من خلال صيغة المضارع الدال على الاستمرارية والدوام، واستخدم التضعيف لتحقيق المعنى نفسه، ذلك أن التمسك بالكتاب هو المعيار الحقيقي لهذه الثلة المؤمنة، التي ترتبط بكتاب الله Y ارتباط الروح مع الجسد.

---

(1) انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مج(3). ج(6). ص414.

(2) انظر، لاشين، عبد الفتاح: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**. ص187.

ثانياً: الضمائر

يعد الالتفات في الضمائر ظاهرة أسلوبية في لغة الخطاب، فهو أكثر أساليب الالتفات وروداً في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، فمن ذلك الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وما يضفيه هذا النوع من إبراز للاسم الجليل، وحثّ للمخاطب وتحفيز له، كما يظهر في قوله تعالى: (سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) **{البقرة: 211}**. فالالتفات من التكلم (آتيناهم) إلى الغيبة (نعمة الله) يبرز الاسم الجليل (الله)، وما يتضمنه من معاني المهابة والوقار، والحث للمخاطب على الامتثال لأمر الله تعالى، فهو المنعم، وهو كذلك ذو عقاب شديد، ولهذا نجد لغة الخطاب تؤكد هذا المعنى من خلال قوله على سبيل الغيبة: (فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ).[1]

ومنه التحول من الغيبة إلى التكلم، وما يضفيه هذا النوع من معاني الكبرياء وإظهار القوة الربانية، والعظمة الإلهية، فلنلاحظ قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ) **{الأعراف: 152}**. عندما تتجلى معالم القوة الإلهية (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ) وما تتضمنه من حتمية الجزاء، إذ عدل من الغيبة إلى التكلم بصيغة الجمع، رغم أن المجزي هو الله وحده، لكنها لغة الخطاب الدالة على الرهبة، وكأننا أمام مشهد رهيب ينتظر أولئك الذين عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع.

وكما تتجلى عظمة الله على المفترين من بني إسرائيل، تتجلى عطاياه على المؤمنين منهم، فلنلاحظ قوله تعالى: (لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) **{النساء: 162}**. ومقتضى الظاهر أن يقول: (سيؤتيهم)، لكنّ العدول إلى صيغة التكلم يعلي من شأن الجزاء، لا سيما أنه من الله Y! إنه الجزاء المتدفق من عظمته سبحانه، (سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) أسلوب يعلي من شأن هذه الثلة المؤمنة، ويزيد من عظمة الأجر والعطايا.

---

[1] انظر أيضاً: **سورة النساء**: 56. و**المائدة**: 14. و**الأنعام**: 114. و154. و**الأعراف**: 137. و143.

ومن صور الالتفات أيضاً التحول من الخطاب إلى الغيبة، وما يفيده ذلك من معاني المقت والتبغيض، كقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا) {النساء: 47}. فالالتفات من الخطاب (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ) إلى الغيبة (نَّطۡمِس) (نَلۡعَنَهُم) يُظهر المدى البعيد الذي أحيل إليه القوم، " فاللعن وهو الطرد والإبعاد لا يتحقق بهذا المعنى إلا بالمغايبة "[1].

وقد يتضمن هذا النوع من الالتفات معنى التحذير، من خلال استخدام أسلوب الشرط، نحو قوله: (وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا) {الإسراء: 8}. ففي ذلك تبغيض لهم من العودة إلى فعل أسلافهم، وتحذير لهم من سوء العاقبة.[2]

ومن صوره أيضاً التحول من الغيبة إلى الخطاب، وما يتضمنه ذلك من زيادة في التقبيح والتأنيب، نحو قوله: (فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ) {الأعراف: 169}.

ومقتضى الظاهر أن يقول: (أفلا يعقلون)؟ لكنه عدل إلى الخطاب لزيادة التقبيح والتأنيب للمعاصرين منهم، ذلك أنهم ورثوا الكتاب، ثم لم يعملوا بما فيه، بل حرفوا وبدلوا، ولم يعتبروا بكل العبر التي لحقت بالسابقين منهم.

وقد يكون العدول من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التسجيل المباشر، وإقامة الحجة عليهم، كما في قوله: (وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ) {آل عمران: 187}.

---

[1] الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ج(10). ص123. وانظر، طبل، حسن: **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**. ص105.

[2] انظر أيضاً، **سورة البقرة**: 61.

ثالثاً: العدد

عمدت لغة الخطاب في بني إسرائيل إلى أسلوب العدول عبر (الإفراد، والتثنية، والجمع)، ولعلّ ذلك يسهم في إبراز جانب من الجوانب الفنية والجمالية للالتفات في لغة الخطاب، كالتحول من الإفراد إلى التثنية، نحو قوله: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ) **{المائدة: 64}**. وقد جيء باليد مثناة؛ لدحض ما زعمه اليهود على الله Y من البخل، وحاشا له ذلك، ولكنّ من الكناية العميقة أن يجاب القوم على طريقة كلامهم، ليكون ذلك أبلغ في الإنكار والتوبيخ والتبكيت.[1]

ومن ذلك أيضاً التحول من الإفراد إلى الجمع، كقوله تعالى: (قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) **{المائدة: 60}**. فقد عمد إلى الجمع (وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ)؛ لزيادة التقبيح والتعنيف على المفسدين من بني إسرائيل، وهم أصحاب السبت الذين تحايلوا على أنفسهم، وظنوا أنهم بمنأى عن الله Y، فجيء بصيغة الجمع دلالة على كثرتهم، وتعظيماً لجرمهم، وسوء فعلهم.

ومنه أيضاً التحول من الجمع إلى الإفراد، وما يتضمنه ذلك من التخصيص والتحذير، كقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ) **{البقرة: 41}**. وكأنه تحذير خاص لليهود؛ ذلك أنهم أهل كتاب، والأجدر بهم أن يكونوا أول من يؤمن بالقرآن كتاباً مهيمناً، وبمحمد نبياً خاتماً.

ومن ذلك أيضاً التحول من التثنية إلى الإفراد، كقوله: (وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ) **{التوبة: 34}**. ومقتضى الظاهر أن يقول: ولا ينفقونهما، لكنه عدل إلى صيغة المفرد، ليشكل ذلك بعداً دينياً؛ ذلك أن القيمة للذهب أو الفضة لن تتحقق إلا إذا أنفقت في سبيل الله، أما إذا أبقى عليها الإنسان لنفسه فهي بلا شك واحدة في ميزان الله لا قيمة لها أبداً.

---

[1] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص351. وأبو حيان، محمد بن يوسف: **تفسير البحر المحيط**. ج(3). تحقيق: عادل عبد الموجود ورفاقه. ط(1). بيروت: دار الكتب العلمية. 1993. ص535.

رابعاً: وضع الظاهر موضع المضمر

تشكل ظاهرة العدول، في وضع الظاهر موضع المضمر، محوراً من محاور الالتفات في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل. فلنلاحظ قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) **{النساء: 37}**. فمقتضى الظاهر أن يقول: وأعتدنا لهم، لكنه عمد إلى وضع الظاهر موضع المضمر؛ " إشعاراً بأن مَن هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى. ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى، فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء "[(1)].

وغالباً ما يوضع الاسم الجليل موضع المضمر؛ لما يتضمنه من المهابة والعظمة، فلنلاحظ قوله: (قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) **{المائدة: 60}**.

فقوله (مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ) يلقي في النفس شعوراً بالمهابة والروعة والتهويل لأمر اللعن والطرد والإبعاد.[(2)]

وقد يوضع الاسم الظاهر بدل المضمر لزيادة التقبيح، كقوله تعالى: (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ) **{البقرة:59}**. ومقتضى الظاهر أن يقول: فأنزلنا عليهم، لكنه عدل إلى الاسم الظاهر؛ لزيادة التقبيح والمبالغة في الذمّ والتقريع.[(3)]

ومن ذلك ما يكون لبيان السبب، نحو قوله: (فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) **{البقرة: 89}**. ولم يقل: عليهم؛ ليظهر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم. وكذلك قوله: (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ) **{البقرة: 98}**. ولم يقل: عدو لهم؛ ليسجل عليهم الكفر بسبب عداوتهم للملائكة.[(4)]

---

(1) صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مج(3). ج(6). ص393.

(2) انظر أيضاً، **سورة البقرة**: 107. **وآل عمران**: 19.

(3) الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. ج(1). ص53.

(4) انظر، **السابق نفسه**. ج(1). ص69. 71.

وتجدر الإشارة إلى أن قبول ظاهرة الالتفات لأكثر من توجيه، واحتمالها لأكثر من تفسير، يسهم في إثراء الدلالة، شأنها في ذلك شأن بقية الظواهر التعبيرية في لغة الخطاب القرآني، وهي بذلك تعد واحدة من ظواهر الإعجاز في كتاب الله Y.[1]

المبحث الرابع: التعريض

إذا كانت دلالة الكناية تتحقق من خلال اللفظ، فإن دلالة التعريض تتحقق من خلال التركيب، فالتعريض أخصّ من الكناية، ذلك أن كل تعريض كناية، وليس كل كناية تعريضاً. والتعريض ضد التصريح، يقال: عرّضت لفلان، وبفلان، إذا قلت قولاً وأنت تعنيه، ومنه المعاريض[2] في الكلام. وهو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به.[3]

وثمة فرق بين التعريض وبين الحقيقة أو المجاز أو الكناية؛ " لأنّ الحقيقة والمجاز والكناية، يُدلّ عليها بالألفاظ فهي تتحقق عند ذكر الألفاظ وبها، أما التعريض... فإنه حاصل بغير اللفظ، وهو السياق وقرائن الأحوال. وعلى هذا يكون التعريض مبايناً للحقيقة والمجاز والكناية "[4].

ولغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل تعجّ بهذا اللون الأسلوبيّ لا سيما أنه يشترك في تصوير الشخصية الإسرائيلية بأسلوب لا يفطنه إلا المتدبر لآيات الله Y.

وقد عمدت لغة الخطاب إلى أسلوب التعريض في غير صيغة خطابية، كأن يكون الخطاب للمؤمنين، ولكنه يحمل في طياته التعريض باليهود، كقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ) **{البقرة: 104}**.

فالخطاب هنا للمؤمنين ينهاهم به عن قول (راعنا)، وهو في الحقيقة تعريض باليهود؛ ذلك أنهم كانوا يدخلون إلى رسول الله ρ فيقولون (راعنا) من الرعونة ويقصدون بها شتيمته υ.[5]

وقد يكون الخطاب إخباراً وحكماً عاماً، ولكنه في الحقيقة تعريض باليهود، لسوء فعلهم وقبح رأيهم، كقوله تعالى: (**وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُ**) **{البقرة: 130}**. ففي

---

[1] انظر، طبل، حسن: **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**. ص107.

[2] **المعاريض**: جمع معراض، وهو التورية والستر. انظر، الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**. ج(1). ص178.

[3] انظر، العلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز**. ج(1). ص380– 383.

[4] لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**. ط(2). القاهرة: دار الفكر العربي. 1998. ص272–273.

[5] انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص404.

ذلك تعريض باليهود والنصارى الذين رغبوا عن ملة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية ديناً وعقيدة، وما في ذلك من معاني الجهل والضلال.(1)

وقد يكون الخطاب في اليهود، لكنه يعمد إلى التعريض بخصلة من خصالهم، نحو قوله: (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا) **{النساء: 54}**. وفي ذلك تعريض بشدة بخلهم، وحرصهم على الحياة بكل ما فيها من متاع أو ملذات.(2)

ومن ذلك التعريض بحرمانهم مما ينعم به الله على المؤمنين يوم القيامة، كقوله تعالى: (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) **{البقرة: 174}**. فهم محرومون من الكلام والتزكية والثناء.(3)

وقد يكون الخطاب في وصف القلة القليلة المؤمنة، لكنه يعمد إلى التعريض بسلوك بني إسرائيل وبعدهم عن جادة الصواب، كقوله: (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ) **{الأعراف: 170}**.

يقول **(قطب):** " فهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه، ثمّ هم لا يتمسّكون بالكتاب الذي درسوه. ولا يعملون به. ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم، ولا في سلوكهم وحياتهم..."(4).

(1) انظر، القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(1). ص462.
(2) انظر، الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. ج(1). ص259.
(3) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص242.
(4) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(3). ج(9). ص664.

الفصل الرابع:

التصـــوير الفنــــــــي

في لغة الخطـــــاب القرآني لبني إســــــــرائيل

ويشمل:

مدخل

المبحث الأول: أشكال التصوير الفني في لغة الخطاب

أولاً: التصوير من خلال اللفظ

ثانياً: التصوير من خلال التشبيه

ثالثاً: التصوير من خلال الاستعارة

رابعاً: التصوير من خلال الكناية

خامساً: التصوير من خلال القصة

سادساً: التصوير من خلال الحقيقة

المبحث الثاني: خصائص التصوير الفني في لغة الخطاب

مدخل

لا شك أن اللغة بأصواتها وألفاظها وتراكيبها، وما تحويه من خيال وموسيقا، تعمل على نقل المعنى الذهنيّ إلى واقع يشاهده المتلقي ويعيش معه بمشاعره وأحاسيسه، ثمّ يتفاعل معــه، ويخضع لتأثيراته.

قال **(الجاحظ)**: " إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبــع، بعيــداً عــن الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنع الغيث فــي التربــة الكريمة "[(1)].

ولعل اعتماد المبدع على التصوير كأداة أساسية في التأليف يسهم في تحقيق هذا المعنى؛ ذلك أن التصوير " طريقة لإيصال المعنى بتعبير خاص يؤثّر في ذهن المتلقي، فيحــدث عنــده نوعاً من المتعة العقلية، نتيجة التحليق بخياله للوصول إلى المعنى المــراد مــن قبــل المبــدع، فالصورة طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجهة من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير، ولكن أياً كانت هذه الخصوصــية أو ذاك التــأثير، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، إنها لا تغير إلا من طريقة عرضــه وكيفيــة تقديمه "[(2)].

وهنا تبرز أهمية التصوير الفني في الدراسة الأسلوبية التي تُعنى بدراسة كيفية ما يقال، لا بما يقال، وتنزع إلى تحديد مواطن الجمال من خلال رؤية شمولية لأســلوب الصــياغة فــي النص الأدبي.[(3)]

أشار **(الجرجاني)** إلى فضيلة التصوير بقوله: " ومعلوم أن سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبَّر عنه سبيلُ الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضــة والــذهب يصاغ منهما خاتمٌ أو سوار "[(4)].

[(1)] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. ج(1). ص157-158.

[(2)] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**. د.ط. القاهرة: دار الثقافة. 1974. ص 323.

[(3)] انظر، عبد المطلب، محمد: **البلاغة والأسلوبية**. ص176. وعبد الجليل، عبد القــادر: **الأســلوبية وثلاثيــة الــدوائر البلاغية**. ط(1). عمان: دار صفاء. 2002. ص134. وعودة، خليل: **المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبــي. مجلــة النجاح للأبحاث**. مج(2). ع/8. 1994. ص100-101.

[(4)] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص254.

والقدماء لم يحفلوا بالصورة الفنية كما حفل بها المحدثون، ذلك أنهم أولعوا بالتعريف والتقعيد لبنية الصورة من تشبيه أو مجاز أو كناية، ولم يلتفتوا كثيراً إلى كنه الصورة كظاهرة أسلوبية تثري النص الأدبيّ وتعلي من شأنه.[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستغناء عن جوهر الصورة، والاكتفاء بالوقوف على الجانب الشكليّ، كما فعل القدماء، يقضي على الطاقات الإبداعية للصورة، ويجعلها جامدة، بدل أن يكسبها عنصر الحياة التي تبدو من خلاله مشرقة ساحرة.[2]

يقول **(البطل):** " إذا كان المفهوم القديم قد قصر الصورة على التشبيه والاستعارة، فإنّ المفهوم الجديد يوسع من إطارها، فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح، بل قد تخلو الصورة، بالمعنى الحديث، من المجاز أصلاً، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب "[3].

تعتمد الصورة على الخيال باعتباره مصدراً رئيساً من مصادرها، فهو السبيل إلى إحالة التشبيه أو المجاز أو الكناية أو المعنى أو اللفظ الحقيقيّ إلى صورة ذات أثر يتفاعل معها المتلقي، ويعيش في ظلالها الوارفة، فالخيال إذن أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية[4]، والصورة كذلك " هي أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي يمارس فيها ومن خلالها فاعليته ونشاطه "[5]، ولا بد لهذه الصورة حتى تكتمل حلقاتها في ذهن المتلقي من صياغة محكمة، وموسيقا عذبة، واختيار موفق للألفاظ، وتعاقب سهل للحروف.

وعندئذ تكتمل حلقات هذه الصورة، وتضع الريشة المبدعة لمساتها الأخيرة، لتبدو لنا الصورة على أتم وجوهها، فيكتب لها الدوام والبقاء، ولعل هذا ما يسمى بـ" وحدة الرسم "[6].

---

[1] انظر، القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.** ج(1). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط(5). بيروت: دار الجيل. 1981. ص265. و286. و305. والآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة.** تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د.ط. 1944. ص227-238.

[2] انظر، هلال، محمد غنيمي: **النقد الأدبي الحديث.** ط(7). القاهرة: نهضة مصر. 1996. ص258.

[3] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها.** ط(3). بيروت: دار الأندلس. 1983. ص25.

[4] انظر، الشايب، أحمد: **أصول النقد الأدبي.** ط(2). القاهرة: مطبعة الاعتماد. د.ت. ص220- 222.

[5] عصفور، جابر: **الصورة الفنية.** ص19.

[6] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن.** ص96.

ولهذا نجد أن براعة الصياغة والتحليق بالخيال يدفعنا إلى التفاعل مع بعض الصور رغم خلوها من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، كما سيظهر في التصوير من خلال القصة أو الحقيقة؛ لأنّ من شأن الخيال " أن يكسر الحاجز الذي يبدو عصياً بين العقل والمادة، فيجعل الخارجي داخلياً، والداخليّ خارجياً، ويجعل من الطبيعة فكراً، ويحيل الفكر إلى طبيعة "[(1)].

ولا نقصد بالخيال البعد عن الواقع أو مجانبة الصواب، وحاشا لهذا النوع من الخيال أن يكون في كتاب الله Y، وإنما نريد بالخيال ذلك الذي يعطي فسحة للقارئ للتدبر والتفكر، فالقارئ لا يمتلك القدرة على الإحاطة بكنه القرآن وسره وعظمته، لطبيعة القصور التي أودعها الله فيه، ولذا نجد القرآن يعمد إلى التشبيه والتصوير والتخييل، ليكون المعنى سهل المأخذ، لطيف المسلك لدى جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وعلومهم وثقافاتهم، وهذا سرّ من أسرار القرآن وميزة من مزاياه التي أظهرته على كل الكتب وألوان البيان.

والقرآن الكريم واحة مليئة بالصور والأخيلة الصادقة والمعبرة، والتصوير فيه ظاهرة حية متجددة، يقول **(قطب):** " التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة "[(2)].

ولعل هذا ما جعل للصورة الفنية أهمية في الدراسات الأسلوبية الحديثة؛ ذلك أنها " طريقة في الكلام أكثر حيوية من الكلام العادي، ومقدرة إما إلى جعل الفكرة أكثر حساسية بوساطة صورة من الصور، أو مقارنة من المقارنات، وإما لإثارة الانتباه أكثر بما لها من استقامة أو فرادة "[(3)].

بدت ظاهرة التصوير في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل واضحة جلية، وتعددت أشكالها، فمنها التصوير من خلال اللفظ، والتصوير من خلال التشبيه، والتصوير من خلال الاستعارة، والتصوير من خلال الكناية، والتصوير من خلال القصة، والتصوير من خلال

[(1)] ناصف، مصطفى: **الصورة الأدبية**. بيروت: دار الأندلس. 1981. ص27.

[(2)] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص34.

[(3)] جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ص25.

الحقيقة، واستقت مادتها في جلّ ذلك من الطبيعة بكل عناصرها الكونية والحيوانيــة والنباتيــة، وغير ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن لغة الخطاب من خلال التصوير تهدف إلى تحقيق أغراض دينية تسهم في بناء الفرد والمجتمع على أسس واضحة ومعالم بارزة، لكنّ توخي هذه الأغــراض لا يقلل من روعة الجمال الفني لهذه الصورة أو تلك، بل يزيد من عمقها وأثرها، إذ يؤتى بالصورة وهي تعجّ بالجمال والجلال، " أما الجمال ففي العرض، وقوة الأداء، وإيقاع العبــارة، وإيحــاء الإشارة، على نحو لا شبيه له ولا مثيل. وأما الجلال فلو أن الجبال الرواســي قرعــت بشــيء لتسير عن أماكنها، أو الأرض الصُّلبة صدعت بشيء حتى تغيرت معالمها، أو أنّ الموتى فــي قبورهم خوطبوا بشيء فقاموا عن مضاجعهم، لكان هذا الشيء هو القرآن الكريم "[1].

نبحث في هذا الفصل ظاهرة التصوير الفني كأداة مفضلة في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، فنبحث عن الجمال الفني الذي يشكل ظاهرة أسلوبية في النص الخطابيّ، ونصوّر ذلك بأسلوب نفسيّ بعيد عن الشكلية.

ثمّ نوجز الحديث في أهم الخصائص المميِّزة لظاهرة التصوير في لغة الخطاب، فنتناول التناسق الفني، والإبداع في عرض المشاهد، وخاصية الصور المتقابلة، والإجمال ودقة البيان.

---

(1) صلاح الدين، عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ط(1). مصر: الشركة المصرية العالمية. 1998. ص4.

المبحث الأول: أشكال التصوير الفني في لغة الخطاب

تعددت أشكال التصوير الفني في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، وجاءت في مجملها موزعة على ستة أشكال، التصوير من خلال اللفظ، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والقصة، والحقيقة، وغالباً ما جاءت لتصوّر الجانب السوداويّ في بني إسرائيل، وقلة قليلة من الصور جاءت لترسم الجانب المشرق فيهم، ولعل ذلك يتفق وطبيعة بني إسرائيل؛ ذلك أن الغالبية منهم اتسمت بالكفر والعصيان، وقلة قليلة حظيت بالقبول، لإيمانها وطاعتها.

أولاً: التصوير من خلال اللفظ

لتخيّر اللفظ أهمية كبيرة في التعبير، فهو العنصر الرئيس في النظم، لا سيما ذلك اللفظ المصوِّر، الذي عبر عنه **(الجاحظ)** بقوله: " وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك. فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير "[(1)].

أشار **(الجرجانيّ)** إلى دور اللفظ في تصوير المعنى الذي يكون أدعى في التأثير وتنوير القلب[(2)]، عندما تتألف اللفظة من " صورة صوتية ومن خيال مرئيّ، ومن معنى هو قوام تألفها "[(3)].

وحينما نتكلم عن اللفظ لا نقصد العبارة الكاملة، وإنما نكتفي باللفظ ذاته الذي يعبر عن المعنى بصورة شاخصة، كقوله تعالى: **(يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ)** **{البقرة: 96}**، " فإذا سمعت **(وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ)** صورت لك كلمة **(بِمُزَحۡزِحِهِ)** – المقدَّمة في التعبير على الفاعل لإبرازها – صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة من وراء هذه اللفظة المفردة "[(4)].

وهذا النوع من التصوير ظاهر بجلاء في القرآن الكريم، على نحو تصويريّ معبّر، يبرز الصورة بإيجابيتها وروعتها تارة، وبسلبيتها وسوداويتها تارة أخرى، لكنه في لغة الخطاب لبني إسرائيل يكاد يقتصر على التصوير المفجع، المعبّر عن سوداوية قاتمة.

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. ج(4). ص24.

(2) انظر، الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**. تحقيق: محمد رضا. ط(1). بيروت: دار الكتب العلمية. 1988. ص61.

(3) ألكك، فيكتور، وأسعد علي: **جذور العربية فروع الحياة**. ط(1). بيروت: دون مطبعة. 1972. ص34.

(4) قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص79.

فتارة يقدم لنا الصورة في الماضي، كحال مَن جاءته آيات الله، وأدرك كنهها، لكنه أعرض عنها، وضلّ بعد الهدى، يقول تعالى: (وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ) **{الأعراف: 175-176}**.

فلنلاحظ اللفظ **(انسلخ)** وهو يشكل لنا صورة معبرة جامعة لكل من ينصرف عن آيات الله بعد إذ جاءته وحظي بما فيها من قيم، وذاق طعم الإيمان، وأدرك فضله على الروح والنفس، ولكنه " ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، ينسلخ كأنما الآيات أديم له، متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه. أوليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟ ها هو ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى "[1].

هذا الانسلاخ المصوَّر يضفي على النص القرآني قيمة جمالية معبرة، تصور لنا هذا الكائن في وضعه الحيواني؛ نتيجة انصرافه عن آيات الله، فهو كالحية أو الحيوان الذي ينسلخ من جلده، صورة مفجعة، يزيد من عمقها ودقتها اللفظ **(أخلد)** الدال على الانحطاط، والهبوط، والتزام الأرض بوضعية ذليلة.

ولعل ذلك الانسلاخ كان سبباً فيما آلت إليه الشخصية من هبوط وسكون؛ إذ " يهبط من الأفق المشرق، فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضاً للشيطان، لا يقيه منه واق "[2].

وتارة أخرى، يأتي اللفظ ليصور لنا المشهد المتجدد الذي ينبض بالديمومة والحيوية، من خلال صيغة المضارع، كاللفظ **(يلوون)**، قال تعالى:(وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ) **{آل عمرن: 78}**، ذلك أن تخيّر اللفظ (يلوون) ممعن في الدقة والروعة؛ إذ إنه يصور لنا تلكم الشخصية المائعة، غير الجادة، التي تتلوى في لسانها، صورة للسان، وهو يعمد إلى اللكنة من غير لكنة، وإلى اللثغة من غير لثغة، إنها صورة للشخصية التي لم تفقه دينها ولا كتابها، صورة للشخصية التي تفتري على الله الكذب، تبدو لنا، وهي تعجّ بمظاهر السلبية والكفر والجحود.

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(3). ج(9). ص676.

[2] **السابق نفسه**. مج(3). ج(9). ص677.

هذه الصورة المتجددة لا تقتصر على بني إسرائيل فحسب، وإنما تمتدّ لتشمل كل أولئك الذين يُنزلون قول الله في غير ما وضع له، ليحسب المتلقي أنه من كلام الله، فإذا كان بنو إسرائيل قد برعوا في التحريف والتبديل الظاهريّ، فإن هناك أقواماً برعوا بما هو أشد خطورة وأنكى، التحريف والتبديل الباطني، وتطويع كلام الله ظلماً وزوراً لتحقيق أهدافهم الوضيعة.

من هنا تبرز قيمة التصوير المتجدد في القرآن الكريم، ليفوق إعجازه كل إعجاز، ويكتب له الخلود والبقاء في كل زمان ومكان.

والتصوير من خلال اللفظ لا يقتصر في لغة الخطاب على الزمن الماضي والحاضر فحسب، ولكنه كذلك أخذ في تصوير الحالة التي سيكون عليها أولئك القوم يوم القيامة، وهي بذلك تعدّ مشهداً من مشاهد القيامة، فلنلاحظ اللفظ **(سيطوَّقون)** الذي جاء في سياق الحديث عن البخل في بني إسرائيل، قال تعالى: (**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**) **{آل عمران: 180}**.

يأتي اللفظ (سيطوَّقون) مصوّراً في ذاته، وهنا يعطينا النص فسحة من الخيال، لنتصور حقيقة هذا الطوق الذي سيلف عنق أولئك الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، إنه عقد من نار، يحيل ما كنزوه من المال إلى حبيبات نارية، يتخللها خيط قوي شديد، كحال تلك التي في جيدها حبل من مسد، إنه التصوير المشاهد عبر أداة التصوير الأولى وهي الخيال، لكنه خيالٌ واقع لا محالة.

ولعل التصوير من خلال اللفظ يُظهر حقيقة اليوم الآخر، بمشهده العنيف، ورهبته الأخاذة، يصوّر لنا اليهود وقد جمعتهم الفكرة الباطلة، رغم اختلاف جنسياتهم وألوانهم، ها هم يجتمعون ليوم الحساب، يظهر هذا المعنى من خلال اللفظ **(لفيفاً)** في قوله تعالى: (**فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**) **{الإسراء: 104}**. واللفيف اسم جمع بمعنى الجمع العظيم من أخلاط شتى، ومنه طعام لفيف إذا كان مخلوطاً من جنسين فأكثر[1]، وفي ذلك إشارة إلى أن اليهود اليوم طائفة تكونت من مجموعة الأجناس التي تهوّدت، وما يقولونه بأنهم امتداد ليعقوب υ ما هو إلا أكذوبة اصطنعوها وصدقوها وصدقها بلهاء العامة من العرب والمسلمين.

---

[1] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(2). ص653. والقرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. ج(6). ص282.

وجمال التصوير الذي تضفيه اللفظة (لفيفا)، يَظهر من خلال تصوير أولئك القوم، وهم يتدافعون ويتواكبون جماعات وجماعات ليوم الحساب، لتلوذ كل جماعة إلى أصلها ومنشئها الذي نشأت فيه، وبهذا تظهر اليهودية كفكرة وضعية مفتتة الأركان، خاوية الملامح، مبددة الأوهام، ذلك اليوم الذي لا ينفع الظالمين معذرتهم.

ولغة الخطاب لا تقتصر في هذا النوع من التصوير على الفئة العاصية في بني إسرائيل، بل تعمد إلى تصوير جانب مهمّ من جوانب القلة القليلة المؤمنة، وهذا الجانب يتمثل في صورة الحرص على التمسك بالعهد والكتاب، يظهر هذا الحرص من خلال اللفظ (يمسِّكون)، في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ) **{الأعراف: 170}**. ولعل الصيغة اللفظية (يمسِّكون) " تصور مدلولاً يكاد يحسّ ويرى، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة، الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه، في غير تعنّت ولا تزمّت، فالجد والشدة والصرامة شيء، والتعنّت والتنطع والتزمّت شيء آخر "[1].

من الملاحظ أنّ التصوير من خلال اللفظ في لغة الخطاب يكاد يقتصر على تصوير الفئة العاصية في بني إسرائيل، فلم تأت على تصوير القلة المؤمنة إلا في موضع واحد من خلال اللفظ (يمسّكون)؛ ليسهم في تشكيل لوحة فنية مقابلة للوحات التصوير في الكثرة العاصية في بني إسرائيل، وأنه رغم قلة هذه الفئة المؤمنة، إلا أنّ نورها ما زال يشعّ بفضل تمسكها بكتاب الله Y، وثباتها على الحق، فذلك هو المعلم البارز والمكون الرئيس لها، وهي صورة متجددة في كلّ زمان ومكان، وعلامة تجددها وديمومتها أنها تشكلت من خلال الفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية والتجدد.

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(3). ج(9). ص664.

ثانياً: التصوير من خلال التشبيه

يعد التشبيه مصدراً رئيساً من مصادر الصورة الفنية، ومكوناً من مكوناتها، لا سيما أننا نتجاوز فيه اللفظة إلى ما يشمل التركيب كله، من خلال طرفيه المشبه والمشبه به.

عني القدماء بالتشبيه فعرّفوه وتكلموا عن طرفيه ووجهه وأغراضه، وعمدوا إلى التقسيم والتبويب، وأرسوا القواعد النظرية له، ليأخذهم جلّ ذلك عن الالتفات إلى كنهه الرئيس، المتمثل بالجانب الفني والجماليّ، وما يحدثه في المعنى من خصوصية وتوجيه.[1]

يقول (**الجرجاني**): " واعلم أنه ليس شيء أبينَ وأوضحَ وأحرى أن يكشِفَ الشبهة عن متأمله من التشبيه "[2]، أما فائدته فتتمثل في أنك " إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في الترغيب فيه أو التنفير منه "[3].

وإذا كان التشبيه يفضي إلى عقد مقارنة تجمع بين طرفيه لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة، بأداة ملفوظة أو ملحوظة[4]، فإنّ ذلك لا يعني من وجهة نظر أسلوبية أن تتصف العملية بالجمود والتحديد، وعندئذ تخلو من متعة الجمال والروعة، وسيعيدنا ذلك إلى نمط الآلية التي تجعلنا خاضعين لسطوة التقسيمات التي خضعت إليها البلاغة العربية عبر قرون.

والدراسات الحديثة إنما تعنى بإبراز ذلك الجمال، الذي ينتقل بالسامع من الشيء المألوف إلى الصورة البارعة التي تحظى بمنزلة عميقة في النفسية والشعور.[5]

حظي القرآن الكريم بنصيب وافر من التشبيهات، التي لم تقف عند حدود تسجيل المشبه والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجهه، بل تجاوزت كل ذلك لتعبّر عن المماثلة النفسية التي أضفت نوعاً من الحياة الشاخصة على الأشياء، فدبّت الحياة في الأشياء الجامدة، وأحالت المعنى الذهنيّ إلى حقيقة واقعة، ولعلّ ذلك يُبرز ما في القرآن من " إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، وروعة في النظم والتأليف، وجرس في الألفاظ "[6]، يجعل الصورة ثرية بمعانيها المتعددة.

---

(1) انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص332.

(2) الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص424-425.

(3) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر**. ج(1). ص394.

(4) انظر، عصفور، جابر: **الصورة الفنية**. ص172.

(5) انظر، الرباعي، عبد القادر: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**. ط(2). الأردنّ: دار الفارس. 1999. ص203.

(6) صلاح الدين، عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ص45.

وإذا كان القرآن يعتمد على التشبيه في تصوير الشخصية بشقيها الإيجابيّ والسلبيّ، فإن لغة الخطاب في بني إسرائيل تكاد تنحصر في تشبيهاتها على النموذج السلبيّ؛ في إشارة إلى الفئة الأكثر عدداً في بني إسرائيل، وليس ثمة شكّ في أن رسم الشخصيات من خلال التشبيه يصور لنا نموذجاً حياً يتكرر في كل زمان ومكان.

يغلب تشبيه المحسوس بالمحسوس على لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل، وهذا النوع من أكثر الأنواع وضوحاً، يدركه العامة من الناس والخاصة، في إشارة إلى أنّ القرآن أخذ يعنّف على القوم نتيجة نكولهم وإنكارهم لنبوّة محمد ρ، فنزلت الآيات تفضح هذا النوع من البشر، وتحذّر المسلمين من موالاتهم أو الركون إليهم، فلنلاحظ قوله تعالى: (**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ**) {**البقرة: 146**}. وقوله (**يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ**) مَثَل عرفته العرب، يُضرب لقوة المعرفة[1]، والمقصود هو معرفتهم للنبيّ ρ، ففي هذا النوع من التشبيه تأخذ الصورة أبعادها النفسية وخلجاتها الوجدانية، فهي تصوّر لنا أولئك القوم الذين كانوا يستفتحون على الذين كفروا، ويبشرون بقرب قدوم النبي الخاتم، ولمّا لم يكن من سلالتهم، سارعوا إلى الإنكار والتكذيب.

والوصف بهذه الصورة يجلّي لنا حقيقة النفسية الإسرائيلية من الداخل، التي تعجّ بمظاهر الكبر والعناد، فهم يعرفون نعته ρ من توراتهم، ومعرفتهم لذلك كمعرفتهم لأبنائهم، وهذا نوع من التصوير المحرّك للمشاعر، الذي يأخذ القارئ إلى حيث يجتمع القوم، فيسألون عن ماهية هذا النبيّ، فإذا بهم ينكرون، ويكتمون الحق وهم يعلمون.

يكشف لنا التصوير بأبعاده النفسية عن هذه القسوة التي غلبت على القوم، وأحاطت بقلوبهم، فباتت قلوبهم جلمداً صخراً. قال تعالى: (**ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ**) {**البقرة: 74**}.

لقد جيء بحرف العطف (ثمّ) الذي هو للترتيب والتراخي؛ ليسهم في تشكيل محور من محاور التصوير، " لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا كثيراً من

---

[1] انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.** مج(1). ج(2). ص300.

المعجزات، فكأنه سبحانه يقول لهم بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليهـا مـن منـافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم يا بني إسرائيل؟! ولم تفدكم المعجزات؟! فقست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا "[1].

فهو يريد أنهم أعرضوا عن الحق، ونبت قلوبهم عن التأثّر بالعظات، وفرق كبير بـين القول: هذه القلوب لم تتأثر بالعظات والقوارع، وبين القول (فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)، ذلك أنها تصوّر من خلال التشبيه حال أولئك القوم الذين لم يلتفتوا إلى الحق ولم يـذعنوا لـه، ثـمّ أخذتهم العزة بالإثم، رغم كل ما واكبوه من المعجزات والنعم، فقلوبهم صُـلبة كالحجـارة، بـل كالحديد لم يسمّه؛ ليترك لنا الخيال فسحة من التصوّر عن ما هيته وشكله ونوعه ومدى صلابته.

يقول **(قطب)**: " والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى.. هـي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندكّ حـين تجلّى عليه الله، وخر موسى صعقاً! ولكنّ قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى، قلوب قاسية مجدبة كافرة.. ومن ثمّ هذا التهديد (وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)"[2].

من هنا نجد أن تصوير القلوب بالحجارة أو بما هو أشد منها قسوة ممعـن فـي الدقـة والروعة؛ "لأن صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم، ومتعارفة بينهم"[3]، لما نلحظه من مقاربة في الوصف، عبر عنها **(ابن رشيق)** بقوله: " صفة الشـيء بمـا قاربـه وشاكله "[4].

قال **(عبد التواب)**: " ولا شك في أنّ تشبيه الشيء بغيره يهدف إلى تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وخاصة إذا كان التشبيه رائعاً جيداً يدرك به المتفنن ما بين الأشياء من صلات، ويمكن أن يستعين بها في توضيح شعوره، ومن ثـمّ يثيـر فـي الـنفس مشـاعر الاستحسان والارتياح؛ لما في تعبيره وتصويره من جدة وطرافة "[5].

---

[1] طنطاوي، محمد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة.** ص552. وانظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف.** (1). ص183.
[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن.** مج(1). ج(1). ص103. وانظر، بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن.** ص152.
[3] طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة.** ص532.
[4] القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: **العمدة.** ج(1). ص286.
[5] صلاح الدين، عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم.** ص44.

وإلى الأسلوب ذاته، يعمد إلى التمثيل من خلال تشبيه أولئك الذين تهيأت لهم أسباب المعرفة، وأكرمهم الله بالأفئدة والسمع والبصر، ثم يُعرِضون عن كل ذلك ليعيشوا حياة الغافلين، ويستبدلوا البلادة والخمول بكل ما أفاض الله به عليهم من الخير والبركات، فأولئك كالأنعام التي لا تعي ما يقال لها، بل إنّ الفائدة لمرجوة من الأنعام أكثر من أولئك، يقول تعالى: (**لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ**) {**الأعراف: 179**}.

وفي هذه الصورة " تحقير وتقذير يحقق الغرض الدينيّ، ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة، فيها الحركة الدائبة، وهي صورة معهودة، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى "[(1)].

وفي هذا النوع من التشبيه تتضافر معالم الصورة الفنية، لتسهم في تشكيل اللوحة الفنية بكل ما فيها من حركات وسكنات وموسيقا وألوان، لتبدو في صورة أكثر حيوية من سابقاتها، يقول (**الجرجاني**): " فالتمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها...، فإذا أردت أن تعرف ذلك... فتعهد الفرق بين أن تقول: فلان يكدّ نفسه في قراءة الكتب، لا يفهم منها شيئاً، وتسكت، وبين أن تتلوا الآية: (**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**) {**الجمعة: 5**} "[(2)].

وفي هذه الصورة ينقلنا البعد التصويريّ إلى مشهد محسوس يدركه القارئ، ويعيش معه يوماً بيوم، فبنو إسرائيل لم ينتفعوا بما جاء في توراتهم، ولم يهتدوا بهديها، بل أصرّوا على الكفر واللجاجة، ويأتي لتصوير هذا النوع من البشر بصورة حيوانية وضيعة بليدة في الفكر والفهم، الحمار.. صورة منتزعة من هذه الطبيعة الحيوانية، لماذا الحمار؟! إنه التصوير المعبِّر الذي يدركه كل من يقرأ القرآن أو يتدبر معانيه، سواء كان من أصحاب العقول النيرة أو كان من عامة الناس، فهي صورة مستمدة من الطبيعة القريبة من الإنسان، يدركها ويعيش معها،

---

(1) قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص41.

(2) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**. ص93. وانظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(4). ص531.

صورة الحمار الذي لا يفقه شيئاً مما يحمله، " صورة من هيئت له نفائس الأشياء فلم يزدد بهـــا إلا تعباً دون أن يحصل على فائدة "[1]، هكذا هو حال بني إسرائيل.

ونجد أن التصوير إنما يهدف إلى إبراز عنصر الفهم، والتركيز عليه كمقوم من مقومات الشخصية المسلمة، ولعل الصورة الفنية أظهرت مدى حاجة بني إسرائيل إلى هذا العنصر؛ لأنّ حمل التوراة يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مـــدلولها فـــي عـــالم الضـــمير والواقع، لكنّ بني إسرائيل على حقيقتهم كانوا " كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها، فهو ليس صاحبها، وليس شريكاً في الغاية منها! وهي صورة زرية يائسة، ومثـــل ســـيء شائن، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة "[2].

وتجدر الإشارة إلى أن المشبه به غالباً ما يكون من فئة الحيوان، لا ســـيما الحيوانـــات الأكثر بلادة وحمقاً، كتشبيههم بالحمار تارة، وبالكلب تارة أخرى، فلنلاحظ قوله تعـــالى: (وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ) **{الأعراف: 175-176}.**

ففي هذه اللوحة الفنية اجتمعت الألفاظ كما ظهر في (انسلخ) و(أخلد) مع صورة الكلـــب المعروفة للمتلقي بكل جلاء ووضوح، لتشكل في مجملها صورة فنية تعج بالحركة، ولتنقلنا إلى مشهد محسّ يعيش معه المتلقي بكل تفاصيله.

إنها صورة الإنسان الذي يكرمه الله بالعلم والمعرفة، ويكسوه بهدايته وفضـــله، ويغـــدق عليه من الفهم القويم والرأي السديد، لكنه، رغم كل ذلك، ينقلب على عقبيه، ويؤثر حياة الخســـة والضعة على حياة العزة والكرامة، ها هو يتجرد من تلك النعم، كتجرد الحيوان من جلده، ها هو ينحدر إلى الهاوية، فيلتصق بالطين لحقارته وضآلته، ثمّ يأتي التصوير المعبّـــر ليســـلخه مـــن إنسانيته ويحيله إلى حيوانيته، إنه مشهد مفزع، ها هو ذا يُمسخ على هيئة كلب، دائـــم اللهـــاث،

---

[1] عباس، فضل حسن: **أساليب البيان**. ط(1). عمان: دار النفائس. 2007. ص247.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج (8). ج(28). ص98.

ويترك لنا الخيال فسحة من التصور، نشاهد الكلب وهو يلهث، في صورة تعجّ بالقبح، وتبعــث على الاشمئزاز، تظهر لنا الصورة من خلال مجموعة من الصور الجزئية ...

صورة الانسلاخ ←—— صورة الالتصاق بالأرض ←—— صورة الكلب

لتشكل لنا في مجملها صورة كلية نابضة بالحياة، من خلال التشبيه التمثيليّ الذي يثــري المشهد، وينزله منزلة عظيمة في نفسية المتلقي.[1]

وهذه الصورة تبدو نموذجاً حياً في كل زمان ومكان، ذلك أن كثيراً من الناس ينقلبــون على الهدى بعد إذ جاءهم، ويتخذون مما أنعم الله عليهم به من العلــم وســيلة لمحاربــة الــدين والتصدي لأولياء الله Y.

ولا يظننّ هؤلاء اليهود ومن لفّ لفّهم أن ما ينفقونه من الأموال سينجيهم من عــذاب الله يوم القيامة، فالله Y غني عن العالمين.

يأتي هذا المعنى الدينيّ من خلال التشبيه التمثيلي الذي يعجّ بمظاهر الجمال والروعــة، قــال تعــالى: (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ) **{آل عمران: 117}.**

يقول **(قطب):** " ترتسم هذه الحقيقة في مشهد ينبض بالحركة، ويفيض بالحياة على طريقــة التعبير القرآنيّ الجميل...، إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله، ولا تصلح فدية لهم من العذاب، ولا تنجيهم من النار، وهم أصحاب النار، وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً، فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان، ونابعاً من الإيمــان، ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر، إنما يرسم مشهداً حياً نابضاً بالحياة...، إننا ننظر فإذا نحن أمام حقل قد تهيّأ للإخصاب، فهو حرث. ثمّ إذا العاصفة تهبّ، إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة**!** تحرق هذا الحرث بما فيها من صرّ. واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقى بعنــف، فيصــور معنــاه بجرسه النفاذ. وإذا الحرث كله مدمر خراب**!** "[2].

---

[1] انظر، عصفور، جابر: **الصورة الفنية**. ص323.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(4). ص39.

فجملة (فِيهَا صِرٌّ) أفادت المبالغة، كما أفادت التجسيد والتشخيص، وهو أسـلوب بلاغـيّ يسميه البلاغيون بـ (التتميم)[1].

وبعد، فإنّ تشبيهات القرآن الكريم للفئة العاصية في بني إسرائيل، استمدت من الطبيعـة بشتى مكوناتها، لا سيما الحيواني منها، كتصويرهم بالأنعام، أو الكلب، أو الحمار، وكلها معـان تأخذ طابع الإهانة والتحقير.

وغلب التشبيه التمثيليّ على أنماط التشبيه في لغة الخطاب؛ ذلك أنّه أعمق في التصوير والتعبير، وأكثر تأثيراً في المتلقي، وما ذلك إلا لأنه يستمد صورته من الوصف المركب المنتزع من متعدد.[2]

ثالثاً: التصوير من خلال الاستعارة

يشكل المجاز اللغويّ محوراً رئيساً من محاور التصوير في القرآن الكريم، والاسـتعارة بوصفها قسماً من أقسام هذا المجاز تحظى بأهمية بالغة تفوق كلّ ألوان المجاز وتفريعاته التـي أقرها اللغويون والبلاغيون؛ ذلك أنها من " أدق أساليب البيان تعبيراً، وأرقها تـأثيراً، وأجملهـا تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى "[3].

وإذا كان التشبيه يستدعي وجود مشبه ومشبه به، فإن الاستعارة " من شـأنها أن تسـقط ذكر المشبه وتطرحه، وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به "[4].

عني القدماء والمحدثون في تعريف الاستعارة، وتقسـيمها إلـى تصـريحية، ومكنيـة، وأصلية، وتبعية، وتمثيلية، وغير ذلك من الأقسام والفروع، وأطالوا الحديث في ذلك، مما أكسبها نوعاً من الجمود والتحديد، وأفقدها جانباً مهماً من جوانب الإبداع والجمال، وسلبها بعض الأثـر والرونق الذي تحدثه في المتلقي.[5]

---

[1] انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مج(2). ج(4). ص286. **التتميم:** " عبارة عن تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة ". العلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز**. ج(3). ص104.

[2] انظر، لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**. ص54.

[3] عباس، فضل حسن: **أساليب البيان**. ص306.

[4] الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**. ص210.

[5] انظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص369.

والدراسة الأسلوبية إنما تعنى بذلك الجانب المتمثل بالجمـال أو مـا يسـميه **(جيـرو)** بـ(الزخرفة)، إذ يقول: " إن الصور قاعدة لنظرية الزخرفة، وتميز بين نوعين من الزخـارف، الأول: وهي (الزخرفة السهلة)، وتقوم على استخدام الألـوان البلاغيـة، أي صـور التركيـب والتفكير. والثانية: هي (الزخرفة الصعبة) وتتميز باستخدام الاستعارات "[(1)].

وليس ثمة شك في أن الولوج في المحددات والتقسيمات التـي عـرض لهـا القـدماء والمحدثون، سيُلبس هذه الدراسة ثوب التقليد والمحاكاة، وينزع عنها ثوب الجدة والحداثة، وإنـه لحريّ بنا أن نستثمر هذه المحددات بما يتوافق ومفهوم الدراسة الأسلوبية الحديثة.

حظيت لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بنصيب وافر من التصوير المرتكز علـى الاستعارة، وانحصرت في تصوير الثلة العاصية من بني إسرائيل، وتوزعت على ثلاثة أنمـاط من الاستعارة، التصريحية والمكنية والتمثيلية، وجاءت جلها لتصور الجانب السوداوي المعتم في بني إسرائيل، ضمن ثلاثة محاور: السلوك، والوصف، والجزاء.

ولما كان سلوك بني إسرائيل يتصف بالكبر واللجاجة والكفر والعناد، جاءت اللوحـات الفنية بأسلوبها الأخاذ، وتصويرها المبدع؛ لتبرز لنا هذا النوع من السلوك عبر مشاهد محسّـة، وسبق أن أشرنا إلى سلوك بني إسرائيل في انكبابهم على المعصية ومسارعتهم بالإثم، وأكلهـم السحت، وقتلهم الأنبياء، وغير ذلك من أنماط السلوك، قال تعالى: (بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) **{البقرة: 81}**.

والصورة الفنية إنما تأتي لتصوير المعنى الذهني العام، وهو اجتراح السيئة في أسـلوب محسّ؛ ليبرز الجانب النفسيّ والوجدانيّ للإنسان الذي يستلذّ طعم المعصـية، فتتملـك شـعوره وكيانه، ولعل ما تتميز به الاستعارة كما يظهر لنا " أنها تصويرية بطبيعتها، لذلك فهي تخلق ما يسمى باللغة التجسيمية، وليست مغالطة زخرفية كما كانت عند البلاغيين التقليديين"[(2)].

يقول **(قطب)**: " الخطيئة كسب. إن المعنى الذهنيّ المقصود هو اجتراح الخطيئة، ولكـن التعبير يومئ إلى حالة نفسية معروفة، إن الذي يجترح الخطيئة، إنما يجترحها عادة، وهو يلتذها

[(1)] جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ص26-27.

[(2)] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي**. ص24.

ويستسيغها، ويحسبها كسباً له، على معنى من المعاني، ولو أنها كانت كريهة في حسّه ما اجترحها، ولو كان يحسّ أنها خسارة ما أقدم عليها متحمّساً، وما تركها تملأ عليه نفسه، وتحيط بعالمه؛ لأنـــه خليق لو كرهها وأحسّ ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها، حتى لو اندفع لارتكابها، وأن يستغفر منها، ويلوذ إلى كنف غير كنفها، وفي هذه الحالة لا تحيط به، ولا تملأ عليه عالمه، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير، وفي التعبير (وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ) تجسيم لهذا المعنى، وهذه خاصية من خواص التعبير القرآنيّ، وسمة واضحة من سماته، تجعل له وقعاً في الحسّ يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة، وأيّ تعبير ذهني عن اللجاجة فـــي الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل، الذي يصوّر المجترح الآثم حبيس خطيئته، يعيش في إطارهـــا ويتنفس في جوّها، ويحيا معها ولها، عندئذ... عندما تغلق منافذ التوبة علـــى الـــنفس فـــي ســـجن الخطيئة، عندئذ يحقّ ذلك الجزاء العادل الحاسم (فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ) "[1].

لعلّ هذه الصورة تنبئ عن حالة متجددة في المجتمعات كلها، ولا تقتصر على بني إسرائيل فحسب، رغم ورودها في سياق حديث القرآن عن الثلة العاصية من بني إسرائيل، وهذا التجدد هـــو ما يعطي سمة الديمومة المعجزة لهذا القرآن العظيم، وصلاحه لكل زمان ومكان.

والقرآن من خلال هذه الصورة ينسج معالم السلوك وما يحمل في طياتـــه مـــن معـــاني التوبيخ والتحقير، فلنلاحظ :

صورة اجتراح السيئة ⟵ صورة الشخصية العاصية ⟵ صورة الخلود في النار

وإذا كانت لغة الخطاب تعمد إلى رسم الصورة الجامعة لاجتراح الســـيئات، فهـــي فـــي الوقت ذاته تعتمد على الصور المتتابعة لرسم صورة كلية للجزاء نتيجة ســـلوك واحـــد تقترفـــه الشخصية العاصية، يظهر ذلك من خلال لوحة (الاشتراء) الواردة في غير موضع[2]، يقول تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ) **{البقرة: 174-175}**.

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(1). ص112.

[2] انظر، **سورة البقرة**: 86. **وآل عمران**: 77. و187.

تقدم لنا هذه الصورة مشهداً من مشاهد السلوك والجزاء في بني إسرائيل، صورة معبّرة جامعة، نعاين فيها مشهداً فاضحاً..، إنها صفقة.. يأخذون الضلالة، ويدفعون الهدى، ما أخسرها من صفقة! يكتمون ما أنزل الله إليهم من البينات مقابل ثمن زهيد، ويؤثرون حياة الكذب والمخاتلة، أيّ حماقة هذه؟! إن القرآن كعادته ينزع إلى التصوير في مثل هذه المشاهد؛ ليصوّر لنا قبح فعلهم، وينفرنا من سوء خلقهم، بأسلوب يعجّ بالتهكم والتعجيب والسخرية (**فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ!**) ثمّ تتدافع الصور المتتالية، لتصوّر لنا العاقبة، إنها عاقبة سيئة لسوء ما اقترفوه في حياتهم، (**مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ**) لتأخذ الاستعارة التمثيلية بعدها التصويري، من خلال تصوير الهيئة الحاصلة من أكلهم الرشا في الحياة الدنيا، بالهيئة المنتزعة من أكلهم للنار يوم القيامة، إنها النار التي تقطع الأمعاء، وتلحق بصاحبها ألماً عظيماً متجدداً لا ينتهي.

ثم تتلاحق الصور، صورة الغضب من الله تعالى (**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ**) صورة لإهمال الله تعالى لهم، يتخذها القرآن وسيلة لتصوير الموقف، صورة حية تؤثّر في الوجدان البشريّ أعمق مما يؤثر التعبير التجريديّ، على طريقة القرآن في إيحاءاته الجميلة.[1]

ثم يأخذ التصوير بعده التقريري (**وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) ذلك جزاء من يُعرض عن آيات الله ويتخذها هزواً، ويستبدل بها ثمناً بخساً دراهم معدودة.

وللتصوير الفني أثر واضح في إظهار بني إسرائيل على حقيقتهم، فقد سبق أن رأينا حمقهم وبلادة تفكيرهم، وتعلقهم بالمادة في أبشع صورها، ولأجل ذلك كله رغبوا عن عبادة الله، وآثروا عبادة العجل الذي صنعه لهم السامريّ، والقرآن يأتي على تصوير حبهم للعجل بأسلوب يُظهر مدى تمكّن هذا الحب من قلوبهم ونفوسهم، يقول تعالى: (**قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ**) {**البقرة: 93**}.

فالتصوير إنما يعبّر عن مدى حرص أولئك على عبادة العجل، وتمكّن حبه في قلوبهم، وما التصوير بالشرب إلا لتغلغل الماء في الأعضاء أكثر من غيره، إنها صورة الحب الذهني

---

[1] انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(2). ص223.

وهو يحال إلى شراب يسكب في أفواه أولئك القوم، ليتغلغل في بطونهم وأمعائهم، ليمتدّ أثر ذلك الشراب إلى كنه الشعور والوجدان.. القلب، إذا فسد فسد سائر العمل، وإذا صلح صلح سائر العمل، إنه التصوير المعبّر عن تداخل حبهم للعجل كتداخل الماء على الثوب الصبيغ.(1)

يقول **(قطب):** " إنهم قالوا سمعنا. ولم يقولوا عصينا. ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟ إنه التصوير الحيّ للواقع الصامت كأنه واقع ناطق. لقد قالوا بأفواههم: سمعنا. وقالوا بأعمالهم: عصينا. والواقع العمليّ هو الذي يمنح القول الشفويّ دلالته. وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق.. وهذا التصوير الحيّ يومئ إلى مبدأ كليّ من مبادئ الإسلام: إنه لا قيمة لقول بلا عمل. إنّ العمل هو المعتبر. أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة. وهي مناط الحكم والتقدير. فأما الصورة الغليظة التي ترسمها **(وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ)** فهي صورة فريدة. لقد أشربوا. بفعل فاعل سواهم. أشربوا ماذا؟ أشربوا العجل! وأين أشربوه؟ أشربوه في قلوبهم! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة: صورة العجل يُدخل في القلوب إدخالاً، ويحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهنيّ الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصوّر، بالقياس إلى التعبير الذهنيّ المفسّر .. إنه التصوير .. السمة البارزة في التعبير القرآنيّ الجميل "(2).

وتصوير القرآن لهول هذا المشهد يبرز ما أخذ يكتنف موسى υ من الغضب والحنق على قومه، نتيجة ما ارتكبوه من فعل المنكرات رغم كل المعجزات التي أظهرها الله أمام أعينهم، وغضبة موسى υ ما هي إلا محاولة لردع القوم، لعلهم يتوبون أو يستجيبون.

ففي لوحة (الغضب) يعمد القرآن إلى التشخيص، من خلال قوله تعالى:**(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ)** **{الأعراف: 154}**. والتعبير القرآنيّ يشخص الغضب، " فكأنما هو حيّ، وكأنما هو مسلط على موسى، يدفعه ويحركه حتى إذا (سكت) عنه، وتركه لشأنه عاد موسى إلى نفسه، فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه "(3).

---

(1) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص192.

(2) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(1). ص91-92.

(3) **السابق نفسه**. مج(3). ج(9). ص1376.

ولم تقتصر اللوحات الفنية في لغة الخطاب على تصوير السلوك، أو التشخيص، ولكنها عمدت إلى تصوير الجزاء بأسلوب فنيّ، وبمنطق جماليّ يهدف إلى تكوين صورة متخيَّلة لـدى المتلقي تدفعه إلى الالتزام بمنهج الله، والابتعاد عن كلّ مظاهر السلوك التي اتصـف بهـا بنـو إسرائيل؛ ذلك أن الله تعالى حكم على المخالفين منهم بالذلة والمسكنة أينما وجدوا وحيثما حلـوا، يقول تعالى: (ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ) {آل عمران: **112**}.

فقد لزمتهم الذلة والمسكنة وأحاطت بهم إحاطة السوار بالمعصم، وكأنّ الذلة أو المسكنة ضرب من الخيام أو القباب قد ضربت عليهم، وفي ذلك إشارة إلى اشتمالها علـيهم وإحاطتهـا بهم، وأنها صورة ملازمة لهم لا يَسلمون منها بحال من الأحوال ما لم يكونوا معتصمين بالله، أو يخضعوا في ذمة المسلمين، فإنهم بذلك، فحسب، يَسلمون، وكأن التمسك بدين الله الذي هو حبـل وثيق صورة للتمسك بأسباب السلامة.[1]

إنه الجزاء الملازم لبني إسرائيل أو لأي أمة من الأمم إنْ هي اتصـفت بصـفات بنـي إسرائيل، أو سلكت مسالكهم الجحودية من القتل والعدوان والعصيان.

إنه التصوير المعبر الذي يعيش معه الفرد بإيحاءاته وومضـاته، ليسـهم فـي صـقل الشخصية المسلمة على منهج الله، ووفق هديه سبحانه، حتى ينشأ جيل قويم لـيس كجيـل بنـي إسرائيل، يكون قادراً على تحقيق شرع الله Y في الأرض.

من هنا فإن التصوير الفني ببعده الجماليّ يعزز الغرض الدينيّ الذي تهدف إليه الآيات، وينزع النص القرآنيّ إلى تحقيقه.

وبعد، فإنّ التصوير من خلال الاستعارة يكاد يقتصر على تصوير الثلة العاصية من بني إسرائيل، بما تتسم به من سوداوية وسلبية.

---

(1) انظر، صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مج (2). ج(4). ص279.

رابعاً: التصوير من خلال الكناية

والكناية من الموضوعات البلاغية التي بحثها القدماء، وأطالوا الحديث في تعريفها، وتحديد أقسامها وفروعها[1]، وهي واحدة من أهمّ ما تعمد إليه لغة الخطاب لتصوير المعنى بأسلوب مفعم بالحيوية والدقة والعمق؛ ذلك أنها تضفي على المعنى جمالاً، وتزيده قوة، لما تتصف به من دقة في التعبير والتصوير، فهي تأتي بالفكرة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها، ومما لا شك فيه أنّ ذكر الشيء يصحبه برهانه أوقع في النفس وآكد لإثباته.[2]

وهي بدورها لا تقتصر على الشكل التعبيريّ الماديّ، بل تتجاوزه للتعبير عن حقيقة نفسية يتصف بها المتكلم أو المخاطب.[3]

والكناية كما يرى **(الجرجاني)**: " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: (هو طويل النجاد)، يريدون طويل القامة "[4].

وعلى أية حال، فإن الكناية " لفظ أريد به لازم معناه الحقيقيّ، مع جواز إرادته لذلك المعنى الحقيقيّ، فالصلة بين المعنى الحقيقيّ والمجازي في الكناية هي صلة التلازم، وهي في الاستعارة صلة التشابه "[5].

تعجّ لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بأسلوب التصوير من خلال الكناية، وليس ثمة شك من أن هذا الأسلوب في التصوير يضفي على المعنى قيماً جمالية، بالإضافة إلى ما يحققه من معان بلاغية كالتفخيم، والتعظيم، والتعمية، والتغطية.[6]

وأياً كان الأمر، فإن التصوير من خلال الكناية في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل يأخذ أبعاداً جمالية، تبرز صورة هذا النوع من البشر، بأسلوب يعجّ بالسوداوية والسلبية،

---

[1] انظر، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. ج(1). ص263. والقيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: **العمدة**. ج(1). ص305. والسكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ص402.

[2] انظر، فيود، بسيوني: **علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان**. ط(2). القاهرة: مؤسسة المختار. 2004. ص217.

[3] انظر، عبد التواب، صلاح الدين: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ص69.

[4] الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ص66.

[5] لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**. ص255.

[6] انظر، المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: **الكامل**. ج(2). د.ط. بيروت: مكتبة المعارف. د.ت. ص5.

فلـــنلاحظ قولـــه تعـــالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ) {المائدة: 64}.

فالتعبير عن البخل بغلّ اليد تعبير موح بفظاعة المشهد، إنها صورة الكبر المتأصل فـــي اليهود، صورة التجرؤ على الله تعالى، توحي إلى القارئ ببشاعة هذه الشخصية وحمقها وبـــلادة فكرها؛ إذ كيف يتجرأ المخلوق الوضيع على خالقه وبارئه، وكيف يصفونه بهذه الخلة القبيحة التـــي لا يرتضيها الإنسان لنفسه، إنه التصوير الذي يكشف لنا الشخصية بسوداويتها وكفرها وتمحّلها...

ولأجل ذلك تعمد لغة الخطاب إلى أسلوب المشاكلة، لتردَّ عليهم زعمهم، وتقرر حقيقـــة باقية فيهم إلى الأبد (غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ)، إنه الحكم عليهم بالبخل المـــذموم والمســـكنة والفقر والنكد، ثمّ باللعنة الدالة على الطرد من رحمة الله تعالى.[1]

ولما هاجر النبيّ الكريم ρ إلى المدينة، لم يجد وسيلة أفضل من الضرب على يد هؤلاء، إذ أخذ بملاحقة اليهود؛ نتيجة ما أحدثوه من الخراب والفساد بين المسلمين. قال تعالى: (قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ) {التوبة: 29}.

وفي قوله (عَن يَدٖ) كناية عن الانقياد، أي " عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأن مـــن أبـــى وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك قالوا: أعطى بيده، إذا انقاد "[2].

وفي هذا المعنى تتجلى صورة الصغار التي اتسم بها القوم، نتيجة تكذيبهم، وإفســـادهم، وتمحّلهم، صورة الذلة التي جعلتهم يمدّون أيديهم ليلقوا ما فيها من مال، في ضـــعة وانحطـــاط، إنهم مكرهون على ذلك، يودّون غيره، ولكنهم عاجزون، ضعفاء، تبـــددت قـــوتهم، وانحطـــت كرامتهم يوم أن رفضوا نبوة محمد ρ.

لذلك نجد الصورة من خلال الكناية أبلغ من التعبير بـــالمعنى الصـــريح؛ " لأنّ الكنايـــة تعرض المعنى مصوراً بصورة محسوسة، فيزداد تعريفاً ووضوحاً "[3].

---

[1] انظر، الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**. ج(1). ص687-689.

[2] الفخر الرازي: **التفسير الكبير**. ج(16). ص30.

[3] لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**. ص280.

وإذا كانت لغة الخطاب تحضّ المسلمين على قتال اليهود، فهي في الوقت نفسه تصوّر واقع الخور والجبن الذي يتصف به يهود، يقول تعالى: (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) {آل عمران: 111}. وقوله: (لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) {الحشر: 12}.

فالتصوير من خلال الكناية (يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ) يُظهر طبيعة الشخصية اليهودية التي تعج بمظاهر الجبن والخور والهزيمة، تبدو لنا ترتجف خوفاً ورهبة من سطوة المسلمين وقوتهم، وفي ذلك تشجيع للمسلمين، وتحقير لليهود، وتصغير لشأنهم.

وقد أخذ القرآن في تبصير الجماعة المسلمة من كيد يهود، فنهاهم عن موادتهم، لأنهم يُظهرون حبّ المسلمين، ويبطنون العداوة والبغضاء لهم ولنبيهم ρ، وإلى هذا المعنى تلجأ لغة الخطاب لأسلوب التصوير من خلال الكناية، يقول تعالى: (هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) {آل عمران: 119}.

فعض الأنامل عادة للنادم العاجز " وهو كناية عن شدة الألم والغيظ لما يرونه من ائتلاف المسلمين، واجتماع كلمتهم، ونصرة الله تعالى إياهم، بحيث عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفي حتى اضطروا إلى مداراتهم "[1].

تظهر أبعاد الغلّ والحقد والكره في بني إسرائيل عميقة، وذات أثر بالغ من خلال التصوير بالكناية، صورة العضّ على الأنامل، والعيون تذهب يميناً ويساراً، وقد ألبست هذه الشخصية لباس البغض، لتبدو لنا سيئة الطباع، موحشة المنظر.

[1] لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**. ص259.

خامساً: التصوير من خلال القصة

يعتمد القرآن الكريم على أسلوب القصة؛ لإبراز الغرض الدينيّ الذي يهدف إلى تحقيقه، وليس ثمة شكّ في أن هذا لا يعني أن تفقد القصة القرآنية جانبها الفنيّ والتصويريّ، المثير للعواطف والانفعالات الوجدانية لدى القارئ.[1] ولغة الخطاب تعجّ باللوحات القصصية التي تشكل، في مجملها، صورة حية نابضة بالأحداث والشخصيات على حد سواء.

وقصة بني إسرائيل كغيرها من القصص وردت في كثير من المواضع في كتاب الله Y، وتضمنت مجموعة من الحلقات القصصية المعبرة، لا سيما تلك التي تصوّر أحوال هؤلاء القوم تجاه نبيهم موسى υ، فهي تقدم صورة فنية تصور لنا ما يتصفون به من سوء الطباع وبلادة التفكير، وحمق الرأي، إذ أحالوا بفعلهم هذا نعم الله إلى ويلات وعقوبات، وكانوا آية وعبرة لكل الأمم اللاحقة.

وحين يعرض القرآن للشخصية اليهودية، يعرضها " كما هي في عالم الواقع، إنه يبرزها أمام المشاهدين، في صورة مجسمة مرئية، على طريقة التصوير الفني القرآنية المعجزة، وإن القارئ للقرآن بعين بصيرة ليلحظ السمات الخارجية بهذه الصورة في حركات النفس الإنسانية وخلجاتها وتصرفاتها وانفعالاتها "[2].

ولعلّ الوقوف على قصة بني إسرائيل يسهم في تشكيل الصورة بكل أبعادها الفنية والنفسية والاجتماعية، ويجعلنا نعيش معها بكل ما فيها من إيجابية أو سلبية، لا سيما أن القرآن الكريم أخذ يخاطبهم في عهد النبيّ ρ " كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى υ، وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم، باعتبارهم جبلة واحدة، سماتهم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الخلق والخُلق موقفهم على مدار الزمان "[3].

والقرآن يعمد إلى التصوير لتأكيد القيم السلوكية وتثبيت معالمها في بني إسرائيل عبر التاريخ، لتحذير الجماعة المسلمة منها، ودعوتهم للتحلي بالقيم الإيجابية المقابلة.[4]

---

[1] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص119.

[2] الخالدي، صلاح: **الشخصية اليهودية من خلال القرآن**. ط(1). بيروت: دار الفكر العربي. 1999. ص14.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(1). ص33.

[4] انظر، خلف، طلال: **قيم اليهود في القصص القرآني**. ط(1). فلسطين، غزة: آفاق للطباعة. 2001. ص90.

كثيرة هي مواضع القصص القرآنيّ في بني إسرائيل، لكن ثمة حلقة ذات أهمية بالغة ومعبرة برزت في هذه القصص، نوردها حسب نزولها على النحو الآتي:

- **سورة الأعراف: (39)**

وهي سورة مكية تسرد وقائع انحراف بني إسرائيل، وفساد طبيعتهم، بعد أن يفصل في بعثة موسى υ إلى فرعون، وتأييده بالمعجزات، وتكذيب فرعون وقومه له، ونجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون. ولعل حلقة **(أصحاب السبت)** تمثل الحلقة الأبرز في هذه السورة.

- **سورة طه: (45)**

وهي سورة مكية تسرد مظاهر إنجاء الله لبني إسرائيل وما تبع ذلك من الكفر والضلال، بعد أن يسرد المراحل الأولى لبعثة موسى υ، وإرساله إلى فرعون، فاستكبار فرعون وجبروته، ثم إهلاكه وقومه. ولعل حلقة **(العجل)** الذي اتخذوه معبوداً لهم من دون الله تمثل الحلقة الأبرز في هذه السورة.

- **سورة البقرة: (87)**

وهي سورة مدنية تسرد مظاهر النعم في بني إسرائيل، وتعج بأساليب التذكير بهذه النعم، وتفصل في ذلك، وتعرض العقوبة بغرض ذكر ما يتلوها من نعمة، في أسلوب يهدف إلى حث القوم على التوبة والإنابة واتباع النبي الأميّ ρ، ثمّ لتبصير الجماعة المسلمة من خطر هذه الفئة من الناس. ولعلّ حلقة **(البقرة)** تمثل الحلقة الأبرز في هذه السورة، ولهذا جيء بها اسماً للسورة كلها.

- **سورة المائدة: (112)**

وهي مدنية كذلك، اتبعت أسلوب التعنيف على بني إسرائيل، جراء نكولهم وعصيانهم، فهي تأخذ موقفاً حاسماً من يهود، وتحث الجماعة المسلمة لاتخاذ الموقف نفسه. ولعل حلقة **(دخول الأرض المقدسة)** تمثل الحلقة الأبرز في هذه السورة.

وثمة أمر لا بد من الإشارة إليه قبل الولوج في رسم ظاهرة التصوير في قصة بني إسرائيل، وهو أن القصة القرآنية إنما جيء بها للتسلية عن النبي ρ ومن معه من المؤمنين، وهذا يظهر من خلال نماذج القصص القرآني لا سيما المكي منه، كما في (الأعراف، وطه).

وكذلك يؤتى بالقصة لتبصير الجماعة المسلمة من خطر محدق، من خلال نمـــاذج القصص القرآني، لاسيما المدني منه، كما في (البقرة، والمائدة)، قال تعـــالى: [وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ) {هود: 120}.

لا شك أن التصوير من خلال القصة يشكل ظاهرة جلية في أسلوب الخطاب القرآنـــي، وهو محور من محاور الإبداع فيه، ولعل التناسق الفني الذي يتشكل من خلاله الحدث، وتتهيـــأ في إثره الشخصيات، يسهم في إبراز الصورة الفنية، بألوانها الساحرة، فإذا بها تتملك أحاســـيس القارئ ووجدانه، فيعيش معها لحظة بلحظة، وهنا تظهر قيمة الصورة الفنية من خلال الأحداث والشخصيات، كونهما عنصرين رئيسين من عناصر القصة.

- حلقة أصحاب السبت

قال تعالى: (وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ) {الأعراف: 163-166}.

يبدو أن الزمان والمكان في هذه الحلقة غير محددين، كعادة القرآن الكريم الذي يوجـــه عنايته لما يفضي إلى تحقيق الهدف المتوخى، فلا حاجة لتحديد المكان أو الزمان.

مع بداية هذا النص القصصيّ يأخذ القارئ فسحة من الخيال، يتصور فيه البحر بعظمته الدالة على عظمة الله..، ثمّ يلتفت إلى تلك القرية أيّة قرية لا يهمّ.. لكنها حاضرة للبحر، عليهـــا أناس تبدو لنا أشكالهم مقطبة الجبين، بلهاء، كأنهم خشب مسندة، أحبوا الحياة وبخلوا في عبـــادة الله يوم سبتهم، كأننا نراهم وهم يجحدون نعمة الله ولا يلتزمون أوامره، عندها يأتي البلاء الـــذي يتضمن نوعاً من الاختبار، فهل سينجحون في هذا الاختبار أم لا ؟ إنها سنة الله فـــي خلقـــه، أن يمتحن الناس حتى تخلص نفوسهم له.

وهنا يترك القصص القرآني فجوة تتيح للقارئ التحليق بخياله، ليدرك كنه هذه العبودية التي غفل عنها بنو إسرائيل، يأمر الله Y الحيتان، أن تكثر في يوم السبت، وتقل في غيره، بل وتنعدم، نراها وهي تستجيب لأمر الله.. ها هي تقترب من شواطئهم، ينظرون إليها، ماذا يصنعون؟! أيلتزمون أمر الله؟ أم إنهم، كعادتهم، سيعدون؟!

يأتي الخطاب المصوّر باللفظ (يَعۡدُونَ) إذن هو عدوان على حرمة اليوم وقدسيته، ثمّ يعود بنا الخيال إلى ذلك الفعل الذي يظهر سوءة هؤلاء القوم، صورة متخيَّلة لم يفصح عنها القرآن لشدة قتامتها وصفاقة مرتكبيها، يكتفي القرآن باللفظ (يَعۡدُونَ) الدال على عموم العدوان، الذي بات يشكل معلماً رئيساً من معالم الشخصية عندهم.

وهنا يأخذ القصص القرآني في التصوير المبدع، نراهم في حواراتهم الخارجية، وقد انقسم القوم، وتعالت الأصوات، وانقسمت الشخصيات لتظهر في ثلاث صور معبرة جامعة:

الأولى: صورة الشخصية السلبية العاصية المتحايلة على نفسها، الشخصية المادية السيئة الطباع، البخيلة، الميتة الضمير والوجدان، إنها صورة نمطية نجدها ماثلة في كثير من الناس الذين يقدّمون أهواءهم الخاصة على الدين.

الثانية: صورة الشخصية الإيجابية، الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، نراها ماثلة في ثباتها والتزامها ومحافظتها على قدسية هذا اليوم، هي تلك الشخصية التي وجدناها في شخص موسى u، الشخصية الغضوبة لدين الله Y، الرافضة لكل ألوان التحايل أو الكذب أو الافتراء.

الثالثة: الشخصية الحيادية التي نراها تؤثر العزلة، وتقول: ما لي والناس؟! فهي كالمذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ثم لا تكتفي بالصمت أو الخنوع، بل تنكر فعل الشخصية الإيجابية، فتقول لها: (**لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ۙ ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا** ؟) وليتها تنكر فعل الشخصية المقابلة!

وهنا تظهر صورة الفئة الأكثر عدداً في بني إسرائيل، وهي الفئة العاصية، التي تلحّ على المعصية وتنبو بنفسها عن الحق، أو الصامتة المحايدة التي آثرت على نفسها السكوت والقعود، فكلتاهما صورة جامعة للباطل، تبدو لنا شاخصة أمام ناظرينا في حمقها وضلالها وسوداويتها المقززة، ثمّ يسدل الستار على هذه الطائفة، وقد مسخها الله Y وأظهرها شر مظهر،

إنها صورة فظيعة قاتمة سوداوية، تظهر قبح فعلهم، وسفاهة عقولهم، وشدة كفرهم، ثمّ إنها لتصور حقيقة الصراع بين الحق والباطل.

من الملاحظ أن توظيف القصة كأسلوب من أساليب القرآن الكريم يتفق والمحور العام للسورة كلها؛ ذلك أن سورة الأعراف من أكثر السور التي اتبعت أسلوب التفصيل لتعنيف بني إسرائيل كما سبق أن ذكرنا، وحلقة أصحاب السبت بأسلوبها التصويري المعبر تسهم في تعزيز هذا المعنى، فهي حلقة مظلمة من حلقات بني إسرائيل؛ ذلك أنها تصور الشخصية المتحايلة على نفسها، التي تتخذ من أفعالها وأباطيلها وسيلة للخروج على طاعة الله والتحايل على أحكامه وشرعه.

- **حلقة العجل**[1]

قال تعالى: {فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا} **{طه: 86-93}.**

---

[1] انظر، الخالدي، صلاح: **القصص القرآنيّ**. ج(3). ط(2). دمشق: دار القلم. بيروت: الدار الشامية. 2007. ص155.

لا شك في أن هناك علاقة حميمية بين بني إسرائيل وبين العجل منذ أن كانوا في مصر يخضعون تحت سطوة فرعون وجبروته، فعندما خرجوا مع موسى υ من مصر، جاءوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فسألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة.

وبنو إسرائيل قوم لا يؤمنون إلا بالمادية بشتى ألوانها وصورها، وليس أدلّ على ذلك من أنهم طلبوا من موسى υ أن يريهم ربهم جهرة.

يظهر لنا أن صورة المادية التي غلبت على القوم لم تكن وليدة فعل خسيس أقامه السامريّ، ولكن لهذه الصورة حلقات أخذت تتشكل منذ القدم، وليست بحاجة إلا إلى ريشة معبرة تفصح عن ماهيتها، فتبدو للقارئ واضحة بكل ما فيها من حمق وبلادة فكر وسوء رأي.

ها هم يعقدون أمرهم، ويوقدون نيران حماقتهم، ها هم يلقون فيها ما ملكت أيمانهم من الذهب المصريّ، إنها صورة الشخصية العاصية، الجاحدة لكل النعم والعطايا، ها هم يصنعون العجل بأيديهم، يحثهم إلى ذلك السامريّ رأس الفتنة ومدبرها وبوق الشر في بني إسرائيل، ماذا يصنعون؟! (**عِجْلاً جَسَدًا**) " لم يكن عجلاً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية! فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية، وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صوره، فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية!"[1]، لتتشكل لنا صورة هذه الشخصية بماديّتها العفنة، وهي ترقص حول ذلك العجل، إنها صورة هوجاء خالية من الوعي والفكر.

ولعل هذه الصورة بسوداويتها لا تمنع من وجود نور يتدفق من صورة الشخصية المقابلة، إنها صورة هارون υ ومن معه من المؤمنين، يحذّرونهم من عاقبة فعلهم: (**يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي**)، لكنهم، كعادتهم، لم يلتفتوا إليه، بل سيطرت عليهم أهواؤهم، وآثروا حياة الذل والانحطاط على حياة العزّ والرقيّ، إنها اللجاجة والكبر (**لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَـٰكِفِينَ**).

وما أن تتشكل أحداث هذا المشهد، يقفل موسى υ عائداً إلى قومه، وهنا تتدفق عظمة التصوير الفنيّ، ها هو يمضي ومعه الألواح، ويعلم صنيع قومه، ها هو يمضي، والغضب رداء له، إنها غضبة الحق، ها هو ذا يقترب، يعاينهم، يهوله المشهد، وهنا تعطينا الصورة فسحة من

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج (5). ج(16). ص492.

الخيال، وكأننا بموسى υ يعاينهم، وهم يرقصون حول عجل ذهبيّ، لـم يتمالـك نفسـه، يلقـي بالألواح، ها هي تتكسر، إذ ليس الخبر كالمعاينة، ثمّ يلتفت إلى قومه قـائلاً بأسـلوب التـوبيخ والتقريع: (أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ؟!).

وهنا يعمد القوم إلى أسلوب التبرير، لا سيما أنهم يشاهدونه غضوباً بائساً أسفاً لم يسبق أن رأوه كذلك، نراهم يطأطئون الرؤوس، ويلقون باللائمة على السامريّ، فيقولـون: (مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ).

ثم تأخذ لغة الخطاب أبعاد الحوار المصوّر، فيلتفت إلى أخيه يشدّه مـن لحيتـه، يؤنبـه ويثقل عليه: (يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ*أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي؟!).

إنها صورة تكاملية لا تكتمل إلا من خلال مجموعة الصور الحركية الجزئية، التي تثري النص القصصي وتلقي عليه ألواناً نابضة بالحياة، وكأننا نشاهد الألواح وهي تسقط على الأرض بعنف، فتتكسر..، ثمّ تتدفق الصورة الحركية عندما يأخذ موسى أخاه من لحيته .. إنه الغضـب الذي يكتنف الشخصية المؤمنة حينما تنتهك حرمة من حرمات الله.

وما أن يسدل الستار على هذا المشهد الحركي العنيف ويأخذ أدراجه، يعود بنا النص إلى الوجدان والانفعال والتودد، الذي يظهر من الأخ تجاه أخيه، نداء التلطف والأناة، نداء الأمومـة النابضة بالحب والحنان (يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ؟!).

وهنا تتدفق الصور الحركية، فيلتفت موسى υ نحو السـامريّ: (فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ؟!) وعندها يعمد السامريّ إلى التبرير كما عمد قومه من قبل: (وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي)، إنه الحوار المعبّر المصوّر للأحداث والوقائع، ليسدل الستار بعدها، ونحن نرى السامريّ وحيداً لا يمس أحداً ولا يمسه أحد، إنه حكم بالعزل الانفراديّ، (لَا مِسَاسَ) حكم القادر الذي يحيل هذا الكون الفسيح إلى زنزانة وضيعة لنفس وضيعة ارتضت أن تتبع خطوات الشيطان، نـراه مـن خلال الصورة ينتقل من مكان إلى مكان وحيداً طريداً يقاسي ألم الفرقة والهجران.

ثمّ يأتي التصوير الفنيّ ليبرز لنا صورة العجل المصنوع، ونيران الحق تلتهمه التهاماً، وهنا يتيح لنا الخيال إلى معاينة القوم، كأنما تتوقف ألسنتهم عن الكلام، يأخذهم هول المشهد، ها هي صورة اليد القاهرة تفتت صنيعهم تفتيتاً، ثمّ يذرّى في البحر أمام ناظريهم، إنها قدرة الله وعظمته وحكمته..

وغالباً ما تُختتم الصورة الفنية من خلال القصة القرآنية بتقرير يتضمن المحور الرئيس للغاية الدينية المتوخاة، فيقول: (إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا).

إنها العبودية الخالصة لله تعالى، والتعلق الكامل به سبحانه، والتخلص من كل ألوان المادية العفنة التي تأخذ المرء بعيداً إلى حيث أخذت السامريّ.

يبقى لنا أن نشير إلى أن سورة طه لا سيما في هذه الحلقة القصصية، تقدم لنا صورة حية نابضة بالحياة لنبي الله موسى υ، إذ تشكلت صورته بأبعادها الإنسانية، وظهرت لنا الشخصية بوصفها إنساناً أكثر من كونها شخصية نبيّ، فقد يكون مستغرباً على نبيّ أن يتصف بالغضب كاتصاف موسى υ، لكنّ جمالية التصوير في لغة الخطاب تظهر لنا أن النبي، وإن كان معصوماً ومؤيداً من الله Y، لا بد أن لا يتجرد من إنسانيته وفطرته التي فطره الله عليها، وعندها يكون أكثر قرباً من الناس، وأكثر تأثيراً بهم، فهو منهم ولهم: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) **{التوبة: 128}.**

- حلقة البقرة[1]

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا

---

[1] انظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم.** ج(1). ص161. وأبو عواد، إبراهيم: **صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل.** د.ط. عمان: مطبعة دار اليازوري. 2008. ص57.

فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ {البقرة: 67-73}.

يبدأ القص القرآني دونما تقديم أو تمهيد {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ} وبهذا الأمر يفتتح المشهد الدراميّ المعبّر، إنها حادثة قتل، تتدافع الشخصيات، يتهم بعضها بعضاً، لغة الخطاب ترجئ هذا الحدث المصوّر إلى نهاية السرد القصصي، ولعلّ هذا الأسلوب يعدّ واحداً من أساليب العرض القصصي في القرآن، لا يعنينا الأسلوب بقدر ما تعنينا الصورة، إنها صورة التدافع، كل شخصية تلقي باللائمة على غيرها، يعطينا النص فجوة من التخيل، القوم يتباحثون، من القاتل؟ لمن نشكو أمرنا؟ كيف سنعثر على من ارتكب هذه الجريمة؟ يستذكرون أن لهم نبياً مرسلاً من الله.. يستعينون به، ولكنهم لا يؤمنون بحتمية كلامه وصدق نبوءته.

وهنا تمتثل الصورة أسلوب القطع، فهي لم تذكر لنا ذلك، لم تفصح عن سؤال موسى υ لربه، ولكنها تكتفي بافتتاح المشهد بالقول: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ}، لأن عادة القرآن أن يوجز الحديث فيما يحقق الغرض الديني المتوخى، كما مر آنفاً.

على أية حال، يأخذ الحوار بعداً إنكارياً مصوراً {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا ؟!} لتبدأ الصورة بالتشكل، ها هم يرمون نبيهم زوراً بأنه مستهزئ، ولم يعلموا بعد حقيقة نبوته، ولم يقدروا كلامه، تأخذ الصورة بعداً تفصيلياً، صورة القوم وكأنهم في مواجهة، مع من؟!

يأخذهم الغرور، فيتلكؤون عن تنفيذ أمر الله، ثم يقولون: {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ ؟} يسألون عن الماهية، وقد سبق أن ذكر لهم بأنها بقرة، لكنهم أخذوا يضيفون إلى السؤال أسئلة، مالونها؟ ما هي؟ لتبدو لنا الشخصية جامدة متلكئة بليدة الفكر والحس والوجدان، تنفي الربوبية {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ}، وكأنه رب لموسى وليس بربهم، إنها لغة الخطاب المصوّرة لهذه الشخصية الملحة على الرفض والمماطلة، يظهر ذلك من خلال تكرار جملة {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ}.

إنها صورة التعنت والتلكؤ في الاستجابة؛ إذ إنهم لو عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لتحقق مرادهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.[1]

---

[1] انظر، الطبري، محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ج(1). ص315.

وبعد أن تكتمل حلقات الوصف، يقولون: {ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ} .. الآن.. كأنما كان كل ما مضى ليس من الحق في شيء، وفي ذلك ملمح مهمّ من ملامح هذه الشخصية، فهي تتشكل من مجموعة من الصور الجزئية: صورة اللجاجة والتلكؤ والتعنت، وصورة اختلاق المعاذير، وصورة التكذيب لنبي الله υ.. إنها صورة الكفر بشتى ألوانه وأشكاله.[1]

وفي هذا الجو التصويري القاتم لهذه الشخصية، تنبثق صورة كلية لنبي الله موسى υ، إنها صورة التلطف والصبر والأناة، فهو لم يندفع، ولم يغضب كعادته، إنها صورة الداعية الصبور، الذي يحتمل أذى قومه وجهلهم وحمقهم في سبيل تحقيق الهداية لهم.

- حلقة دخول الأرض المقدسة[2]

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ) {**المائدة: 21-26**}.

في هذه الحلقة من حلقات القصص القرآنيّ في بني إسرائيل ينقلنا المشهد إلى حيث يجتمع القوم، يأخذ الحوار بعده النفسيّ، يعجّ الخطاب بالصور المتقابلة، صورة موسى υ، يذكّر قومه بما منّ الله عليهم من النعم، بأسلوب التلطف (يَـٰقَوْمِ)، أملاً في الاستجابة لأمر الله، ودخول الأرض المقدسة، وإقامة دولة تحكم بمنهاج الله تعالى، يعطينا النص فسحة من التخيل، ما علامات ذلك؟ وما سرّ قدسيتها؟ إنها أرض الأنبياء، لا تمنح إلا للطائعين المخلصين، وهي التي لا يعمّر فيها ظالم...

---

[1] انظر، عبد التواب، صلاح الدين: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم.** ص109-115. وطنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة.** ص533.

[2] انظر، الخالدي، صلاح: **القصص القرآني.** ج(3). ص274.

وهنا يأتي الأمر الإلهي من خلال موسى υ (ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ) إنه أمر بالطاعة والتزام الكتاب، ها هم يتلقون أمر الله، وفي هذا الأمر تأخذ القصة بعدها التصويريّ (يَٰمُوسَىٰٓ) بهذا الأسلوب الذي يعج بالكبر والحمق، أيّ خطاب هذا الذي يكون لنبيّ؟! إنه خطاب الشخصية الخائرة المتلكئة، (إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ) هي ذاتها مشاهد التبرير، وتمحل المعاذير، ها هم يجمعون أمرهم، نراهم في صورتهم التي تعج بمظاهر الخور والرعب، (لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا)، وفي هذا الجوّ المحتدم، تنبثق صورة الشخصية الإيجابية رغم قلتها، صورة تعج بالقوة والإيمان، والرغبة في التضحية (ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ).

ولكنّ القصص القرآني يتجه نحو تشكيل الصورة الكلية لهذه الشخصية المتلكئة، يعود المشهد إلى هؤلاء القوم، نراهم، وقد أخذتهم العزلة بالإثم، وسيطرت عليهم روابط الجبن والخور والهزيمة، (إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ) صورة جامعة معبرة تصور لنا الشخصية، وقد أشربت شراب الخور والهزيمة، صورة تعجّ بمظاهر الجبن والكبر والجحود، ها هم يعودون إلى ذات الألفاظ التي دأبوا عليها (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ)، وكأنه رب لموسى لا رب لهم..

يقول **(قطب)** تعليقاً على قولهم: " ... وهكذا يُحرج الجبناء، فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم، فيرفسون بأرجلهم كالحُمُر، ولا يُقدمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين، بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان. يُدفع الجبان إلى الواجب فيجبن، فيُحرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسبُّ هذا الواجب، ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لا يريد!! (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ) هكذا في وقاحة العاجز الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مدّ اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان! (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ)! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! (إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ) لا نريد ملكاً، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض ميعاد... ودونها لقاء الجبارين! هذه هي نهاية المطاف بموسى υ نهاية الجهد الجهيد والسفر الطويل، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل..."[1].

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(6). ص696-697.

وهنا يتجه القصص القرآني إلى تصوير الصراع، إنه صراع الإرادات، إرادة الباطل المتمثلة في الشخصية الأكثر عدداً في بني إسرائيل، وإرادة الحق المتمثلة في موسى υ ومن معه من المؤمنين، إنه صراع العقيدة التي لا تحتمل المراوغة والأخذ والردّ، إنه الإيمان الذي لا يرتضي الخنوع والذلة والجحود، يبدو لنا موسى υ في صورته النفسية التي تعجّ بمظاهر الحزن والألم والحسرة، ها هو ذا يعود إلى غضبته وعنفوانه، فهو موقن أن هؤلاء القوم ليسوا جديرين بأن يكرمهم الله بهذه الأرض؛ فهي لأهل الإيمان، أياً كانت ألوانهم وأشكالهم، وشرط الإيمان لم يتحقق بعد، ثم يلتفت إلى رب الأرض والسماء، موجهاً دعواته (رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ)، ليسدل الستار على أولئك القوم، ونحن نراهم يتيهون في أرض سيناء، ويترك لنا النص فسحة من التخيل، نراهم وهم يتحاورون.. أين نحن؟ وإلى أين نتجه؟ كنا هنا بالأمس ومشينا لأيام لنعود إلى حيث كنا؟! " ... ويتركهم السياق القرآنيّ في التيه، لا يزيد على ذلك... وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفنيّ، على طريقة القرآن في التعبير "[1].

وهكذا تتجلى عظمة التصوير الفني المرتكز على القصة القرآنية، إنه تصوير ينقلنا من الحوار والأحداث إلى مشاهد يعيش معها القارئ في حسه ووجدانه، يتفاعل معها كتفاعله مع الحواس، وكذلك أسلوب القرآن الذي " يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجدانيّ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية "[2].

وبالرغم من اتصاف القصص القرآني بالأسلوب الهادئ والحكمة البالغة، إلا أنه يصور لنا كثيراً من صور المعاندين من بني إسرائيل، ويقدمها لنا بأسلوب تصويريّ مفعم بالحوار والمشاهد.[3] ولعل العرض القصصي وما يتضمنه من حوار نابض يمثل ذروة الأسلوب الخطابيّ في بني إسرائيل؛ ذلك أنه يقدم لنا الشخصية على حقيقتها بأسلوب تصويريّ يستحيل الاستغناء عنه، فالصورة بهذا الفهم لم تعد شيئاً ثانوياً، وإنما " تصبح وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق تعجز اللغة العادية عن إدراكه أو توصيله "[4].

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(1). ج(2). ص871.

[2] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص141.

[3] انظر، باحاذق، عمر محمد: **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**. ط(1). دمشق: دار المأمون للتراث. 1993. ص162.

[4] عصفور، جابر: **الصورة الفنية**. ص464.

وتشكيل الصورة الكلية من مجموعة الصور الجزئية يسهم في توضيح الرؤية وتوجيه المعنى المراد[1]، فقد جاءت صورة الشخصية العاصية من بني إسرائيل على النحو الآتي:

حلقة أصحاب السبت ← حلقة العجل ← حلقة البقرة ← حلقة دخول الأرض المقدسة

التحايل ← الماديّة ← التلكؤ ← الجبن

نلاحظ أن هذه الصور الجزئية تسهم في تشكيل الصورة الكلية لبني إسرائيل، بكل ما فيها من سلبية وسوداوية.

وكذلك الأمر مع صورة الشخصية المقابلة، التي تشكلت على النحو الآتي:

حلقة أصحاب السبت ← حلقة العجل ← حلقة البقرة ← حلقة دخول الأرض المقدسة

الطاعة ← الإيمان ← الصبر ← الجرأة والتوكل على الله

فجاءت هذه الصور لتسهم في تشكيل الصورة الكلية المشرقة للفئة القليلة من بني إسرائيل بكل ما فيها من إيجابية.

وبهذا تنشأ علاقة التضاد في صورة الشخصية من خلال العرض القصصي المصوّر، وهذا ما عبر عنه **(بروب)** حينما تناول نماذج الشخصية في ضوء الأسلوب[2]، فلنلاحظ الشكل الآتي:

الدعـــــوة

يقوم بها الرسول

يتّبعه المهتدون	**يكذّب به الضالون**
(مساعد)	**(معوّق)**
↓	↓
إنجـــــاء	**إهـــــلاك**
↓	↓
حزب الله	**حزب الشيطان**

يظهر لنا أن الشخصية القرآنية لا سيما في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل جاءت نمطية ثابتة مسطحة؛ إذ ظهرت الشخصية الإيجابية ثابتة في أسلوبها وفهمها وطبيعة تفاعلها

---

(1) انظر، عصفور، جابر: **الصورة الفنية**. ص323.

(2) انظر، خضر، محمد: **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**. ط(1). القاهرة: دار العواصم للنشر. 2004. ص87-88.

النفسي والاجتماعي مع الأحداث، كما ظهرت الشخصية المقابلة بكل ما فيها من سوداوية وسلبية ثابتة في فهمها وسلوكها وأسلوبها.

ولعل هذه النمطية واضحة على مر التاريخ، فكلتاهما نموذجان من نماذج الشخصية في كل زمان ومكان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التصوير في القصة يظهر من خلال مجموعة من الألوان: " لون يبدو في قوة العرض والإحياء. ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات. ولون يبدو في رسم الشخصيات. وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمّى باسمه "[1].

سادساً: التصوير من خلال الحقيقة

لم تقتصر ظاهرة التصوير في القرآن الكريم على اللفظ، أو التشبيه، أو الاستعارة، أو الكناية، أو القصة، ولكنها تتجاوز كل ذلك لاستثمار المواقف الحقيقية، وإبرازها بما تعج به من مظاهر الجمال والروعة؛ ذلك أن مثل هذا التصوير يهدف إلى تعميق الأثر الدينيّ المتوخى في نفسية المتلقي.

ولغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل تستثمر هذا النوع من التصوير لرسم لوحات فنية تقع في نفس القارئ موقعاً عظيماً ذا أثر بالغ، فلنلاحظ قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) **{التوبة:34-35}**.

ففي هذه اللوحة الفنية التي جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، تتدفق عظمة الصورة الفنية رغم خلوها من التشبيه، أو غيره من مصادر الصورة وأشكالها، لكنها في الوقت نفسه عميقة الأثر، تصوّر أولئك الذي يكنزون أموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله، تجمل لنا الصورة الموقف، إنهم يكنزون الذهب والفضة، ثمّ تأخذ ملمحاً تفصيلياً؛ إذ " بدأ العملية من أول مرحلة، وعلى مهل.. فالذهب والفضة قد صارا جمعاً لا مثنى، بالإلماع إلى قطعهما الكثيرة؛

---

[1] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص156.

وفي هذا تطويل بالكثرة: (يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا) لا عليهما، ثمّ ها هي ذي (يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا) فلننتظر حتى تصهر.. لقد صُهرت، فلتبدأ العملية الرهيبة: هذه هي الجباه تُكوى .. لقد فرغوا من الكـيّ فـي الجباه. فلتحرك الأجسام للجنوب. هذه هي الجنوب تُكوى.. لقد فرغوا من الكيّ فـي الجنـوب. فلتحرك الأجسام للظهور. هذه هي الظهور تُكوى.. تمهّل. فلم ينته العرض بعد.. هناك التقريـع والتأنيب، عند الانصراف المتخيل ليتناول العذابُ جماعةً أخرى من الصف الطويـل: (هَـٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ)"[1].

فلغة الخطاب عمدت إلى التصوير من خلال الحقيقة كاعتمادها على التصوير من خلال التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو القصة، لإبراز الجانب السوداويّ في بني إسرائيل.

وحرص بني إسرائيل على المعصية والمسارعة في الإثم، يشكل المنطلق الرئيس لهـذا الواقع المليء بمظاهر الكفر والعصيان والتمرد. فلنلاحظ قوله تعـالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) **{المائدة: 41}**.

إننا أمام نص يعجّ بالمشاهد الحية على طريقة التعبير القرآني في بني إسرائيل، إنهم قوم من يهود؛ ذلك أنّ سياق الآيات يتحدث عنهم، كأننا نشاهدهم، وهم يجيئون للمسلمين، فيقولـون: آمنا.. وقلوبهم تفيض كفراً وفسقاً.. يقول **(قطـب)**: " والمسارعة مفاعلة تصـور القـوم كأنمـا يتسابقون تسابقاً في الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنهـا تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد، وتسقط القـيم، ويسـيطر الشر، وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل مـن فيها يتسابقون إلى الشر.. إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء "[2].

---

[1] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص114.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(6). ص789.

وكما تصوّر لغة الخطاب ظاهرة الكفر والعصيان في بني إسرائيل، فإنها تعمد كذلك إلى تصوير الشخصية المقابلة، وهي الفئة المؤمنة منهم. فلنلاحظ قوله تعـالى: (لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) **{آل عمران: 113-114}**.

يترك لنا النصّ فسحة من التخيل لهذه الثلة العاصية، التي تجلت من خلال التصوير الفني بشتى أشكاله ومصادره، يأخذنا إلى مظاهر الكفر واللجاجة والعناد والكبر والتمرد والعصيان، إنها مظاهر لا ينفك القرآن عن ذكرها أو التفصيل في سرد وقائعها.

وهنا، تأخذ لغة الخطاب بعداً تصويرياً مقابلاً، إنها صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب، وفيه إنصاف لهذه القلة الخيّرة منهم، نراهم في هذا المشهد قائمين ساجدين في ظلمة الليل[1]، قائمين عند حدود الله، لا يتجاوزونها أبداً، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، نراهم في لوحات القص القرآني، في لوحة أصحاب السبت، ولوحة العجل، ولوحة البقرة، ولوحة دخول الأرض المقدسة، إذن هي حقيقة، ووجودهم حقيقة، ومنهجهم واضح لا يغيّرونه ولا يبدلونه، يسارعون في الخير، ويحرصون على الطاعة كحرص العاصين على المعصية، بل أشد وأعمق؛ لأنّ المحرك الرئيس عندهم لفعل كل ذلك هو العقيدة، وهو ما يفتقر إليه غيرهم.

يظهر لنا أن لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل استثمرت كل مظاهر التصوير، وعمدت إلى الحقيقة، لتستثمر وهجها ونورها في إبراز ملامح هذه الصورة، بكل ما فيها من ألوان ومعالم وأشكال.

---

[1] انظر، قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. مج(2). ج(4). ص38.

المبحث الثاني: خصائص التصوير الفني في لغة الخطاب

تعددت خصائص التصوير في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل كتعددها في القـرآن كله، وتجدر الإشارة إلى أن هناك خصائص جلية غلبت على لغة الخطاب في بنـي إسـرائيل، وباتت تشكل ملمحاً تصويرياً لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه، وإذا كان التصوير خاصية القرآن المفضلة، فإنّ ذلك لا يعني خلوها من مميزات أو علامات فارقة.

أولاً: التناسق الفني

يشكل التناسق الفني ركيزة من ركائز التصوير في القرآن الكريم، فانسـجام العبـارات وتأليفها بتخير الألفاظ ذات البعد التصويريّ، ونظمها في نسق معـين، ومـا يضـفيه الإيقـاع الموسيقيّ من ملامح تصويرية، يعدّ من قبيل التناسق الفني الذي وقف عليه كثير مـن الأدبـاء والبلاغيين والنقاد.[1]

إن تأليف العبارة القرآنية وتناسقها الموسيقيّ واللفظيّ يسهمان فـي تشـكيل الصـورة وإبرازها على نحو تكون فيه أكثر قدرة على التأثير، وأكثر إمكانية لتحديد المعنى المراد، يظهر ذلك كما مر آنفاً من خلال الألفاظ (بمزحزحه) و(انسلخ) و(أخلد) وغير ذلك من الألفاظ.

والتناسق الفني لا يقتصر على العبارة واللفظ فحسب، بل يتجاوز ذلك ليشمل النص كله، كما يظهر في أسلوب القصّ القرآنيّ، فقصة بني إسرائيل تعج بالفجوات التـي تتـيح للقـارئ التحليق بخياله، لا سيما أن الوقوف على التفاصيل قد لا يفيد في تحقيق الهدف المتوخى، فقصـة البقرة على سبيل المثال، لا تفصح عن مناجاة موسى υ لربه، ودعوته له في شأن معرفة القاتل، بل عمدت لغة الخطاب بالبدء {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً}؛ ذلك أن الغرض من هذه القصة هو إظهار حقيقة البعث، وقدرة الله Y على ذلك.

ثمّ يأتي دور التصوير في رسم الشخصيات بأسلوب حواريّ نابض بالحياة، لتبـدو لنـا الشخصية على حقيقتها بما تتصف به من اللجاجة والتلكؤ والحمق.

ومن مظاهر التناسق في لغة الخطاب، التكرار للإفادة، وقد غلب التكرار في التصـوير من خلال القصة، فهناك من القصص ما سيق لإخبار النبيّ ρ بأمر يجهله، كقصة البقرة مـثلاً،

---

[1] انظر، قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ص74-75.

وعلمُ النبي ρ يَثبت من أول وهلة، فلا داعي للتكرار. وهناك من القصص ما سيق لمواساته ρ والتسلية عنه؛ " لأن النبيّ ρ في كل لحظة يحتاج إلى رعاية إلهية، حيث إن قومه لم يسكتوا عنه برهة، فالصراع دائم، والحقد متحرك، والخواطر تنبئ عن شرّ متدفق، ونوايا خبيثة، فكان تكرار القصص القرآنية مواساة لرسول الله ρ وتعزية له في كل موقف من المواقف، وهذا عامل مهم يقوي نجاح الدعوة الإسلامية، حتى تنهض خفاقة، وهي تحقق مأربها السامي، وغاياتها الطيبة "[1].

ولعلّ جانب التصوير هو العنصر الأهم في العرض القصصيّ الذي يسهم في تعزيز هذا المعنى، وتحقيق هذا الغرض؛ لأنّ تكرار القصة بما فيها من جمال تصويريّ يوقظ الهمم، ويدفع العقول والنفوس إلى التأمل والتدبر " ففرق كبير بين الشيء الذي يحكى مرة، وبين الشيء الذي يكثر تكراره، ففي الثاني استشعار أقوى من الأول، وتعليم للإنسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة "[2].

يظهر ذلك من خلال تكرار حلقة العجل، ففي **(البقرة)** ورد ذكرها في سياق ذكر النعم، وذلك للإشارة إلى النعمة التي أنزلها الله على بني إسرائيل من التوبة والمغفرة بعد عبادتهم للعجل، وفي **(طه)** ورد ذكرها في سياق التسلية عن النبيّ ρ، بالإشارة إلى ما لاقاه موسى υ من قومه، لكنه صبر واحتمل، وثبت على الحق، وهذا هو دأب الأنبياء والمصلحين.

وتجدر الإشارة إلى أن التناسق لم يقتصر على اللمسات الفنية من موسيقا وألفاظ وعبارات وقص قرآنيّ، وإنما تجاوز كل ذلك ليعبر عن المكنونات النفسية للشخصية القرآنية، فتصوير الانفعالات والعواطف من أجلّ سمات التصوير في لغة الخطاب، يظهر ذلك من خلال لوحة العجل في سورة طه، والانفعال الوجدانيّ والنفسيّ الذي أخذ يلفّ شخصية موسى υ، ويتملك أحاسيسها ووجدانها.. صورته υ وهو يشدّ أخاه من لحيته.. صورة الألواح، وهي تتكسر تعبر عن غضبة ملتهبة فاضت بها الروح.

لا شك في أن التناسق الفني في التصوير القرآنيّ يسهم في تشكيل لوحة متكاملة للأحداث والشخصيات، تتكاتف الألفاظ في جزالتها، والموسيقا في جرسها، والعبارات في

---

[1] باحاذق، عمر محمد: **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**. ص44.

[2] **السابق نفسه**. ص71.

نظمها، والقصة في مشاهدها وحواراتها، والعواطف في أحاسيسها ورقتها، لتشكل لنا صورة كلية مليئة بالألوان الأخاذة الساحرة..

ثانياً: الإبداع في عرض المشاهد

ومن خصائص التصوير في لغة الخطاب الإبداع في عرض المشاهد على طريقة القرآن في التصوير الفني، ولعل هذا النوع من الأساليب يولّد للقارئ الإحساس بالمشاركة الحادّة في الفعل، وكأنه يعاصر الأحداث فور وقوعها[1]، والقارئ يستشعر هذه المعاني حينما يقرأ قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ) **{التوبة:34-35}**.

إنه إبداع يفوق كل إبداع، إبداع في نقل المشهد الحتميّ المرتقب إلى واقع يعيش معه القارئ فيرهبه هوله، وكأنّ هذه المشاهد تصيب كنه الشعور فور النطق بالألفاظ والعبارات.

والقصص القرآنيّ يموج بهذا النوع من الأساليب، لا سيما تلك القصص التي تنقلنا من مكان إلى آخر، وتتكون من صور جزئيّة تسهم في تشكيل صورة جامعة للنص القصصي كله، كما ظهر آنفاً في حلقة العجل، عندما يأخذنا الحوار من مشهد إلى آخر، في عرض قصصيّ محكم يُظهر إعجاز هذا القرآن ودقته وحيويته وسر خلوده.

نلاحظ ذلك من خلال المشاهد الآتية:

- قوم موسى يصنعون عجلاً ذهبياً يعبدونه من دون الله.
- موسى يعود إلى قومه، وهم على ما هم عليه من الضلال والانحراف.
- الألواح تتكسّر.
- حوار موسى مع قومه.
- حوار موسى مع أخيه.
- حوار موسى مع السامريّ.
- انتصار إرادة الحق...

---

[1] انظر، عبد العالي، بوطيب: ***إشكالية الزمن في النص السردي***. **مجلة فصول**. مج(12). ع2/ 1993. ص 129.

كلها مشاهد عرضت بأسلوب متسلسل محكم، تشكل الصورة الفنية العنصر الرئيس في تشكيلها عبر حوارات متداخلة، تحيي النص الجامد فتحيله إلى نص متحرك يتصف بالحيوية والعمق.

ثالثاً: الصور المتقابلة

وهي خاصية رئيسة من خواصّ التصوير القرآنيّ، لا سيما في لغة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل؛ ذلك أن لغة الخطاب حرصت على تصوير الأحداث من خلال الشخصية، وانقسمت الشخصية على طول لغة الخطاب إلى سلبية، وهي الشخصية الأعمّ في بني إسرائيل، وإيجابية، وهي الشخصية المقابلة.

وهذا النوع من التصوير يهدف إلى تقرير حقيقة كونية، هذه الحقيقة تتمثل فيما يمكن أن نسميه بـ (التدافع) بين الحق والباطل، وهي سمة أحاط بها القرآن من كلّ جانب. قال تعالى: (وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ) {البقرة: 251}.

فالصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، حقيقة باقية ما بقي هذا الكون، وهذا ما تتضمنه الصور الفنية المتقابلة في لغة الخطاب.

يظهر ذلك من خلال الشخصيات التي تشكلت في قصص القرآن، كالشخصية المتحايلة في قصة أصحاب السبت وما يقابلها من الشخصية المؤمنة الثابتة، التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وكذلك الحال في كلّ قصص القرآن في بني إسرائيل، كما مرّ آنفاً في التصوير من خلال القصة.

ولعلّ ظاهرة التقابل لا تقتصر على بني إسرائيل فحسب، بل هي عامة في كل مجتمع، لهذا نجد القرآن يستثمر الوقائع في بني إسرائيل ليرسي للاحقين قواعد عامة يمكن استخلاصها والإفادة من معطياتها، وهذا ما نعنيه حينما نقول: إنّ النص القرآني لا يختص ببني إسرائيل، وإنْ كانوا محور الحديث فيه، بل يشمل كل من يتصف بصفات بني إسرائيل، ولو لبس لباس الإسلام وادّعى لنفسه الإيمان.

رابعاً: الإجمال ودقة البيان

وهي خاصية تتميّز بها ظاهرة التصوير في القرآن الكريم، ونجـدها ماثلـة فـي لغـة الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، وهي تعتمد على اللفظ القليل لإفادة المعنى الكثير، وأكثـر مـا يظهر هذا النوع من الأساليب في التصوير من خلال اللفظ[1]؛ ذلك أن القرآن يعمد إلـى اللفـظ المصوّر لما يحققه من أثر أو خصوصية في المعنى، فلـنلاحظ قولـه تعـالى: (وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) {المائـدة: 13}. إذ جيء باللفظ (قاسية) الدال على القسوة، ويقال: درهم قسيّ، أي: فاسـد رديء، وإجمال هذه الصورة من خلال اللفظ (قاسية) يظهر دقة البيان؛ ذلك أنـه يصـور هـذه القلوب التي صدّت عن ذكر الرحمن، وسعت في الأرض فساداً، وخالطها كثير من مظاهر الكفر والنفاق، إنما يصورها بالدراهم القسيّة، التي يخالط فضتها غشّ، من نحاس أو رصاص أو غير ذلك.[2]

وكم لاحظنا مظاهر الإجمال ودقة البيان في التصوير من خلال اللفظ (انسلخ)، واللفـظ (أخلد)، واللفظ (بمزحزحه)، واللفظ (يلوون)، واللفظ (يمسّكون)، وغير ذلك من الألفاظ.

يظهر لنا أن التصوير هو أداة القرآن المفضلة للتعبير عن المعاني الذهنية بمشاهد محسّة يعيش معها القارئ، ويستلهم منها المعاني والدروس، ويرقّ لها قلبـه، وتـذكي الشـعور فـي أحاسيسه ووجدانه.

إنّ التصوير من خلال اللفظ أو التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو القصة أو الحقيقة مـا هو إلا محاولة لفهم المعنى بأسلوب جماليّ، يضفي عليه قيمة إضافية تجعله أكثـر تـأثيراً فـي المتلقي، وأكثر تحديداً للمعنى، وهذا سر من أسرار القرآن المتجددة، ما علمنا منه وما لم نعلـم، يُظهر إعجاز هذا الكتاب ودقة بيانه وقدرته على الإحاطة بكل الأفهام والأذواق.

---

[1] انظر، عبد التواب، صلاح الدين: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ص155.

[2] انظر، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ج(12). مادة **(قسا)**. ص106.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة لغة الخطاب القرآنيّ في بني إسرائيل بالوصف والتحليل، من وجهة نظر أسلوبية دلالية، فبحثت في مستوياتها اللغوية الثلاث: الصوتي، والدلالي، والتركيبي، ووقفت على أهمّ الظواهر الأسلوبية، من خلال الاستقراء الوصفي والإحصائي، ليسهم كل ذلك في بيان وظيفة هذه الظواهر وأثرها في توجيه الدلالة.

يمكن تحديد أهمّ النتائج التي توصل إليها الباحث في النقاط الآتية:

* هناك فرق كبير بين مفاهيم (العبراني، والإسرائيلي، واليهودي)، واستخدام اليهود اليوم لهذه المفاهيم يربطهم بأطوار زمنية لم يعيشوها قط. ولغة الخطاب في بني إسرائيل جاءت لتخاطب اليهود المعاصرين للنبيّ ρ، باعتبارهم جزءاً من أسلافهم من بني إسرائيل، وإن لم يكونوا من سلالتهم؛ لأنهم رضوا بأن يكونوا كسابقيهم في الكفر والتمرد والعصيان.

* تقدم لغة الخطاب بأصواتها ودلالاتها وتراكيبها ولوحاتها الفنية والجمالية صورة متكاملة للشخصية الإسرائيلية، سواء أكانت هذه الشخصية إيجابية أم سلبية.

* عمدت لغة الخطاب إلى تخيّر الأصوات الدالة على عمق الحزن الذي أخذ يكتنف موسى υ طوال دعوته لقومه. وغالباً ما تضمّنت الأصوات دلالات كاشفة عبر استخدام الأصوات المرققة لألفاظ النعم، والأصوات المفخمة لألفاظ العقوبات.

* تكتظّ بعض الأصوات في لغة الخطاب بكثرة بالغة، كالأصوات المهموسة، والمفخمة والمرققة، والصفيرية، والذلاقة؛ لتحقيق معان بلاغية متعددة.

* عمدت لغة الخطاب إلى ظاهرتي التنغيم والتماثل في المقطع الصوتي؛ لتضفي على النص معاني إضافية، كالتقرير، والتوبيخ، والإنكار، والتعجب، والتهكم، وما تحدثه من ضربات إيقاعية تضفي على النص أحاسيس وجدانية عميقة، سيطرت على موسى υ في رحلته مع بني إسرائيل.

* توزعت لغة الخطاب في ثلاثة حقول دلالية: حقل ألفاظ السلوك، وحقل ألفاظ الوصف، وحقل ألفاظ الجزاء. وجاءت الألفاظ في الحقول كلها لتصور لنا نموذجين من نماذج الشخصية في بني إسرائيل: الشخصية العاصية، والشخصية المؤمنة. وغالباً ما تضمّنت العلاقة بين هذه الألفاظ داخل الشخصية الواحدة معنى التضمين. ومعنى التضاد في علاقتها مع الشخصية المقابلة.

* أخذت أساليب الإنشاء الطلبي الواردة في لغة الخطاب، كالأمر والنهي والاستفهام والنداء، طابع التدرج فيما تخرج إليه من معان بلاغية، كالنصح والإرشاد، والإباحة والامتنان، ثمّ المحاججة والتكذيب والتبكيت، إلى أن يأخذ الأسلوب طابع الإهانة والتحقير.

* تعدّ دلالة السياق العنصر الأهمّ في الكشف عن العدول في أسلوبية الخطاب في بني إسرائيل، من خلال الألفاظ المفردة، أو من خلال المتشابه اللفظي الذي تعجّ به لغة الخطاب، لذا فإن لسياق السورة أثراً في توجيه الدلالة وانتقائها، كانتقاء الصوت، واللفظ، والجملة، وصيغة المشتق، وصيغة الجمع، وما تضفيه سياقات الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، من معان تصويرية وبلاغية، كالتهويل، والتعظيم، والتحقير، وغير ذلك من المعاني، التي تسهم في تشكيل صورة متكاملة للشخصية الإسرائيلية، وتضفي على النصّ قيمة معجزة تتمثل في إنصاف القلة القليلة المؤمنة.

* يشكل الالتفات ظاهرة جلية في لغة الخطاب، كالالتفات في الصيغ، والضمائر، والعدد، ووضع الظاهر موضع المضمر، وما يتضمنه هذا الأسلوب من معان بلاغية جمّة.

* عمدت لغة الخطاب إلى أسلوب التعريض؛ لتفضح سلوك بني إسرائيل، وتصوّرهم بأقبح صورهم وأشكالهم، التي ينفر منها القارئ، لقبح منظرها، وسوء شكلها.

* تبدو ظاهرة التصوير الفني في لغة الخطاب ملمحاً أسلوبياً فريداً، يلمّ بكل الصور المتقابلة للشخصية الإسرائيلية، فيصور الشخصية العاصية بصورها السلبية القاتمة، ويصور الفئة المؤمنة بوهجها المضيء، الذي يشع بنور دين الله Y، وهدي أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

وغالباً ما اعتمدت لغة الخطاب على التصوير من خلال اللفظ، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والقصة، والحقيقة، لتظهر هذه الشخصية على حقيقتها، دونما تحوير أو تبديل.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الكتاب المقدس**

أولاً: المصادر

1. ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. د.ط. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر: مطبعة مصطفى الحلبي. 1939.
2. ابن الأثير، أبو الحسن علي: **الكامل في التاريخ**. ج(1). د.ط. بيروت: دار صادر. د.ت.
3. الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج(1). ط(4). بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1985.
4. الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د.ط. 1944.
5. الأنباري، محمد بن القاسم: **كتاب الأضداد**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. د.ط. بيروت: المكتبة العصرية. 1991.
6. الباقلاني، محمد بن الطيب: **إعجاز القرآن**. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط(5). مصر: دار المعارف. 1963.
7. البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. ط(1). مصر: دار الفكر. 1994.
8. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**. تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط. بيروت: دار الجيل. د.ت.
9. الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**. تحقيق: محمد رشيد رضا. ط(1). بيروت: دار الكتب العلمية. 1988.

– **دلائل الإعجاز**. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط(3). جدة: دار المدني. 1992.

10. ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**. تحقيق: محمد علي النجار. د.ط. بيروت: عالم الكتب. د.ت.

– **سر صناعة الإعراب**. ج(1). ط(1). تحقيق: حسن هنداوي. دمشق: دار القلم. 1985م.

11. الجوهري، إسماعيل بن حماد: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيـــة**، ج(4). ط(2). بيروت: دار العلم للملايين. 1979.

12. ابن الحاجب، جمال الدين: **الشافية في علم التصريف**. ج(1). ط(1). تحقيق: حســن أحمد عثمان. مكة المكرمة: المكتبة المكية. 1995.

13. ابن الحجاج، مسلم: **صحيح مسلم**. ج(3). د.ط. القاهرة: دار الفكر للطباعة. 1983.

14. ابن حزم، علي بن أحمد: **الفصل في الملل والأهواء والنّحــل**. ج(1). تحقيق: محمــد نصر وعبد الرحمن عميرة. د.ط. بيروت: دار الجيل. 1985.

15. الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**. مج(2). ط(2). بيروت: دار صادر. 1995.

16. أبو حيان، محمد بن يوسف: **تفسير البحر المحيط**. ج(3). تحقيق: عادل عبد الموجود ورفاقه. ط(1). بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.

17. ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**. ط(1). القاهرة: دار الفجــر للتــراث. 2004.

18. ابن دريد، محمد بن الحسين: **كتاب الاشتقاق**. تحقيق: عبد الســلام هــارون. ط(2). بغداد: مكتبة المثنى. 1979.

19. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: **المفردات فــي غريــب القــرآن**. راجعه وقدم له: وائل عبد الرحمن. د.ط. القاهرة: المكتبة التوفيقية. *2003*.

20. الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس مــن جــواهر القــاموس**. ج(15). تحقيــق: مجموعة من المحققين. د.ط. دار الهداية. د.ت.

21. الزجاج، إبراهيم بن السري: **معاني القرآن وإعرابه**. ج(1). شــرح وتحقيــق: عبــد الجليل عبده شلبي. ط(1). بيروت: عالم الكتب. 1988.

22. الزركشي، محمد بن عبد الله: **البرهان في علــوم القــرآن**. تحقيــق: أبــو الفضــل الدمياطي. محمد أبو الفضل إبراهيم. د.ط. القاهرة: دار الحديث. 2006.

23. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **أساس البلاغة**. د.ط. القاهرة: دار الشــعب للطباعة. 1960.

- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويــل**. ط(1). بيــروت: دار إحياء التراث العربي. 1997.

- **المفصل في علم العربية**. ط(2). بيروت: دار الجيل. 1323هـ.
24. أبو السعود، محمد العمادي: **إرشاد العقل السليم**. ج(1). د.ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي. د.ت.
25. السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور. ط(2). بيروت: دار الكتب العلمية. 1987.
26. سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر: **الكتاب**. تحقيق: عبد السلام هارون. ط(2). القاهرة: مكتبة الخانجي. الرياض: دار الرفاعي. 1988م.
27. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**. ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم. ط(2). بيروت: دار الكتب العلمية. 2007.
- **الأشباه والنظائر في النحو**. ج(3). ط(3). القاهرة: عالم الكتب. 2003.
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. تحقيق: محمد جاد المولى ورفاقه. د.ط. بيروت: منشورات المكتبة المصرية. 1987.
28. الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**. ج (1). د.ط. لبنان: د. مطبعة. 1967.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ج(1). د.ط. بيروت: دار الفكر. 1405هـ.
29. ابن عقيل، بهاء الدين: **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**. مج(2). ج(4). ط(20). القاهرة: مكتبة دار التراث. 1980.
30. العلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**. ج(2). مراجعة وتدقيق: جماعة من العلماء. د.ط. بيروت: دار الكتب العلمية.
31. علي، جواد: **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. ط(1). بيروت: دار العلم للملايين. 1970.
32. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: عبد السلام هارون. ط(2). بيروت: دار الجيل. 1999.
- **الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**. علق عليه: أحمد حسن بسج. ط(2). بيروت: دار الكتب العلمية. 2007.

33. الفخر الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. ط(2). طهران: دار الكتب العلميـــة. د.ت.

34. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: **كتاب العين**. ج(5). تحقيق: مهدي المخزومي وإبـــراهيم السامرائي. د.ط. مصر: دار الهلال. د.ت.

35. القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: محمد بيـــومي، وعبـــد الله المنشاوي. ط(2). القاهرة: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع. 2006.

36. القزويني، جلال الدين محمد: **التلخيص في علوم البلاغة**. ضـــبطه وشـــرحه: عبـــد الرحمن البرقوقي. ط(2). مصر: دار الفكر العربي. 1932

37. القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: **العمدة في محاسن الشـــعر وآدابـــه ونقـــده**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط(5). بيروت: دار الجيل. 1981.

38. ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر: **بدائع الفوائد**. مج (2). ج(4). د.ط. بيـــروت. دار الكتاب العربي. د.ت.

39. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**. ج(1). د.ط. طرابلس: مكتبة الوليد. د.ت.

– **تفسير القرآن العظيم**. ط(5). الرياض: دار السلام للنشر. الكويت: جمعية إحيـــاء التراث الإسلامي. 2001.

40. المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: **الكامل**. ج(2). د.ط. بيروت: مكتبـــة المعـــارف. د.ت.

41. مخيمر، محمد صالح: **معجم الأساليب البلاغية فـــي القـــرآن الكـــريم**. د.ط. الأردن، إربد: دار الكتاب الثقافي. *2005*.

42. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ط(*3*). بيروت: دار صـــادر. *2004*.

43. ابن هشام، محمد: **سيرة النبي ρ**. ج(2). ط(3). تحقيق: مصـــطفى الســـقا ورفاقـــه. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1998.

ثانياً: المراجع

44. إسماعيل، محمد بكر: **قصص القرآن**. ط(1). القاهرة: دار المنار. 2003.

45. إعلاوي، نزيه محمد: **الشخصيات القرآنية**. ط(1). عمان: دار صفاء. 2006.

46. الألباني، محمد ناصر: **صحيح الجامع الصغير**. مج(1). ط(1). الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي. 2000.

47. ألكك، فيكتور، وأسعد علي: **جذور العربية فروع الحياة**. ط(1). بيروت: دون مطبعة. 1972.

48. أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**، ط(4). بيروت: دار القلم. 1972.

- **الأصوات اللغوية**، ط(5). القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية. 1979.

- **دلالة الألفاظ**. ط(3). القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية. 1976.

49. باحاذق، عمر محمد: **الجانب الفني في قصص القرآن الكـــريم**. ط(1). دمشـــق: دار المأمون للتراث. 1993.

50. بالمر، ف. ر: **علم الدلالة إطار جديد**، د.ط. ترجمة: صـــبري الســـيد. مصـــر: دار المعرفة. 1999.

51. بدوي، أحمد: **من بلاغة القرآن**. ط(1). مصر: شركة نهضة مصر. 2005.

52. البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي**. ط(*3*). بيروت: دار الأندلس. *1983*.

53. البهنساوي، حسام: **علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة**. ط(*1*). القاهرة: زهـــراء الشرق. *2009*.

54. البوطي، محمد سعيد: **من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتـــاب الله عـــز وجل**. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1996.

- **فقه السيرة النبوية**، ط(11)، دار الفكر: بيروت، دار الفكر: دمشق، 1991.

55. ابن تيمية، أحمد: **مجموع الفتاوى**. ج(13). جمع وترتيب: عبد الرحمن قاســـم. دط. د.ت.

56. جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ترجمة: منذر عياشي. ط(2). حلب: دار الإنماء الحضاري. 1994.

57. حسان، تمام: **البيان في روائع القرآن**. ط(1). القاهرة: عالم الكتب. 1993.

- **اللغة العربية معناها ومبناها**. ط(1). القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة. 1973.

58. الحميدان، عصام بن عبد المحسن: **الصحيح من أسباب النزول**. ط(1). بيروت: مؤسسة الريان. 1999.

59. حميده، مصطفى: **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**. ط(1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. مصر: الشركة المصرية. 1997.

60. حيدر، فريد: **علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية**. د.ط. القاهرة: مكتبة النهضة. 1999.

61. الخالدي، صلاح: **الشخصية اليهودية من خلال القرآن**. ط(*1*). بيروت: دار الفكر العربي. *1999*.

- **القصص القرآنيّ**. ج(3). ط(2). دمشق: دار القلم. بيروت: الدار الشامية. 2007.

62. خان، محمد: **اللهجات العربية والقراءات القرآنية دراسة في البحر المحيط**. ط(2). المغرب: دار الفجر للنشر. 2003.

63. الخشبة، غطاس: **رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية.. والخروج**. د.ط. الإسكندرية: دار الهلال. 1990.

64. خضر، محمد مشرف: **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**. ط(1). القاهرة: دار العواصم للنشر. 2004.

65. خلف، طلال: **قيم اليهود في القصص القرآني**. ط(1). فلسطين، غزة: آفاق للطباعة. 2001.

66. الخولي، البهيّ: **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**. ط(1). دمشق: دار القلم. 2003.

67. دروزة، محمد عزة: **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**. د.ط. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات. د.ت.

68. دنلوب، د.م: **تاريخ يهود الخزر**. ترجمة وتقديم: سهيل زكار. ط(1). بيروت: دار الفكر. 1987.

69. الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**. الطبعة الجديدة. تحقيق: محمود خاطر. إخراج: دائرة المعارف. بيروت: مكتبة لبنان. 1995.

70. الرافعي، مصطفى صادق: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ط(2). مصر: المكتبة الأهلية. 1926.

71. الرباعي، عبد القادر: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**. ط(2). الأردنّ: دار الفارس. 1999.
72. رمضان، محيي الدين: **وجوه من الإعجاز الموسيقيّ في القرآن**. ط(1). عمـان: دار الفرقان. 1982.
73. الزعبي، الأرقم: **حقائق عن اليهودية**. ط(1). الدار المتحدة للطباعة. 1990.
74. أبو زهرة، محمد: **المعجزة الكبرى القرآن**. د.ط. القاهرة: دار الفكر العربي. 1970.
75. السامرائي، فاضل: **بلاغة الكلمة في التعبير القرآنـي**. ط(4). عمـان: دار عمـار. 2007.
76. السعد، جودت: **الشخصية اليهودية عبر التاريخ**. ط(2). المؤسسة العربيـة للنشـر. 1988.
77. سعفان، كامل: **اليهود تاريخاً وعقيدة**. ط(3). القاهرة: دار النصر للطباعة. 1988.
78. سوسة، أحمد: **أبحاث في اليهودية والصـهيونية**.د.ط. الأردن: دار الأمـل للنشـر. 2003.
79. السويدان، طارق: **اليهود الموسوعة المصورة**. ط(1). الكويـت: شـركة الإبـداع الفكري. 2009.
80. أبو شادي، مصطفى عبد السلام: **الحذف البلاغي في القرآن الكريم**. د.ط. القـاهرة: مكتبة الإيمان. 1992.
81. الشايب، أحمد: **أصول النقد الأدبي**. ط(2). القاهرة: مطبعة الاعتماد. د.ت.
82. شلبي، أحمد: **موسوعة التاريخ الإسـلامي والحضـارة الإسـلامية**، ط(11)، ج(1)، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1984.
83. شيخون، محمود السيد: **أسرار التقديم والتأخير فـي لغـة القـرآن الكـريم**. ط(1). القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية. 1983.
84. الصابوني، محمد: **صفوة التفاسير**. ط(1). القاهرة: دار الصابوني للطباعة. 1997.
85. صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصـرفه وبيانـه**. ط(3). دمشـق: دار الرشيد. بيروت: مؤسسة الإيمان. 1995.

86. صلاح الدين، عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ط(1). مصر: الشركة المصرية العالمية. 1998.
87. صلواتي، ياسين: **الموسوعة العربية الميسرة والموسعة**. ج(8). ط(1). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي. 2001.
88. طبل، حسن: **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**. د.ط. القاهرة: دار الفكر العربي. 1998.
89. طعيمة، صابر: **التاريخ اليهوديّ العام**. ط(3). بيروت: دار الجيل. 1991.
90. طقوس، بسام: **دليل النظرية النقدية المعاصرة**. ط(1). الكويت: مكتبة العروبة. 2004.
91. طنطاوي، محمد سيد: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**. ط(1). القاهرة: دار الشروق. 1997.
92. طومسون، توماس: **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**. ترجمة: صالح علي سوداح. ط (1). بيروت: بيسان للنشر. 1995.
93. الطويل، السيد رزق: **بنو إسرائيل تاريخ وتحقيق**. د.ط. القاهرة: دار المعارف. 1980.
94. ظاظا، حسن: **الساميون ولغاتهم**. ط(2). دمشق: دار القلم. بيروت: الدار الشامية. 1990.
95. عباس، فضل حسن: **أساليب البيان**. ط(1). عمان: دار النفائس. 2007.
96. عبد الجليل، عبد القادر: **الأصوات اللغوية**. ط(1). عمان: دار صفاء للنشر. 1998.

– **هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي رؤية لسانية حديثة**. ط(1). عمان: دار صفاء للنشر. 1998.

– **الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية**. ط(1). عمان: دار صفاء. 2002.

97. عبد الجليل، منقور: **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**. د.ط. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. 2001
98. عبد الرؤوف، محمد: **القافية والأصوات اللغوية**. القاهرة: مكتبة الخانجي. 1977.

99. عبد المطلب، محمد: **البلاغة والأسلوبية**. ط(1). مصر: الشركة المصرية للنشر. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. 1994.

100. عرابي، رجا: **سفر التاريخ اليهودي**. ط(1). سورية: الأوائل للنشر. 2004.

101. عزوز، أحمد: **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. د.ط. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2002.

102. عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**. د.ط. القاهرة: دار الثقافة. 1974.

103. عطية، مختار: **الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. 1997.

104. العلوي، يحيى بن حمزة: **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**. ج(2). مراجعة وتدقيق: جماعة من العلماء. د.ط. بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت.

105. عمر، أحمد مختار: **دراسة الصوت اللغوي**. ط(1). القاهرة: عالم الكتب. 1997.

- **علم الدلالة**. ط(5). القاهرة: عالم الكتب. 1998.

106. أبو عواد، إبراهيم: **صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل**. د.ط. عمان: مطبعة دار اليازوري. 2008.

107. فارس، أحمد محمد: **النداء في اللغة والقرآن**. ط(1). بيروت: دار الفكر اللبناني. 1989.

108. فضل، صلاح: **علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته**. ط(2). القاهرة. مؤسسة المختار. 1998.

109. فوده، عبد العليم السيد: **أساليب الاستفهام في القرآن**. د.ط. القاهرة: مؤسسة دار الشعب. د.ت.

110. فيود، بسيوني عبد الفتاح: **علم المعاني**. ط(*3*). القاهرة: مؤسسة المختار. *2004*.

- **علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان**. ط(2). القاهرة: مؤسسة المختار. 2004.

111. قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ط(1). القاهرة: دار المعارف. 1969.

- **في ظلال القرآن.** ط(7). بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1971.
- **النقد الأدبي أصوله ومناهجه.** ط(3). القاهرة: دار الفكر العربي. 1960.

112. القمني، سيد: **إسرائيل التوراة التاريخ التضليل.** د.ط. القاهرة: دار قباء للطباعة. 1998.

113. القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة.** ط(3). عمان: دار عمار. 1996.

114. كشك، أحمد: **من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي.** ط(1). دار السلام: مطبعة المدينة. 1983.

115. لاشين، عبد الفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن.** ط(*2*). القاهرة: دار الفكر العربي. *1998*.
- **المعاني في ضوء أساليب القرآن.** ط(4). القاهرة: دار الفكر العربي. 1999.

116. لوشن، نور الهدى: **علم الدلالة (دراسة وتطبيق).** د. ط. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث. د.ت.

117. المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم.** الطبعة الشرعية. القاهرة: دار الوفاء. 2003.

118. المرسي، كمال: **فواصل الآيات القرآنية.** ط(1). الإسكندرية: المكتب الجامعي. 1999.

119. المسيري، عبد الوهاب: **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.** ط(1). القاهرة: دار الشروق. 1999.
- **من هو اليهودي؟!** ط(1). القاهرة: دار الشروق. 1997.

120. مصلوح، سعد: **دراسة السمع والكلام.** القاهرة: عالم الكتب. 1980.

121. مطلوب، أحمد: **أساليب البلاغية.** ط(1). الكويت: وكالة المطبوعات. 1980.

122. المقريزي، تقي الدين: **تاريخ اليهود وآثارهم في مصر.** تحقيق: عبد المجيد دياب. د.ط. القاهرة: دار الفضيلة. 1997.

123. المنذري، زكي الدين: **مختصر صحيح مسلم.** رقم الحديث: (3222). ط(2). دمشق: اليمامة للطباعة والنشر. 1996.

124. مهران، محمد بيومي: **بنــو إســرائيل**. ج(1). د.ط. الإسـكندرية: دار المعرفــة. 1999.

- **بلاد الشام**. د.ط. الإسكندرية: دار المعرفة. د.ت.

125. أبو موسى، محمد: **خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**. ط(2). القاهرة: مكتبة وهبة. د.ت.

126. ناصف، مصطفى: **نظرية المعنى في النقد العربي**. القاهرة: دار القلم. 1965.

- **الصورة الأدبية**. بيروت: دار الأندلس. 1981.

127. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبـديع**. ط(12). د. مكان نشر. د.ت.

128. هلال، محمد غنيمي: **النقد الأدبي الحديث**. ط(7). مصر: مكتبة النهضة. 1964.

129. ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اللغات السامية**. ط(1). مصر: مطبعة الاعتماد. 1929.

- **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصــدر الإســلام**. مصــر: مطبعــة الاعتماد.1927.

130. يوسف، عبد الكريم محمود: **أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه**. ط(1). دمشق: مطبعة الشام. د.ت.

ثالثاً: الدوريات

131. جبر، يحيى عبد الرؤوف: **الصوت لفظاً ومعنى. مجلــة اللســان العربــي**. ع/37. 1993.

132. درويش، أحمد: **الأسلوب والأسلوبية مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه. مجلة فصول**. مج(5). ع/1. أكتوبر. 1984.

133. الراجحي، عبده: ***علم اللغة والنقد الأدبي/ علم الأسلوب***. **مجلة فصــول**. مــج(1). ع2/ يناير/ 1981.

134. عبد العالي، بوطيب: ***إشكالية الزمن في النص السردي***. **مجلة فصول**. مــج(12). ع2/ 1993.

135. العطار، سليمان: ***الأسلوبية علم وتاريخ***. **مجلة فصــول**. مــج(1). ع 2/ ينــاير/ 1981.

136. عياد، محمود: **الأسلوبية الحديثة محاولة تعريف. مجلة فصـــول**. مـــج(1). ع/2. يناير/ 1981.

137. عودة، خليل: **المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي. مجلة النجـــاح للأبحـــاث**. مج(2). ع/8. 1994.

138. فضل، صلاح: ***علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة.* مجلـــة فصـــول**. مـــج(5). ع1/ 1984.

رابعاً: الرسائل الجامعية

139. الشتوي، فهد بن شتوي: **دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى**. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة أم القرى: مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية. 2005.

140. الشثري، صالح بن عبد الله: **المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية**. (رسالة دكتوراة غير منشورة). جامعة أم القرى: مكـــة المكرمـــة. المملكـــة العربيـــة السعودية. 2001.

141. الطلحي، ردة الله: **دلالة السياق**. ط(1). (رسالة دكتـــوراة منشـــورة). جامعـــة أم القرى. مكة المكرمة: مطابع جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية. 1424 هـــ.

142. كلنتن، هيفاء عبد الحميد: **نظرية الحقول الدلالية دراسة تطبيقية فـــي المخصـــص لابن سيده**. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة أم القرى. مكة المكرمـــة. المملكـــة العربية السعودية. 2001.

Al-najah Nationl University
Faculty of Graduate Studies

Quranic Discourse of Israelites
Alexical Stylistic Study

by
Lafi M. M. Zaqout

Supervised by
Pro: Khalil M. Oudeh
Pro: Yahia A. Jaber

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of master of Arabic language Faculty of Graduate Studies, An-najah National University, nablus, Palestine.
2010

Quranic Discourse of Israelites
Alexical Stylistic Study
by
Lafi M. M. Zaqout
Supervised by
Pro: Khalil M. Oudeh
Pro: Yahia A. Jaber

Abstract

The proposal sheels light on the Quranic Rhetoric in addressing the sons of Jacob.

There is a prelude study that distinguish hes between concepts of Hebrew, Jew and on Israeli. There's so ademonstration of the historical progress of the Hebraeans through ages.

In chapter one, there's a phonetic analysis – of the Quranic Readdressing Hebrews – througle studying internal and external rhythmic meters – as well as argument of phonetic Phnom of phonemic an a logy and syuable of allophones and their Hey significance .

In chapter tow, the terms in the Rhetonc are chassified into three fields : Behavioral, Descriptive and Rteri but ional semantic fields which are defined as one and whole fields of interior significance.

In chapter three, there's après entation of the structure an alysis of the Quramic Rhetoric, arguing an extraordinary composition methodology and unprecedented rhetorical semantics the context itself necessitates .

There's also an influential terminology choice of context in chiding nouns, verbs, past tenses, derivatives, plurals, definite and non definite, context omission and notification, as well as pres entation and procrastination . There's also adiscussion of style building composition phenomena like drawing attention and reference.

In the last chapter, there's the artistic image in the Quranic Rhetoric through word building terms, similie, metaphor, symbol, story and truth, which define the prominent properties of this phenomenon . The thesis concludes recommendations and morals followed by a summary that this thesis and topic study contents aim at.